موسوعة المفكرين والادباء العراقيين

الدكتور راجي التكريتي



تأليف

حميد المطبعي



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 12 / ربيع الأول / 1444 هـ
08 / 10 / 2022 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



وزارة الثقافه والاعلام



العراق - بغداد / اعظمية ص - ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هـ ٤٤٣٦٠٤٤

موسوعة المفكرين والادباء العراقيين

الجزء الحادي عشر

الدكتور راجي التكريتي

تاليف

حميد المطبعي

هذه الموسوعة :

منذ ربع قرن انصبّ تفكيري في تأليف هذه الموسوعة، وانقطعت الفكرة ثم بدأت الآن، وهذه الموسوعة لها صفة هي غير صفة الموسوعات الصادرة في تراجم الاعلام، وصفة هذه الموسوعة، هي انها تلّم بالاعلام إلماماً متكاملاً، في النفس، وفي البنية، وفي هذه العناصر التي تركب الكاتب او المفكر تركيباً، يراعى فيه، التسلسل المنطقي لولادة الشخصية، والتطور التاريخي لافكارها، وكانت موسوعات هذا العصر، او العصور السالفة لا تغطي الا الشكل الخارجي للاعلام، كتبهم وشهادات ميلادهم او وفياتهم، بمعنى ان الكتابة عن الشخصيات الثقافية في تلك الموسوعات لا تخرج عن التراجم التقليدية، وكأن الكتاب والمفكرين هم شخصيات نمطية، ولدت وعاشت كأي سياق بشري آخر، مع ان تاريخ التراث كان يحدثنا باسهاب عن اهمية ونبوغ واستثنائية قوافل الفكر في الحياة العربية، وهذا التفرد الذي يتميز به المفكر العربي عبر عصوره، جعلني ان أفرد له في هذه الموسوعة المساحة المنطقية المتوازنة مع دوره في التاريخ، فاتحرى وقد تحريت عن مكوّنات الكاتب النفسية وصلاته بالآخرين، ودوافعه الغريزية للكتابة والابداع، ثم قمت بمجادلة آرائه

وأفكاره، تبعاً لسياقه التاريخي، ووضعت هذا الجدل في خدمة هدف الموسوعة، وهو ان يكون القارىء في صميم المترجم له، فيصل اليه بلا جسور، ويتعرف الى رؤيته او فلسفته بحيوية حواسه، وحتى لا يبقى بين القارىء وهذه الشخصية المترجم لها، أية عقدة من عقد الفكر الغامضة .

أنا وجدت الموسوعات القديمة والموسوعات المعاصرة في تراجم الاعلام، لا تقدم الا اعلاناً عن الشخصية، لا تشرح فيه فكراً ولا تفلسف فلسفة، فهو مجرد إعلان عابر، او طيف صامت لا يدور او ينفذ إلاّ في المسام. المظهرية للشخصية، فهو إذن إعلان مجحف بقيمة وعظمة المفكرين والكتاب الذين أسسوا لنا مجتمع القيم، وبنوا في محيطنا السلّم المثالي لمجتمع عربي، مفكر، عاقل، مدرك، يدرك ويعقّل مطالبه الحضارية، طبقاً لانجازات العقل التركيبي الذي تتصف به فلسفتنا في الحياة .

واخترت، ان تكون هذه الموسوعة، شاملة في مقاصدها، لأن مفكرنا شامل في افكاره، وشامل في تصوراته واحلامه واشواقه، وأنا لا بد من ان اكون شاملاً مع الشخصية التي أبتغي ترجمتها ترجمة متكاملة، فأوجه لها نقداً يأخذ في سياقه العام، الطابع الاثنوغرافي، وهو الذي يتصل بحياة الشخصية الاجتماعية، وادخلها في الدراسة الاثنولوجية، وهي الدراسة المقارنة الباحثة في علاقة الشخصية مع

محيطها البيئي او الحضاري او السلوك الجمعي، وكما هو ثابت، فان القارىء العام بحاجة دائماً الى مدلول منطقي استدلالي لمعرفة أبعاد المفكر العربي، ومستوى علاقته بالحياة، وفي مختلف شؤونها العقلية او الانثروبولوجية ـ التاريخية .

وكنت في كل تراجمي لهؤلاء الاعلام، متعاطفاً معهم، إلا في حالات، أرى فيها الكاتب يشذ عن مقياس احصائي، او يقف موقفاً متذبذباً ازاء قضية ما من القضايا التي تشغل ذهن الحقبة الزمنية التي نرتادها، فاحاول فيها، او أتوصل وهذه الشخصية التي ابحث فيها، الى قناعة مشتركة من الحسيات العامة، حتى نجعل هذا القارىء الذي يقرأ هذه الموسوعة، متداخلاً ، كاشفاً، لا متفرجاً في سديم، ومع هذا فقد أرضيت نزاهتي في اعلامنا، وأديت الزكاة لتاريخهم، فنحن كلنا، مدينون لاعلام العراق، فيما ابدعوا من علم، وفيما انتجوا من عقل، وفيما أرادوا ان يكملوا الشوط الطويل الذي ابتدأت به مدرسة بغداد في التاريخ، وفي بناء التاريخ الانساني .

لم أتبع في هذه الموسوعة، النهج الابجدي، او الانتقائي لاعلام العراق، وانما نهجت فيها نهج البحث في الشخصيات البارزة في التاريخ المعاصر، كلما توفرت في هذه الشخصية او تلك، مصادري في دراستها والتبحر في مظانها، وكنت في هذا النهج، أبتعد عن النمطية التي أتسمت بها الموسوعات القديمة والتراجم المعاصرة التي خلطت في

المفكرين خلطاً، وباعدت وقرّبت فيما بينهم تحت ثقل السياقة الابجدية، التقليدية، الصارمة . .

وأرى انني اول من ابتكر هذا النهج في تاريخ العمل الموسوعي العربي، وأول من ابتدع النواة العلمية ـ الموضوعية لمؤرخ المستقبل الذي سيجد إن طال بي الصبر في تراجم اعلامنا، سفراً خالداً، زاخراً بصور التاريخ والمواقف والاحداث، يمكنه من ان يدرس فيه، حياة مجتمع او حقبة تاريخ من هذا المجتمع، او حالته العقلية التي تبلورت عبر جهد ابداعي تركيبي ـ تاريخي .

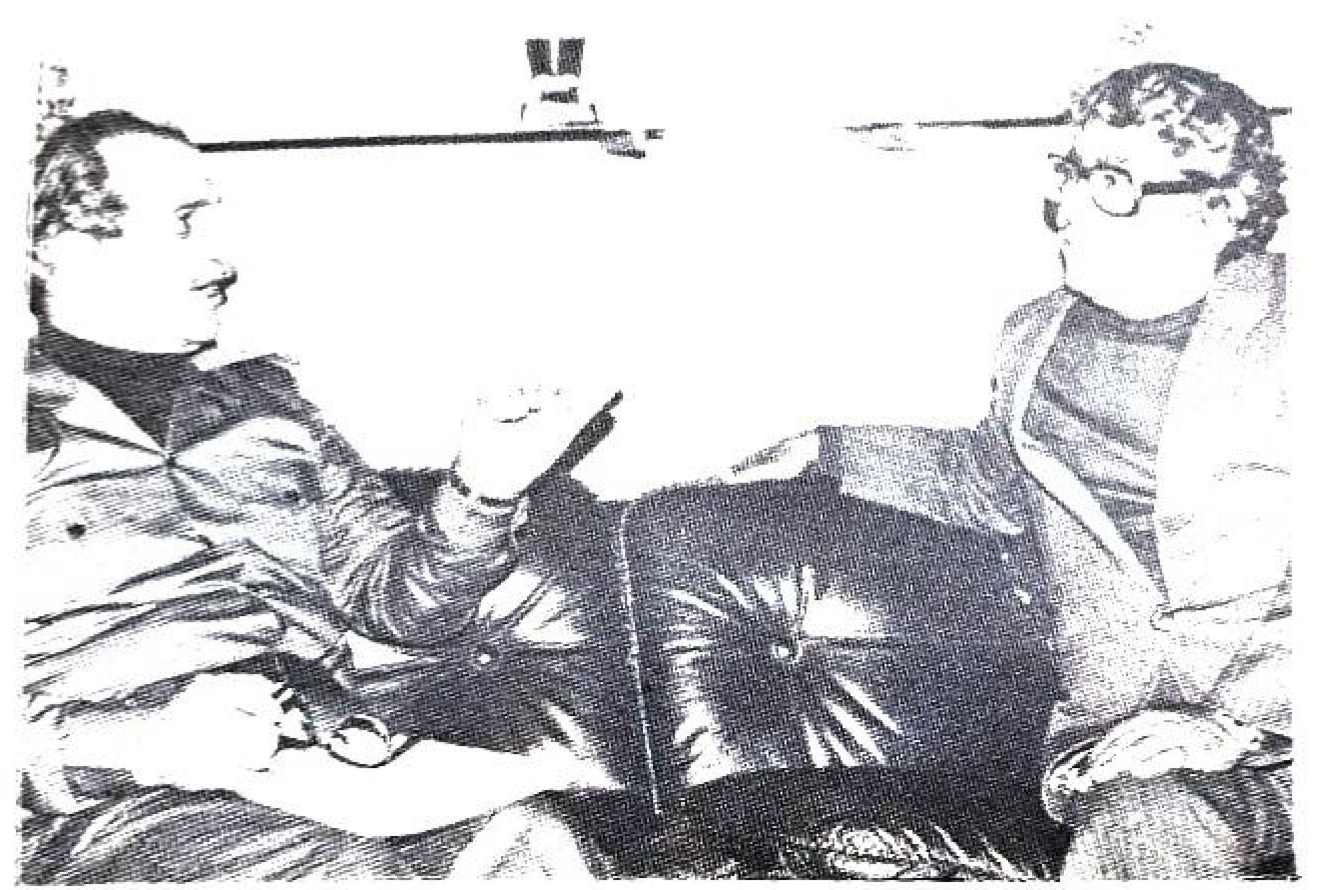
وآمل ان لا يكفرني مؤرخ المستقبل في شيء فعلته في هذه الموسوعة، فقد جهدت ما استطعت الى ذلك سبيلا، ثم تنزّه بي الهدف !

حميد المطبعي

١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

الفصـــل الاول

خطوات على طريق العودة



حميد المطبعي مع راجي التكريتي

رحلة راجي التكريتي في حياة مازالت تمدنا بسلسلة من النجاحات، هي رحلة قاسية في بدايتها صارع فيها النفس والبيئة والمجهول فانتصر انتصاراً ذاتياً، اما النصف الثاني من هذه الرحلة فكان مملوءاً بالعطاء المفتوحة ابوابه على سلم مستقبله، في البداية كان عاملاً بناء، يحمل الطابوق في يد وكتاب الدرس في يد اخرى، هناك كان يرى الدنيا نزفاً متواصلاً من العرق واللهاث والمعاناة، وهناك شاهد هذه الدنيا تبنىٰ بوجع المتدافعين الى لقمة العيش، وكان يتساءل: من لهذا العامل المكسورة ساقه، ومن لهؤلاء الذين يمضون ساعات النهار كله وشيئاً من الفجر وشيئاً من الليل بأجر قليل ربما لا يسد أنين المعدة، ورأىٰ بين هؤلاء البنائين وجوهاً منتفخة وعيوناً مغبرة اكل نصفها غبار الطابوق الاصفر والاحمر، ثم رأىٰ الآهات تتصاعد من حناجر مبحوحة كانها تصدر بين آنٍ وآن شرر اللعنات. . تساءل: هذا ما يرعبني ان ارى معنى هذه الحياة يتضاءل ويزول، ان ارى سبب وجودنا يختفي، هذا أمر لا يطاق، فالانسان لا يستطيع ان يحيا بدون معنى. . كما كان البير كامو يتساءل مرة عن هذا المعنى، ومع دبيب العرق الذي لون عينيه، ومع التعب الذي انهك بدايته كان يعبىء طاقته البشرية الى يومه الموعود الذي كان يرسمه في اعماقه الخفية، هو هذا اليوم الذي بدأ مع بداية النصف الثاني من رحلته في هذه الحياة، حيث درس فاجتهد، وحيث بحث في سماء مستقبله فوجد نجومه

صافية نقيـة تفيض بكل دروس الثقـة والحب، وحيث نهض وحيداً يتطلع فاكتشف مـلامحه الحقيقيـة فظفـر بالاختصـاص الاول، وفي سؤال: (لماذا انا عربي) فطوع الاختصـاص الخاص الى اختصـاص عام، قال: اليوم ينبغي عليَّ ان اضيف للطب وان اكتشف في طب العرب القديم البدايات الاولى في علم الطب، وفي كلا البدايتين كان يكتب في حياته صفحة من صفحات اولئك العصاميين الذين جربوا فـاثمرت تجـاربهم، وتطلعـوا فاقسمـوا ان لا مستحيل في قـواميس الحياة. . !

التكوين :

الى جانب هذا، هناك الشجاعة في راجي التكريتي، شجاعة في النفس وشجاعة في الرأي وشجاعة في الكرم، النفس نفسه تعمرها ثقة قائمة على الاستنباط العقلي، فاذا اصدرت رأياً فلا يأتي رأيه الا ناضجاً في عقل، وحاراً في ايمان بعدالة الرأي الصحيح المستقيم، ويكرم، هو يكرم بغير بهارج، فهذه عيادته نصف مرضاها بدون أجر، دون ان يدفع هذا الفقير المريض فلساً عن علاج او دواء، فخيره خيران، خير الروح، يلطف بها قلب المحتاج، وخير الجسد حينما يضفي على جسد الفقير ديمومة الحياة، ولولا اصالته لما ابتكر هذه الفضائل .

***

وهو في المتوسطة (على ما تنبئنا احداثه في هذه المرحلة) كان مولعاً بقراءة أدب العرب في الحروب، ولا سيما هذا الادب الذي تمتزج فيه الرومانسية بالبطولة امتزاجاً سحرياً في اعماق الفتيان والشبان، ومن بين هذا الادب التقط راجي سيرة بني هلال فقرأها برهافة الاعصاب، متنبهاً متشوقاً مندفعاً، مرة واحدة الى كل بطل في هذه السيرة، والبطل كما هو معروف في هذه السيرة، فارس، ودائماً يتعملق هذا الفارس في الانتصار، وكلما تعملق في خصلة ازداد القارىء او راجي التكريتي حباً اليه، او ربما وهو في غمرة قراءته لهذه السيرة يتخيل انه قريب من البطل فيمعن في القراءة ويمعن في ان يصل الى نهاية القصص بمحبة..!

كان يجسد ديوان تكريت في سيرة بني هلال تجسيداً روحياً، ويجسد هذه السيرة في حياته العملية تجسيداً اجتماعياً، فكان يصطحب أبا زيد الهلالي، لأن ابا زيد كان يقدم له تصويراً ذكياً للشخصية الشجاعة المتمثلة بالفارس العربي، بكل ما يحمل هذا الفارس من تقاليد الرفعة والسمو والاقدام، بينما كره راجي متابعة ابن عم ابي زيد (على رغم شجاعته) لان ذياباً هذا كان يرى الشجاعة في اللؤم والدسيسة او في الصيد في الماء العكر، وفي هذه السيرة تعلم من زيدان شيخ الشباب المغامرات الملونة بعنفوان الفتوة، وكان زيدان

ياخذ الشباب ويغزو بهم هنا وهناك، ثم تعلم من (عكرمة) وهو ابن ابي زيد الهلالي وكان يسمىٰ مفتاح الحروب، حركة اندفاعه التي طالما تنتهي بالانتصار في المنازلة او في المغاورة، ومن الابتدائية الى الثانوية ظل عكرمة ملازماً له، في وهجه وذكراه، وفي شجاعته واسمه، حتى ان راجي التكريتي كنىٰ نفسه (ابو عكرمة) وكان عازماً ان يسمي اول ولد له عكرمة، ولا سيما بعد ان عرف ان بطل معركة اليرموك كان اسمه عكرمة ولكن غرابة الاسم، وتدخل اهله واصدقائه غير رأيه وسمى هذا الولد الاول من اطفاله (المهند).. كان ايضاً يتخيل الاسماء التراثية في صفحة من صفحات الشجاعة..!

* * *

راجي يسمي الاشياء بوضوح، فهو اذا اعطىٰ رأياً في ندوة او مجلس يعطيه بلا نقص، الرأي الناقص عيب اخلاقي، ويصر على رأيه (الصريح الصحيح) مهما كلفته الصراحة من متاعب في الدنيا، ثم انه يرى الشجاع او يرى الشجاعة مثلما يرى (الحق المتكامل) فان بتر الحق او دنس خارت النفس الى الهاوية، فيا ويل من نفس هاوية ذليلة، فياويل لهذه النفس اذا دخلت في التدليس، هو هكذا احبه الناس، وفي هذا وجد فيه القراء كاتباً منفتحاً على الحق وفي هذا الحق يؤرخ ويحقق ويبحث في تراث العرب الطبي..!

اجتماعيته :

كان منذ فطرته الاولى اجتماعياً، فاينما بحل تراه مشاركاً في كلام ومنصهراً في الجميع، وحيثما تريد الجغرافية ان يقيم يوماً او اياماً فانه يقيم في القلوب جميعاً، يتحدث ببساطة، ويستمع ببساطة، ويورد بساطته كما هي، رقيقاً كما شئت، هشاً بشوشاً في مجالس الناس كما شاء الناس، في مجالسه او في ندوة للعلماء والادباء، ورغم انه منذ سنوات الحرب بات لا زمن لديه، فانه لا ينسىٰ واجباً اجتماعياً الا وساهم فيه، في الافراح والمآتم، في كل شيء اسمه تقليد اجتماعي او عرف اجتماعي . . !

***

انه لا يسعىٰ الى المجتمع بالوسيلة، انما هذا الطبع الاجتماعي كان ملازماً له حينما رأىٰ مدينته ديواناً كبيراً تسوده محبة وألفة المجتمع، وحينما رأىٰ رفاقه او اترابه في سنوات حياته يحيطون به وهو يتشكل فيهم وجداناً بوجدان، ولم تحدثنا وثيقة من وثائقه انه كان منعزلاً . . في مؤتمر للعلماء او في حلقة من حلقات الدرس في المهجر، كان في هؤلاء او في غيرهم محاطاً بالاهتمام ايما اهتمام، في التذكير والمذاكرة، في الاسئلة والاجوبة، في تجانس لا يشوبه غموض، وعندما ازدادت قراءاته في علوم العرب وفي آدابهم، او عندما انتشرت كتبه ومؤلفاته وبحوثه كان



مستمعاً إلى محاضرة في الشعر في مهرجان المربد !

يزداد اقتراباً من طبقات المجتمع، فها نحن نراه او نرى مجلسه لا يخلو من مهندس او معلم قروي او مقاول في العقار او اديب او وزير، كل هؤلاء الذين يتشكل فيهم المجتمع الناهض نـراهم متوحـدين فيه، متفاعلين في ضميره، لا يخرج الواحد منه الا وهذا الحكيم التكريتي قد انطبع في القلب حاراً، دافئاً، طبيباً، مترعاً بالشمائل . . !

في محيط اسرته حافظ على تماسك العائلة الكبيرة، وبعد زواجه كان شاغله ان لا ينفرط شمل البيت الكبير، ومطمئناً يتحدث اليهم، وكان الاب في هذا البيت، في لهجة كل هذا البيت، لانه كان يرى ان الاسرة عماد المجتمع، فلابد ان يكسب رضا الجميع في هذا البيت ويكسبوه أباً متفرداً من بين أفراد اسرته، وحتى وهو طالب فتي كان تلاميذ المتوسطة في تكريت ينتخبونه لهم مرشداً يرشدهم الى الرماية والنظام والنزهات ولما انتقل الى مدينة الديوانية يدرس الفرع العلمي في الرابع الاعدادي (لعدم وجود مثل هذا الفرع في تكريت آنذاك) رشحه طلاب المدينة ممثلاً لهم في سنتين، لانه سريعاً شاركهم في الحب والاجتهاد، وسريعاً تعامل مع الوضع الاجتماعي الجديد عليه، فنفذ راجياً محبة الكل وراجياً ان يكون لهم لسان الثقة، في الكلية الطبية رشحه الطلاب للسنوات الثلاث الاخيـرة ممثلاً لشؤونهم والى هـذه الساعة ومنذ (٢٩ سنة) يعقد الحكيم راجي وأبناء دورتـه في الكلية

الطبية جلسة ذكريات في نهاية كل شهر، يتسامرون فيها، ويتذكرون احوال الزمان وصروف الزمان وينشدون الطب الجديد في هذا الزمان، وهم الآن يعدون منهاجاً في هذه السنة يحتفلون فيها، متذكرين ثلاثين سنة قاسيات حالمات مبهجات . . !

وفي دائرته لا ترى احداً الا ويلهج براجي لهجة الوفاء، وهؤلاء الذين يمرون في طريقه لا بد انهم تلقوا تحية منه هي احسن من التحية التي سمعها منهم، وهؤلاء الاداريون الذين يعملون في امرته رأوا فيه واحداً منهم، لا يزيغ لهم عينه ولا يرفع في وجوههم اصبع العصا، انما هو وهم سهر متواصل في ادامة الحياة والمجد الى كل مقاتل يسفح دمه لعز العراق في جبهات القتال، وكان يطعم هؤلاء (من في معيته) بلقاءات وحفلات ومناسبات يشرح لهم فيها صدره ويبذر لهم في هذا المسرح المفتوح وجهه المملوء بالتفاؤل وكأنه ينزل اليهم عيداً يومياً . . انه اذاً اجتماعي باخلاق الديوان واجتماعي يرى في الديوان وسيلة لتعميم مبدأ التكافل واجتماعي في ان يرى ان الكاتب لا بد ان ينتصر الى مجتمعه بالعودة اليه والاستماع منه والسهر في مصالحه مهما كانت درجة هذا الكاتب ومهما علت منزلته وتسامقت شهرته . . !

هيئته الجسمية :

وكلما اجتمعت اليه ذهبت الى جسده أدقق فيه ماضياً وحاضراً،

فلعلي سأرى كم من ماضيه في جسده ومالعب الحاضر فيه، والاجسام مخابر كما تخبرنا بعض دراسات علم الهيئة عند العرب، وسأرى ايضاً كم افاد راجي التكريتي من علم الطب ومن علم تقويم الاجساد، وطبقه على جسده، ولا سيما وهو الذي قال لي قبل سنتين: (اني لا اترك جسدي منفعلاً في الفراغ)، أهكذا يفعل راجي او غيره من الاطباء في ترميم أجسادهم ان صار في اجسادهم نقص او زيادة، أهكذا تذهب الحساسية المهنية عند الاطباء، في ان يكونوا مثالاً للجسد الانساني، قد يكون هذا او قد لا يكون، المهم انه بلباقة يحاول ان يهندس له جسداً مثلما اراده التراث الطبي العربي او مثلما قرأ عن هذا الجسد في افخر بيوت الطب. . !

هو طويل القامة بكل تأكيد، فمن كان طوله (١٨٥ سم) لا يعد قصيراً، عريض المنكبين واسع الصدر، ولا أقول انه يملك خصراً نحيلاً وانما خصره يتماشى مع طوله ووزنه الذي يتراوح بين (٩٠ ـ ٩٤) ورأيناه بين مد وجزر لا هو قادر ان يدفعه تحت التسعين ولا يسمح له ان يتجاوز اكثر من ذلك، وهو متفائل في هذه القامة الدقيقة واسعة الصدر لانه قرأ في كتب التراث ان قامة موصوفة كقامته هي بلا شك قامة لفارس من بيوت الصحراء. . وجسده سميك العظام ومفتول العضلات، ولا تغطي عضلات جسمه الشحوم وان حاولت فانه يجاهدها بالتغذية والرياضة على انني رأيت في قامته انحناءة بسيطة

ربما اثقلتها هموم الحياة او ربما اتعبها سهر المطالعة او القراءة الكثيرة او توقيعاته المتواصلة على منضدة الوظيفة، وهو يسعى ان يعدلها او يمنع زيادتها بالرياضة احياناً وتقويم البدن احياناً اخرى والاسترخاء في احايين اخرى، ، وتعلو هذه القامة رقبة متوسطة الطول بدأت تغزوها بعض التجاعيد الخفيفة، يتوجها رأس لا هو بالكبير المفرط ولا هو بالصغير في مقدمته العليا جبهة اوسعتها بداية صلعة مبكرة غير متكاملة وأشرتها خطوط تجاعيد الحياة، ويعلو ذلك شعر كان في يوم من الايام اسود ليس بالفاحم ولا الكستنائي وانما اخذت تطرزه شعرات الكهولة لتبشر بشيب قبل الاوان، وهكذا بدأ الصراع مستمراً بين بياض الشعر وسواده في الماضي والاحتجاج بتساقطه في الحاضر، وتنحدر جبهته الى عينين صغيرتين عميقتين قويتين ثاقبتي النظر مع قوة في بعد النظر، وضعف في قرب النظر فاستعان بالنظارات اثناء القراءة والنظارات الشمسية اثناء جولاته ونزهاته، اما وجهه فهو مستطيل حفرت فيه متاعب الماضي تجاعيد الحياة، وفمه متوسط بحجمه لا هو بالكبير ولا بالصغير الدقيق، ولكن يعبر عما يختلج في نفس الحكيم راجي، من مشاعر وما في عقله من آراء وافكار، ويتدلى من وجهه حنك لا هو بالمدبب ولا بالمرصوع. . اطرافه طويلة، ولكن اذا مشى اسرع في عزيمة وقوة، ووقع خطواته على الارض عنيفاً وكأنه يدق بها الارض من مرفعها. . !

يعني هذا الجسد (الذي يختبره راجي بالتحاليل والفحوصات سنوياً) ان حامله يؤدي وظائفه بقوة قد يحسده عليها اقرانه ولا سيما اذا عرفنا ان راجي التكريتي يزيد على هذه القوة قوة اخرى في ممارسة (رياضة السير) و(رياضة السباحة) مما يكسب جسده لمعاناً ونشاطاً يومياً، وقد اكتشف عبر هذه الرياضة ان السباحة خير وسائل الرياضة جميعاً اذ انها تحرك قوى العقل وتهديء من فورة النفس، اكتشف ذلك بالطب اولاً وبالتجربة ثانياً.

صفاته النفسية :

واذا كان شكل الانسان وهيئته وطوله وعرضه وسمنته وغيرها من موازين الجسد تتحكم بها الوراثة الى حد بعيد او قريب، فان الصفات النفسية للانسان تعتمد كثيراً على مجرى حياته التي عاشها بظروفها ومباهجها ومآسيها لترسم طريق سلوكه في الحياة، وراجي التكريتي عاش الحياة بكل ابعادها.. داس الشوك حتى ادمىٰ قدميه وتنعم بالحياة في صور من الرفاه، وخلال مسيرته هذه تركت الحياة على صفاته النفسية بصمات معينة هي ما نسميها: الابعاد النفسية بعيدة الاغوار في حياة راجي التكريتي..

تغلب عليه (العاطفية) في تعامله مع الناس، لذلك تراه (يتعاطف) مع الآخرين وأسعد اللحظات التي يعيشها هي تلك التي يرجع الى صاحب حق حقه او يزيل عن مظلوم مظلمة، ثم هو (يجاهر)

بالحق في اقصى درجات المجاهرة . . !

في السباقات الرياضية، وبجميع صنوفها (كرة القدم، الملاكمة، الهوكي . . . . . الخ) نجده منساقاً انسياقاً عاطفياً، منذ بداية الشوط الاول، ضد ذلك اللاعب الذي يمارس الخشونة في اللعب، هو لا يعرف الحقد ضد كائن من كان حتى الذين يسيئون اليه فانه يقابل اساءتهم بالاحسان وقد شرح لي جملة اساءات وقعت عليه كان بامكانه ان يقابل اصحابها بالاذى الشرعي ، لكنه شاء ان يتركهم وشأنهم، ثم تكررت هذه الاساءات فردها باللطف، كان هناك شيء في داخله يقول له (كن حليماً وكرر الحلم ياراجي) وكان يكرره بحسب صدى الداخل، فهو قوي والقوي بطبعه حليم، وكلما ازداد طبع الحلم في القوي ازدادت شهامته، انه عاطفي النزعة، حتى لتؤثر عاطفيته على بعض اعماله وواجباته، لكن ما حيلة القلب قلبه حيث يبدو للقريبين اليه انه مشرع للخير حتى تجد هذا القلب في مجال عمل راجي (وعندما يتطلب الموقف اتخاذ اجراء حازم) رؤوفاً الى ابعد حد، فيضطر هذا القلب لاتخاذ اخف الاجراءات عقوبة، وبعدها يتألم تألماً شديداً . . هدوء، فورة، هدوء، هدوء، تأمل، هكذا هو في حالة (توقيع العقوبة) . . !

***

في الجانب الآخر من نفسه : تؤلمه الكلمة الجارحة، وتؤرقه كثيراً

خيانة صديق له وثق به، يحزن بعمق وبألم دقيق ولكن نادراً ما تدمع عيناه حتى بفقدان اعز اقاربه واصدقائه، لا يبهره النجاح واطراء الآخرين وانما «يستسلم» لذلك بهدوء وكأنه شيء طبيعي، حتى هذه القضايا والتحولات الكبيرة في حياته الوظيفية لا تبعث في اعماقه النشوة او الغرور، وكذلك لا يحزن كثيراً اذا فشل في شيء او انتكس في عمل ما، وانما يتصرف ازاء كل ذلك بشكل طبيعي، وكأنه مقدر له ان يحدث وفي مجالسه الخاصة او العامة لا يضحك بصوت عال (في حالة يتطلب الموقف ان يضحك الانسان فيه ببراءة) ولا يقهقه بضحكة، وانما يعبر عن ذلك بابتسامة هادئة وهي (عندنا نحن الجالسين) تعني الكثير. . واحياناً تراه منفعلاً، وحالاً تعرف ان كاذباً هيج فيه انفعاله، ولذلك تقلقه مجافاة الحقيقة (في القول والعمل) ولذلك تجده في مثل هذه الحالات يتكلم بعنف ودون ان يأبه لرد الزيف والكذب مهما كان الموقف صعباً ومحرجاً، لانه كأولئك الانقياء يؤمن ان قول الحقيقة وكشفها واجب على كل انسان، فكيف اذا كان هذا الانسان كاتباً ومبدعاً، فكيف اذا كان هذا الكاتب نزيهاً. . ؟!

الحزن والرضا يظهران على قسمات وجهه، وان رجلاً هذه قسماته لا يستطيع ان يخفي مشاعره احياناً، لكنه يتحمل هذا ويكظم هذا، واننا لو قرأنا كتابه (السلوك المهني للاطباء) او اي كتاب له يبحث في الانسان، لوجدنا راجياً واحداً في النفس، فعندما كتب وصايا

اخلاقية لمهنة الطب كان هو اول الاطباء يطبق هذه الاخلاق في دائرته او في عيادته او في ندواته، انه طبيعي في الكتابة عندما يتخيل الاشياء، وطبيعي في العمل او المهنة، او المجتمع عندما ينفذ الواجبات والمسؤوليات، هو من نفس لا انفصام فيها، وكل ما يصدر عنها ثابت في حدود منفعة الانسان، ومتغير في حدود منفعة الناس. . !

صفاته العقلية :

اذا كان علماء النفس يضعون (الانتباه الى الاشياء بدقة) و(قوة الملاحظة) في مقدمة مكونات العقل الرئيسة، فان هذين العنصرين وعناصر أخر هي من بعض عقل راجي التكريتي، فانت تجد الاف الاوراق على منضدته في الدائرة تبحث عن أسئلة واجوبة، وكلها يجيب او يسأل عنها راجي بدقة وتركيز، وبزمن لا ينسى فيه يوماً او ساعة، وكذلك مواعيده واوقات مؤتمراته واجتماعاته فانه يركزفيهاذهنه، ويعد لها محاضر وجداول، كل له حساب او ميزان زمن، والغريب انه لا يسجل لهذه المواعيد والمواقيت منهجاً يرجع اليه، والغريب ايضاً انه بين عشرات المواعيد المهمة يتذكر موعداً له مع جندي جاء من الجبهة يسأل عن احواله الطبية، او مع معوق جاء اليه يشكو حالة فيلطف فيه قلبه ويخرج منه مسروراً، والاغرب من كل تلك الاشياء، انه اذا زاره اديب او مفكر يبدأ معه يناقش او يجادل في كتاب مخطوط للسيوطي او

الرازي او ابن رشد وهو منهمك بين نداءات الهاتف يرد على المتسائلين او المستفسرين في شؤون الطب والدائرة وبين انجاز عدد من الاوراق المكتبية، كل له انتباه ويراعي في هذا الانتباه حسن الدراية والحصافة، ويراعي بل يوازن في هذا (التصرف العقلي) بين نفسه وبين الله، بين عقله وبين المسؤولية، بينه وبين الآخرين جميعهم . . !

* * *

ومنذ طفولته كان يربي في عقله ميزة الانتباه، وشدد عليه لما رأى ان فيه نفساً طموحاً للارتقاء في الجد والاجتهاد، واحتاج الى هذا الانتباه عندما تخرج في الاكاديميات العليا طبيباً يطبب الجنس البشري، وعندما دعت مواهبه في الكتابة الى ان يؤلف في اختصاصه وفي خارج اختصاصه، وهذا الانتباه يشكل اسلوباً ناجحاً في حياة الانسان، لانه يقود الى افكار معينة، تفجر ابداعاً معيناً، وقد فعل راجي في هذا الاتجاه بان حافظ على انتباهه بمجالدة النفس ومارس في ذلك صنوفاً من رياضة النفس والعقل والعاطفة، بحيث انك لا تجد عنده شروداً ذهنياً او تشتتاً في منظومة افكاره، واذا حدث هذا الشرود او مثل هذا الشرود في عقل راجي فمرده اما خيال في ظلال الاشياء او من احلام اليقظة، والخيال ضروري في انعاش الذهن لتقويته والاحلام مهمة في توليد التصور في العقل . . !

والتأمل احدى حالات حلمية تشغل عقل راجي، على رغم مشاغله الكثيرة المعقدة، وعلى رغم ترابط هذه المشاغل وتداخلها في آن واحد، فانه من أجل ان يواصل حرارة العقل في الكتابة والتأليف ومن اجل ان يزيد من قوة انتباهه في حل قضايا الوظيفة يذهب الى الخيال الخصب فيتأمل الحياة والفكر، يتأمل في نفسه، وفي التفكير في الكثير مما يدور حوله، ويستخرج تأمله في لحظات الانفراج سواء في مزرعته او على حافة نهر دجلة او ينفرد متوحداً مع نفسه في لحظات الصفاء وما أقلها في سنواته الاخيرة .

اول الاشياء التي تأخذه عميقاً في تأملاته، هو الانسان، بتكوينه وتركيبه وتشريحه، ويتأمل في هذا التشريح العجيب الغريب آخذاً بنصيحة ابن رشد (من درس التشريح ازداد ايماناً بالله) . . ثم يتأمل بعد ذلك في (قصة الحياة)، في الموت والولادة والروح، ثم يلقي اسئلة في هذا التأمل: كيف، متى، اين، لكن بدون ان يشككك او يخامره شك ما في طبيعة ولادة الاشياء في الحياة، ويأتي الكون في المرحلة الثالثة من تأمله، اذ يسرح فيه بعيداً، ويتساءل كيف جاء هذا التوازن في ابعاد هذا الكون، نجومه، شموسه، عمقه ولا سيما في ليلة معتمة بسماء صافية، تجذبه السماء كثيراً وتشده كثيراً وربما هو يغفو، يحلم يقظان بهذا الكون العجيب، لكنه يصحو بعد ذلك فيأخذه التأمل في المرحلة الرابعة الى قصة هذا الانسان، بعض هذا الجنس البشري

المتكالب.. الذي يحاول ان يفترس بشراً مثله باسلحة الهلاك..!

الذاكرة :

وعقل راجي تحيطه ذاكرة تلتقط وتسترجع في آن واحد، ولا أقول انه ذو ذاكرة (خارقة) وانما هي من نوع الذاكرات القوية التي تمكنه من التفاعل الحي مع ماضيه وحاضره بشكل تلقائي، هي ذاكرة ارقام لا تنسى الصفات الرياضية في الاعداد ومعاني الاعداد، مثلاً هو يحفظ ارقام بعض الهواتف منذ عشرين سنة ويحفظ معادلات حسابية وجبرية منذ اربعين سنة، ويستطيع ان يتعامل مع اعقد الامور الرقمية ويستوعبها ويدركها وقد عرف يوم كان طالباً في المرحلة الثانوية بانه يدرك ويحل أعقد المسائل الحسابية والهندسية ويربط الحوادث مع بعضها، ثم هي ذاكرة نثرية، يستلهم ما يقرأ من قصص وحوادث تاريخية، ويسترجعها، بل يعيدها امام الآخرين، كما هي حتى وان كانت هذه القصص والحوادث بنت زمن بعيد، منذ كان طفلاً او يافعاً، يعني ان (الحفظ) في ذاكرته ظاهرة بايولوجية ناشئة من تركيبه البنيوي، فقد اعاد مثلاً حفظه لقصائد زهير وكعب وطرفة عمرو ابن كلثوم، كما اعاد عليٌّ حفظه لقصائد الزهاوي والرصافي والاخرس عندما كان يحفظ هذا الشعر الجاهلي والحديث في ايام دراسته في المتوسطة، وفي هذه المتوسطة كان يتبارى مع الاكبر منه سناً في تذكر الشعر فيفحمه في هذه الذاكرة التي جمعت ميزة الرقم والتاريخ

والحوادث والافعال، ولعل هذه الذاكرة تفيده (وهو الباحث التراثي) في حفظ مصادر متنوعة مرة واحدة دون ان يرجع اليها في حالات البحث والكتابة .

واظن ان (حافظته) من الحافظات الخصبة، فهو اعتاد ان يعرف ويميز بين الاصوات التي تأتيه عبر الهاتف حتى وان كانت هذه الاصوات تنتمي الى تاريخ ابعد مما يتصور، واذكر ان اديباً من الرواد اتصل به مرة بالهاتف (ولم ير احدهما الآخر منذ ثلاثين سنة) فبمجرد ان سمع منه النبرة الاولى حياه باسمه مباشرة واندمجا في خيال الماضي، وطالما يجلس بين اصدقائه القدامى يذكرهم بحوادث معينة وهم لا يتذكرون، وطالما جادل باحثين بنصوص مطبوعة قديمة وهم لا يتذكرون، وهذه (القابلية) في الحافظة ثم في الذاكرة افادته في الوظيفة، فهو لا ينسى تواريخ (المعاملات) المعروضة عليه او التي باتت زمناً طويلاً في احد اقسام دائرته، فحينما يطلب من رئيس شعبة معاملة ما ينفي هذا المسؤول الادنى وصول مثل هذه المعاملة ويتعذر اعذاراً عديدة، فيصر راجي على طلبه، وبعد البحث والتقصي والخوف من (العقاب) تظهر المعاملة بين ثنايا النسيان، وهكذا تراقب ذاكرته اولئك الذين يصيبهم داء النسيان، حتى يصنع منهم او يخلق فيهم ذاكرة بمستوى المهمة المنوطة بهم. . !

شهرته وسمعته :

وأجزم انه لا يطلب شهرة ولا يبحث عنها، لا تخوفاً منها، ولا هروباً عنها، انما همه في هذه الدنيا ان يؤدي دورين، الاول: ان ينجز ما يوكل اليه من مسؤوليات انسانيـة في دوائر الـطب وفي الجمعيات العلمية وفي عيادته حيث يعالج الاف المهمومين، والثاني: في ان ينقل الى القـراء والى المختصين علوم العـرب القدامىٰ في الـطب وفنـون الطب، وهما دوران يمتزج احدهما بالآخر امتزاجاً نبيلاً يرضي قناعاته ويلبي احلامه وغرائزه في الحياة، انه حتى في عيادته الخاصة يبتعد عن مظاهر الشهرة، فقد وضع لافتة صغيرة على مدخل عيادته تشير الى اسمه وعنوان اختصاصه، بينما يضع بعض الاطبـاء (قطعـاً ملونة) بعنوانات مثيرة وكتابات اشبه بالبهارج، ومع هذا فله شهرة تقام على مبدأ القياس وعلى مبدأ العطاء وعلى مبـدأ الانتشار، وفي مجتمعـات عديدة وبيئات مختلفة ابتـداء من بيئات الـوسط الاجتماعي المتنـور وبيئات الوسط الثقافي المتنور والى بيئات المراكز العلمية البحتة. . !

* * *

وربما يلاقي احراجاً فيما اذا اراد زيارة المدن العراقية، فالكل يضيفه، ويرحب به قبل ان يقدم نفسه، ويجد قراءه او اولئك الذين قدم لهم في يوم ما استشارة في الطب والعلاج الطبي، يحيطونه بمظاهر الحب، وليس من تفسير لهذا الحب سوى انه رد جميل لاخلاق جميلة

وسمعة منتشرة صنعها راجي بالايثار والعصامية والفضيلة، وكذلك يجد مثل هذا الاهتمام به في الصحافة العراقية باخبـاره وشهرتـه في الابتكارات . . !

ونجد هذا الجلال نفسه عربياً، بما يتلقاه من دعوات للمساهمة في المؤتمـرات والندوات التي تنـظمها مختلف المنـظمات والاتحـادات العلميـة، فقد تلقى اكـثر من دعوة لحضـور المؤتمر السنـوي الطبي الاسلامي حيث مقره الكويت، وهو العراقي الوحيد الذي توجه له مثل هذه الدعوة ولعدة مرات . . وتصله بين حين وآخر رسائل بريدية من اقطار عربية فما ان يفتحها حتى يجد في داخلها جرائد نشرت له مقالات عن كتبه باسماء كتاب لم تكن لهم صلة به، ويجد في بعض هذه الرسائل قصاصات اقتطعت من صحف عـربية مـا هي الا قصائـد تفيض بالمديح على سمعته العلمية واجتهاده في الكشف عن التراث الطبي، وصحف اخرى تصدر في لندن وباريس كتبت عنه واشادت ببحوثه، وجامعات عـربية وعـالمية ومنـظمات دوليـة رأت في راجي التكريتي باحثاً علمياً بـرز في الحقبة الاخيـرة، فارسلت لـه دعوات المشـاركة في حلقـات دراسية ونـدوات ومحـاضـرات، وبعض هـذه المنظمات العلمية رشحته رئيساً لمنظمة او جمعية او رئيس شرف لناد من نوادي التراث الطبي، ولم يتم هذا لولا انه لم يترك الاثر في اكثر من وثيقة وفي اكثر من نشاط علمي، لو لم تكن بحوثه في المؤتمرات الدولية

مفتاحاً لحل اكثر من معضلة في الطب الحديث. . !

* * *

من السابعة صباحاً الى العاشرة مساء يلم راجي التكريتي جناحيه، بمودة، فقد دفأ في كل هذا الزمان، وفي كل يوم، عشرات الاجساد، بحنانه وبعلمه وبوجدانه، ولا يأوي الى مكتبته الا بعد العاشرة ليلاً، وهناك يتصفح مجد الطب، هناك تجده غارقاً في بحر ابن النفيس او الرازي او جابر بن حيان، منقباً بامانة، محققاً عن الدر المفقود، ولا يستقر له جفن الا بعد ان يظفر بالكتابة وباكتشاف النفائس، والليل هادىء والمنائر وبغداد والعاشقون. . !

منهج في الطب

.. ولما وجدته منحازا الى الاطباء ، قلت له :

س ـ يقال ان للاطباء قلوبا قاسية ..؟

ج ـ لا اعتقد هذا ، وانما لهم قلوب جلدة . .

س ـ ويقال بان غالبيتهم جشعون ..؟

ج ـ ان الجشعين في الاطباء اقل من القليل ، واقل من اية مهنة اخرى ، وانما تضخم الامور لطبيعة المهنة وقدسيتها ، غلطة العاقل كبيرة ..

س ـ وانت هل تحمل قلبا قاسيا ..؟

ج ـ ربما اقسى من ريح الصبا ، واعذب من الماء القراح .

س ـ متى يصبح الطبيب شريرا ..؟

ج ـ عندما يتخلى عن ضميره ويتخذ المريض وسيلة لتحقيق الربح المادي ..

س ـ هل انت كريم في هذه العيادة ..؟

ج ـ عاهدت نفسي على الكرم ..

س ـ ايهما تهتم به كثيرا في عيادتك : الفقير ام الغني ..؟

ج ـ اهتم بالمريض والمرض ولا تؤثر في الاعتبارات الاخرى : فقير ام غني ، امير ام اجير ، راهب ام زنديق .

س ـ اثناء فحصك للمريض ، هل استطعت ان تشخص : هذا خير وهذا شرير ..؟

ج ـ ربما يراجعني اخيار واشرار ، وواجبي ان اشخص المرض واصف العلاج واشفي المريض واخفف الالم ..

س ـ هل الشر صفة بايلوجية ام ظاهرة اخلاقية ..؟
ج ـ اكلت شويهتي وحرقت قلبي
فمن انبأك ان اباك ذيب
ولهذا اعتقد انه ظاهرة بايولوجية وتؤثر فيه عوامل البيئة .
س ـ كم خطأ تقع فيه طبياً في الشهر الواحد اثناء معالجتك للمرضى ..؟
ج ـ الافضل ان تقول بالسنة ، وجميل ان يحسب الناس اخطاءهم ، واتمنى ان يمارسها كل الناس بما فيهم الصحفيون ..
س ـ ايهما اكثر خوفا من الامراض : الفقراء ام الاغنياء ..؟
ج ـ الخوف ظاهرة متاصلة في اعماق الانسان ، واعتقد ان الفقراء اكثر شجاعة في مواجهة الامراض .
س ـ اي الافراد المرضى اقوياء ..؟
ج ـ الاكثر ايمانا بالله .
س ـ متى تستخدم علم النفس في معالجة المرضى ..؟
ج ـ عندما اجد الهلع والخوف والقلق مسيطرة على المريض وذويه .
س ـ متى تستخدم الضحك في معالجة المريض ..؟
ج ـ عندما يسيطر القنوط والكآبة على المريض ويحملون المرض اكثر مما يجب .
س ـ ايهما اضعف في مواجهة المرض : الرجل ام المراة ..؟
ج ـ الرجل اضعف نسبيا من المراة .. ويختلف الامر بحسب المحيط والثقافة ودرجة الايمان .

معارض الكتب

■ الذي اعتقده ان معارض الكتب قد حققت الكثير من اهدافها في تحريك الوسط الثقافي وخلق وعي عام لدى عموم الكثير من الناس للاهتمام بالكتاب . وفعلا كنت مبتهجا وانا اجد ان الاقبال على معرض الكتاب الثاني اكثر من الاول والثالث اكثر من الثاني وان الناس غدت تاخذ الدور - السرة - لشراء الكتاب اكثر من وقوفها على شراء الخبز والبيض والدجاج ، وتخرج وهي محملة بانواع الكتب واعتقد ان هذا شيء ايجابي ومفيد مهما قيل عن هذه المعارض .

والذي ارجوه ان لا يخدع القارىء العراقي واعطاء المعارض من الدعاية اكثر من اللازم فعندما يذهب المثقف والمتعلم والهاوي يصاب بخيبة امل لان الكتب معادة من المعرض السابق او يعلن عن تخفيض قيمة الكتاب بنسب معينة ولكن يحمل الكتاب اكثر من قيمته الحقيقية وادعو الى الاكثار من معارض الكتاب واعطاء تسهيلات كثيرة لدور النشر العربية والاجنبية والعراقية . وكذا تسهيلات للقارىء ايضا حتى وان تحملت المؤسسات الثقافية بعض التضحيات المادية ، ولا اجد ان هناك مبررا لان نستهدف ربح من هذه المعارض وانما ان نجعل منها منبرا منيرا لتعريف القارىء بالكتاب العالمي والعربي ، ليستطيع من خلالهما ان يطل على العالم

ان الصراع الذي نخوضه هو صراع حضاري وثقافي وعلمي وان العلم هو السيف الفصل في معركتنا الحربية والاقتصادية والسياسية والاعلامية ، فكما تتحمل الدولة كثيرا وهي تقدم الرغيف الى المواطن بسعر زهيد وتتحمل الكثير من الفروقات ، فلابد ان يحصل هذا بالنسبة للكتاب . وبالاخص الكتب الاجنبية والعربية .

وافضل ان تقام معارض الكتب على مساحات واسعة وعلى مقربة منها مواقف السيارات حيث الاحظ الكثير من المثقفين كبار السن وهم يحملون حقائب الكتب مسافات بعيدة خارج المعرض ويكلفهم جهدا بدنيا . وكذا الخروج ينبغي ان يكون بنفس الطابق لا ان يصعد المواطن الكثير من السلالم ويدور حول المعرض وهذا يشكل عبئا ثقيلا على مريض القلب والسكر وصاحب الضغط المرتفع وسوفان المفاصل والفقرات وهذه الامراض ترافق الادباء والكتاب والمثقفين ومزدحمة بهم وباحوالهم النفسية

وقد طرا تحسن في المعارض الاخيرة ذلك بواسطة البيع المباشر . حيث ان هذا سهل عملية الشراء والدفع

(من رسائل راجي التكريتي الى المطبعي)

■ راجي التكريتي يسأل المطبعي . . ؟

قال انت أعطيتني ألف سؤال وانا اعطيك خمسة اسئلة ، فأجبت عنها:

راجي ـ ما الذي دفعك لاختياري في (الجذور) وهل كان دافعك لاختياري ذاتياً ام بتوجيه من جهة اخرى . . ؟

المطبعي ـ بوحي من انك انسان وكاتب . .

راجي ـ هل انت حريص وامين على المعلومات التي تحصل عليها من خلال سبر اغوار الشخصيات التي تحقق فيها . . ؟

المطبعي ـ وأزيد عليها فناً واثارة . .

راجي ـ كم نسبة الصحفيين والكتاب الذين تنطبق عليهم صفات الكتاب والصحفيين المثاليين . . ؟

المطبعي ـ أقل من الاطباء . .

راجي ـ أي المهن والشرائح في المجتمع تساعد في بناء حضارة العراق حاضراً ومستقبلاً اكثر من غيرها . . ؟

المطبعي ـ في الحاضر: الجنود المقاتلون، وفي المستقبل، مجتمع المؤسسات .

راجي ـ ماهو رأيك باتحاد نساء العراق . . ؟

المطبعي ـ راجع كتابات قاسم امين . . !

الفصـــل الثانــي

السفر الخالد في ماضي العرب



مصوباً هدفاً في نزهاته

موهبته :

وقبل ان نتساءل: لماذا اتجه راجي التكريتي الى العلم ثم الى الطب ليصبح في ما بعد ذاكرة علمية وذاكرة طبية، وفي ما بعد قارئاً للتراث الطبي، وفي ما بعد كاتباً لا ليؤلف في قوانين الطب حسب، وانما يكشف في طب العرب القديم اهم منجزاته الحضارية علينا ان نسأل (هل كانت موهبة راجي علمية؟) وهل قدر لها ان تكون منذ الطفولة علمية، بمعنى من معاني الاحساس الرياضي ازاء الاشياء المنظورة وغير المنظورة في حياته. . !

١ - في دراسته الابتدائية وبالتحديد في (الرابع الابتدائي) قال له معلم الحساب (راح يصير لك مستقبل) بعد ان عرف طلاب صفه ان راجياً نال درجة (١٠ - ١٠) في مادة الحساب في شهادة آخر السنة، بينما هو لم ينل في مواد الدروس الاخرى غير درجات واطئة (٥، ٦، ٧، ٨) وفي ذات الوقت لقى نفس التشجيع من اثنين من اقاربه يكبرانه سناً ومعرفة: (ياراجي انت ذكي) وكانت الناس على بساطتها تعرف ان (الحساب) مفتاح الفرج لحل الكثير في مستقبل صبي فقير في مجتمع فقير، وفي بيئة ترى مادة الحساب علماً متقدماً يفتح شهية العقل الى المستقبل وهذه اول مرة يكتشف فيها راجي مقدرته العقلية بوسيلة الآخرين .

٢ - ثم يكتشف هذه المقدرة بوسيلة ادراكه (الاستذهاني) عندما

تعاقبت دراساته في المتوسطة والثانوية، اذ لم يذكر انه في دروس الحساب والهندسة والفيزياء والمثلثات أخذ اقل من (١٠٠ ـ ١٠٠) وفي كل الامتحانات الشهرية، وعندما كان صفه يقف حائراً في حل أية مسألة رياضية ينتدب لحلها فيستريح الطلاب، بل يغبطه بعضهم، بينما مدرسه سامي كامل يسأله: (من اين جئت بهذه القدرة؟)..
وكان في الاول المتوسط يقوم بمساعدة طلاب الصفوف المتقدمة على حل مسائلهم الرياضية، وحدث مرة وهو في الخامس ثانوي ان كانت الاسئلة في الفيزياء صعبة في امتحان نصف السنة، فحاول الطلاب ترك القاعة فاقنعهم المدرس والمدير بان التصليح سيكون (٢٠ درجة لكل سؤال) وكانت هناك امامهم (ستة اسئلة).. وعندما ظهرت نتائج هذا الامتحان الصعب، كان الطالب راجي التكريتي الوحيد من بين الطلبة قد أجاب عن تلك الاسئلة بشكل صحيح ومتكامل، ومن الطريف انه حصل على (١٢٠ من١٠٠)..!

٣ ـ درب ذهنه وفي ما بعد ذاكرته على (الرقم) فكان يجلس وحده في منعطفات محلة (الحارة) او (السحل) او قرب خلجان دجلة يدخل في تمرين الارقام، يربط رقماً بتاريخ، ويربط ارقاماً بحادثة، ويجري عملية التطابق في مجرى ذهنه وتفكيره، حتى يبعث الحياة في الرقم، واظنه كان يفكر عن قيمة الرقم اذا ارتبط بعمليات التفكير الاخرى، واظنه كان يفعل هذا من أجل ان يتصور ويحدس ويتخاطر،

واذا هو الآن يحول الارقام الى حالة وعي فكري، فيخرج الرقم من شكله الهندسي (الرياضي) الى ميدان المعرفة الواسع، فتنشأ في اعماقه حالة الاسترجاع، وهي الحالة او من الحالات التي تقوي الذاكرة فيما ترتبط هذه الذاكرة بماضيه وتاريخه ارتباطاً حياً وفاعلاً او في ما نسميه بقوة الفعل التلقائي في الذاكرة، وشيئاً بعد شيء تصبح موهبة راجي في دراسته الثانوية نبوغاً اولياً في الاختصاص ويوم ذهب راجي الى نادي تكريت يسأل مجموعة من اساتذته عن مستقبله بعد تخرجه في المتوسطة هل يدخل الفرع العلمي ام الادبي اجاب كل واحد من هؤلاء بما يتصور، قال له سامي الناصري: (مستقبلك في العلميات. .) وقال له ممدوح الآلوسي: (من خلال انشائك في العربي ارى ان تدخل الفرع الادبي. . .) وقال له مدرس الاجتماعيات جبر نجم: (كن في التاريخ . .) كل يرى من عين شاهدت وفحصت مقدرة راجي المتدرجة عبر صفوفه الثلاثة، ثم هؤلاء كانوا يسمون راجياً التكريتي (الموهوب) بالقياس الى انه كان خلال سنوات الثانوية (معفياً) في جميع الصفوف غير المنتهية، بل كان اول من دشن (الاعفاء) في مدينة تكريت عندما كان في مرحلة المتوسطة، وعندما كان نظام الاعفاء مطبقاً على الطلبة المجتهدين يومئذ. . !

٤ ـ والخيال احدى صفات الموهبة، بل هو اكثر مكوناتها نفاذاً الى الحدس والاكتشاف، وكان راجي يمتلك هذا الخيال منذ مارس

الكتابة في المتوسطة ومرة طلب منه استاذه في العربية ان يكتب قصة واقعية او خيالية فاختار ان يكتب قصة خيالية، كان البطل فيها هو نفسه راجي، فتخيل خيالاً في الاحداث والنتائج، وصب الخيال في قالب قصصي كأنه منتزع من واقع البيئة، حتى انهالت عليه اسئلة الطلبة: كيف حدث لك هذا ياراجي، متى حدث لك هذا، متى انقلبت بك السيارة، وكيف انكسرت ساقك، وكلهم انشدوا اليه، واخيراً قال لهم: (هذا خيال) يعني ان موهبته اوحت اليه بان يتسلسل في الاحداث كما تريدها البيئة، أي كما تريدها قوانين الكتابة في بداية نشوء الموهبة الادبية..!

* * *

هو يسميها قابلية، وأنا اسميها موهبة، فلو تفحصنا قدرات راجي منذ نزوعه الطفولي الاول الى الحياة لوجدنا انه مارس نوعاً من (التصوف) على قابلياته الجسدية والعقلية، فقد كان وهو صبي يدرب جسده على الاحساس واليقظة، يخرج من الصباح يعمل في بناء البيوت والسطوح ويعرق حتى يسد بهذه المبالغ القليلة نفقات الدراسة وكان يمضي الساعات الطوال تحت لهيب الشمس يتفكر في مصيره (لماذا اصبحت فقيراً..) (وكيف سأواصل مع مستقبلي ان كنت في هذه الحالة) وهكذا وهو بين حشد مئات العمال، يتأوهون ويصرخون من الضنك والعوز والحاجة، كان يعمل بشدة ويدرس بشدة، يتأوه بشدة

ويفكر بشدة، كانت اجزاؤه الجسدية كلها تتيقظ في سؤال مهم: (اذا كان لا بد لانسان كادح مثلي ان يشق طريقه في الحياة الدراسية بعذاب الجسد فليكن العذاب عذابين)، فكانت النتيجة ان انزلق غضروف من عموده الفقري فآذاه وأوجعه، وربما هو الآن يشعر ان عذاب الماضي كان في صالحه (وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...) ولو كان يائساً من حياته المستقبلية لبقي (مع من بقي من رفاقه) يجتر الزمن الضائع بلا درس بلا اجتهاد، لكنه ذاق المعاناة بالعمل اليومي وتهرأت اصابعه بحمل الطابوق وعبر مسافات نهر دجلة من اجل ان يكمل عملاً بأجر ضئيل، وهو بين هذا وذاك يدرس ويجتهد في ان يرسم لمستقبله بعداً خيالياً خصباً، أي انه كان يضع قابليته في حدود الشحذ والمعاناة حتى تصبح هذه القابلية موهبة في تخطي حالته الراهنة، ويقول في هذا: (هكذا كانت مسيرتي في الحياة.. حدثت امور كثيرة لا حول لي فيها ولا قوة، وتألمت في حينها لأن الظروف عاكستني او وقفت حائلاً دون تحقيق طموحاتي.. ومن ثم أثبتت الايام ان تلك المسيرة كانت في صالحي....) وقد استخدم الصبر كذلك في شؤونه العقلية، فيوم قرر ان يكون موهوباً في تقاليد دواوين تكريت حفظ وصقل قابليته العقلية بحفظ الامثال والحكم والاشعار التي تقال في الدواوين فاستشهد بها في الاقوال والمناظرات، كان يحفظ المثل الواحد ويهيء شرحه بداهة، يقرأ البيت او البيتين ويحضر المعاني بداهة، وعلى حنجرة

أبيه او كبار اسرته اخذ الاعراف القبلية ومزايا حل عقد النزاع القبلي، طور المثل والحكاية الشعبية بالقراءة والمتابعة والجهد الذهني، فبجلته اسرته ثم البيئة وكانوا يقولون (ان راجي ذكي في قابلياته) واظن انهم كانوا يعنون انه مجتهد في معاناته، ولولا هذه المعاناة لما فكر في ان ينمي فيه موهبته، او لولا هذه المعاناة لما وجد النجاح في حياته: (نعم.. فأنا منذ نعومة اظفاري لم اكلف بعمل او واجب سواء كان على صعيد الدراسة او الوظيفة او الادارة او العمل في الجمعيات الا ويكون النجاح حليفي، وأحقق من النجاح في التنفيذ ما يبعث في قلبي السعادة والرضا والقناعة والثناء، انه الجهد انه ثمرة لابتكار الجهد)، أي انه بهذا الجهد المبدع استطاع ان (يستغل) طاقته البشرية الى مداها، وهو يرجع هذا الجهد الى (حظ) أصابه ولا يعرف دوافعه، وانا قلت له: الحظ موجود، لكن لا حظ بدون استشراف الى البعيد. والاستشراف حاصل نتاج عوامل الموهبة..!

التراث الطبي:

فمن أين جاءت اليه موهبة القراءة او الكتابة في التراث الطبي..؟

في طفولته كان يستمع في مجالس تكريت: جاء الحكيم وذهب الحكيم، وهذا المرض لم يشفه سوى ذاك الحكيم، حتى تساءل (.. ما

الحكيم) ويدأ يقرأ اخبار الحروب وقصصاً في الغزوات، ويتابع انباء انتصارات العرب في الفتوح بسلاسل مشوقة تأتي الى العراق عن طريق الكتاب المصريين ويتساءل مرة اخرى: (لماذا لم يندمل هذا الجرح، ولماذا يموت القائد الفلاني من جرح بسيط) وتجيبه امه (هـذه مشيئة الله).... وظل هاجسه في السؤال عن الجرح يضرب في عمق طفولته، ولما بلغ أوانه درس الطب في بغداد، وهنا كان يستمع الى مدرسين انكليز يستشهدون بعلم اطبائهم، هذا البروفسور الانكليزي حقق هذا الانجاز الطبي، وهذا الطبيب الانكليزي اكتشف هـذا المرض وذاك العلاج، وثم مدرس فرنسي كان يشرح لهم في القاعة عن اهمية علم الطب في فرنسا، ويخرج من القاعة ويقول امام رفاقه (هؤلاء المدرسون الاجانب لم يذكروا لنا أي عالم عربي لماذا..) ولم يجد الجواب..!

في سوق الكتب (السراي) اشترى كتاباً في التاريخ بين عدة كتب تبحث في التاريخ والحضارة، وما ان انتهى من قراءة فصلين منه حتى وجد ان الطب اساسه العرب في عصورهم الاولى، ويذهب الى الكلية ينبه الطلبة على هذا الخزين التراثي ولم ينتبه اليه احد، وأخذ يتحدى فقره بأن زاد من اقتناء الكتب التي تدور في التراث الطبي فكانت حصيلته مبادىء اساسية في معرفة من هم العرب الاوائل الذين



اول وصوله إلى لندن لمواصلة دراساته الطبية ١٩٦٠

في تذكار مع الطلبة العراقيين . وهو يبدو الخامس إلى اليسار !

اشتغلوا في الـطب ومدارسهم ومنـاهجهم في العلاج الـطبي، ومرة اخرى يضرب هاجسه في عمق ضميره بسؤال مهم : (لماذا ننسى عظماء الامة في الطب ونلتجيء الى غيرهم من الاجانب. . ؟. .) وقد أدت به هذه الهواجس في الطفولة وفي الكلية الى انشاء نواة لمكتبة طبية يقرأ فيها ساعتين في التراث وساعتين في المعاصرة ويتأمل في ما قرأ ساعتـين، وتوصل بعـد قراءتـه للتراث وبعـد تنقيبه عن طب العـرب في هذا التراث، الى ان الكثير من الآراء والنظريات واساليب العلاج (التي يقال بانها حديثة) ما هي الا مترشحة من القديم، فحاضر في ذلك والقىٰ بحوثاً وكتب دراسات فيما كان متوصلاً اليه بأساليبه الاجتهادية في هذا التراث العربي .

* * *

ويذهب الى انكلترا (وهو يحمل زاداً اجتهاديا في طب العرب) ويرى في جامعتها وفي جمعياتهم الطبية وفي كتبهم الطبية وفي مؤتمراتهم اهتماماً متزايداً بتاريخ علومهم الطبية، ودرس هذا التاريخ وحضر جانباً من مؤتمراتهم وحاول مع التلامـذة الانكليز في تـاريخ الـطب الانساني، وكانت رحلته مضنية، فوجد ان تاريخ طبهم يعود الى القرن السابع عشر، بينما يمتد تاريخ طبنا الى مئات السنين (في تاريخ المسلمين العرب) والى آلاف السنين (في تـاريخ الحضـارة العراقيـة) وان هذا التاريخ ظهر واضحاً في التنقيبات الاثارية الحديثة، في المسلات والرقم

الطينية والنقوش والرسوم، وعلى صفحات قصب البردي: (لماذا اذاً تتجاهل الحضارة الاوربية هذا التاريخ..؟) ولم يحزن راجي في هذا السؤال، لأنه عندما كان يدرس في كلية الطب ببغداد سمع من استاذ انكليزي يقول له، انكم بلا تاريخ طبي ولحظتها ادرك ان (اوربا تحاول ان تطمس تراثنا لغايات غير حضارية..)..!

في سنة ١٩٧٧ التحق بدورة في انكلترا في مستشفى القديس (توماس) لزيادة الاجتهاد في اختصاصه، وفي اثناء دراساته أخذ يشارك في الندوات الطبية التي تعقد في المستشفيات الكبيرة وفي آخر احدى الندوات فاجأ رئيس الندوة جمهوره بأن قال لهم، انه يحضر بيننا الدكتور راجي التكريتي من العراق، وسيتحدث اليكم في الخميس القادم عن امراض المفاصل، وحضر راجي التكريتي في نفس التاريخ والقى المحاضرة مرتجلاً على البديهة بعنوان (المفاصل عند العرب المسلمين) شارحاً مناهج الرازي وابن سينا وثابت بن قره والزهراوي، وغيرهم، وقد ربط الحديث عن امراض المفاصل في القديم وبين امراض المفاصل في العراق ومقارنتها بامراض المفاصل في انكلترا، وكان جمهور القاعة مشدوداً الى هذا التراث العربي الذي اذاعه راجي لاول مرة في انكلترا، حتى انصبت عليه الاسئلة في نهاية المحاضرة: هل ان ما قلته كان صحيحاً، هل هو موجود في تراث العرب القديم، هل يوجد أحد تحدث عن اوجاع الظهر وامراض المفاصل والنقرس

قبل هبردين وسيدنهايم، وقال لهم راجي: (نعم) واذا رغبتم بالمزيد والاطلاع عليكم ان تذهبوا قريباً عبر الشارع الى المتحف البريطاني (المكتبة الشرقية) وستجدون الكتب التي تحدثت عن هذه الامراض، ولكن راجيا لم يقل لهذا الجمهور الانكليزي بان هذه الكتب التراثية التي فيها علوم العرب في الطب هي بالعربية، وهي الى الآن لم تترجم الى لغات اوربا.. ولقد شجعته هذه الندوة في لندن بتطوير بحوثه في التراث الطبي، حيث سافر الى اطراف الدنيا بحثاً عن مخطوط عن مجلة فيها دراسة عن التراث، وهو الآن يجمع النفيس والفريد في هذا التراث بلغته او بلغات اخرى، وفي مكتبته خزانة هائلة من مصادر التراث ومن نشرات التراث الطبي وكأنها خزانة جامعة وبأمكانه الآن ان يؤلف موسوعة يرشدك فيها الى نصوص قديمة في الطب لو اردنا ان نطبقها في العلاج لفاقت في جدواها على نصوص حديثة.. ففي مرض شلل الاطفال برهن راجي على ان علاجه قد جاءنا من حضارتنا القديمة فألف في هذه البرهنة كتاباً اوضح فيه ان كتابات عن هذا المرض وجدت منذ آلاف السنين، وان صورة تمثل رجلاً مصاباً بشلل الطرف قد وجدت منقوشة على احد الجدران لآثارنا القديمة، واكثر من هذا وجد راجي ان وصايا طبية تعود لتاريخنا القديم هي افضل من الوصايا الحديثة، وعندما كتب كتابه (الظهار) اراد ان يثبت لهؤلاء الاجانب ان طبنا القديم لم يكن يعتمد على السحر والرقى والوشم وانما

على علم حقيقي ووصايا طبية كثيرة، وان الحكيم العربي او الجراح العربي القديم كان يبدأ بوصف تشريحي كامل لمنطقة الظهر (مثلاً) وبعد ذلك يبدأ بوصف فسلجي، ومن ثم يأخذ بوصف اعراض وعلامات المرض.. ويعطي العلاج والانذار المرضي، وهكذا هم في تشخيصاتهم لكل الامراض..

حتى نحن في كلياتنا الطبية لم نهتم بتراثنا الطبي، وبقي اهتمامنا بما ينتجه الغرب او يبتكروا في عالم الطب اهتماماً سحرياً، ففي سنة ١٩٧٧ دعي راجي لالقاء محاضرات في التراث الطبي في كلية الطب ببغداد وبدأ يتحدث عن نظرات حديثة في الطب العربي القديم مستنداً الى خير النصوص لابن التلميذ والزهراوي، وغيرهما من علماء العرب وقال ان امثال هذه النصوص تعيش حتى الآن، ودعا الى تطبيقها، فاندهش الحاضرون: (هل صحيح.. اين هي الآن....) بل ان اغلبهم لم يتصفح أي كتاب للرازي او الزهراوي، فاين العلة، هكذا ردد راجي في نهاية محاضرته..!

لم يكن راجي يدعو الى ماض وحده وعندما كرس جهده النفسي واجتهاده العلمي للكشف عن تراثنا الطبي، او عندما اراد ان يلغي الشكوك الاجنبية بجمود العقل العربي، وانما سعى الى ان ينبه الاجيال الطبية الجديدة ويذكرهم (باصالتنا القومية) فمن هذه الاصالة يمكننا ان نمد (جسراً ذهبياً) الى المعاصرة، لأن الامم والشعوب التي لا جذور

لما وليس لها امتداد في اعماق التاريخ سرعان ما تلعب بها التيارات وتقتلعها من أرضها . . !

نفاذ ومعاينة :

ولكن راجيا لم يدع الى خيال ولم تكن الارض التي يمشي عليها ارضاً رملية، فهو ابن تجربة قومية كان يهمه في شبابه وما زال ان ينتصر العرب في حضارتهم ولا يمكن التوصل الى هذه الحضارة الا بمعرفة ومعاناة الماضي، وعندما درس الطب هنا وهناك في اوربا قبل ثلاثين سنة، كان يعد نفسه لأن يكون مؤهلاً في الدعوة الى هذا الماضي وهذه الحضارة فكان. . . كان يحمل على اكتافه بعد عودته من اوربا اول اختصاص في بلده (امراض المفاصل) في بداية الستينات، اذ لم يكن هذا الاختصاص معروفاً من قبل، وهكذا نفذ الى العمق، عين على الماضي بحثاً عن جديد الماضي، وعين على الحاضر بحثاً عن ادوات التطوير والتأهيل فقام يثبت هذا الاختصاص في تربته الحقيقية، فانشأ فروعاً له في المستشفيات العسكرية، ومن الصفر أخذ يمهد لانشاء المعاهد والشعب حتى اصبح اختصاصه فرعاً طبياً معروفاً بين فروع الطب الاخرى، وعرف الناس ان راجياً التكريتي هو الاول في هذا الاختصاص، هو الذي بشر بالدراسات واللجان بتطويره، وانت ان التقيت في مستشفى عسكري، وفيه فرع للمفاصل فقل هذا فضل راجي، فضله في ان نبه الاطباء، اجيالاً من الاطباء، الى ان

اختصاصه هو من تراثنا وما جاء به هذا التراث هو اكثر مما اخذناه من الغرب، فاندفع الاطباء الى اقواله وصار منهم اليوم عدد كبير في امراض المفاصل، حتى في هذه المؤتمرات العربية والدولية يقف راجي على منصاتها يدعو الى اعادة النظر والبحث في موجودنا التراثي، ففي هذا الموجود انبغ العلماء واكثر القوانين في توصيف الطب . . .

السفر الخالد:

وكلما غاص عميقاً في هذا السفر الخالد من تراثنا، اكتشف حقائق علمية مذهلة وفي جوانب متعددة من المعرفة الطبية، اشار الى بعضها في ندوات، والى بعضها في دراسات أغلبها لم ينشر حتى هذه الساعة، ومن اكتشافاته:

١ ـ قول الرازي (واطباء العرب) بأن النقرس لا يصيب الصبيان ولا النساء ولا الخصيان. . وتوصل راجي بالتجربة الى هذه الحقيقة، بينما يصر بعض الجراحين والاطباء على ان النقرس يصيب النساء والصبيان، والرازي امتاز بوصفه الكثير من الحالات السريرية ولمختلف الامراض، وهو الذي يقول: (اذا اصيب عدد من الجنود بمرض واحد فيجب عزلهم في ركن قصي من المعسكر وبالاتجاه المعاكس للريح. .) وابن سينا يضع وصفاً تفريقياً دقيقاً بين ألم حصاة الكلى وأوجاع الكلى وأوجاع الزائدة الدودية ومرض ذات الرئة وألم

ذات الجنب، كما يضع ابن سينا خمسة عشر وصفاً لانواع الالم التي قد يشعر بها الانسان . .

وابن الخطيب (ذو الوزارتين) الاندلسي أشار بوضوح الى اسباب العدوى في مرض الطاعون . . وهؤلاء اشاروا الى اهمية تعقيم وتنظيف الجروح قبل تضميدها وازالة ومنع حدوث التلوث فيها، واستعمالهم، للمحامل في نقل الجرحى والمتعبين واقامة المستشفيات العسكرية الثابتة والمتنقلة . .

٢ ـ وبعد تدقيقه رأى ان ابن النفيس قد سبق سرفيتس بثلاث مئة سنة وسبق هارفي الطبيب الانكليزي بعدة قرون، باكتشافه علم التشريح ولا سيما في الدورة الدموية الصغرى، وابن النفيس ذاته توصل الى ان عضلة القلب تتغذى من خلال الاوعية الدموية المثبتة في جدرانها وليس كما كان اطباء غربيون يعتقدون بأن غذاء هذه العضلة من الدم الموجود في تجويف القلب، كما اثبت ابن النفيس بأن للقلب بطينين وليس ثلاثة كما ذهب الاطباء الآخرون، وعالم عربي آخر قال ان انتقال الدم من الشرايين الى الاوردة يتم عبر الاوعية الشعرية، وهذا العالم هو علي بن العباس الذي اليه ترجع نظريات عديدة في بنية الدم . .

٣ ـ وانت تدخل في هذا السفر الطبي الخالد تجد ان العرب مارسوا التجربة الطبية بوعي من تفوقهم الحضاري الموروث، ومن

هذه التجربة شخص راجي التكريتي القوانين الطبية التي ما زالت آثارها تسود في مختبرات الطب، منها: قوانين (التخدير) فهم اول من استعمل الاسفنجة المخدرة.. وذلك بوضع اسفنجة في محلول مركب من الافيون والحشيش والسكران وست الحسن، ثم يجففونها، فاذا اجروا عملية جراحية وضعوا الاسفنجة على انف المريض، فيذهب المريض في نوم عميق حتى تجرى له العملية، وللجراحة آلات خاصة يعود الفضل في اكتشافها الى الزهراوي، والى الرازي يعود فضل اكتشاف (استعمال) الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في العمليات الجراحية، كما ان الزهراوي ادخل في هذه العمليات خيوط الحرير، وهؤلاء العرب هم اول من استطاع تفتيت الحصى في المثانة واخراجها، واستعملوا الانابيب المعدنية في عملية (التبويل).. وهم ايضاً قالوا بان مفصل الفك الاسفل يتكون من عظم واحد وليس من عظمين، وكذلك العرب وضعوا وصفاً رائعاً لمعالجة كل انواع الكسور، وهم اول من مارس عملية فتح عظم الرغامي (القصبة الهوائية) للتنفس وقد مارسها الزهراوي بنفسه ووصفها الرازي في كتاب الحاوي، وهذا الرازي اول من فرق بوضوح بين الحصبة والجدري وله رسالة في ذلك.

وهناك في ركن من مكتبته ترى راجي التكريتي يضع جزازات فوق جزازات وما ان تقترب اليها حتى تلتقي او تقرأ تعليقاته

و(هوامشه) على تلك النظريات الطبية التي اكتشفها العرب، ولا سيما نظرية (النظافة) التي تؤدي دوراً مهماً في تقليل الامراض وفي شفاء الجروح بوسيلة الماء المغلي، ونظرية (الجروح النظيفة) باستعمال التعقيم قبل خياطة الجروح، ونظرية (الوقاية) ونظرية (الصحة العامة)، وفي جزازاته ايضاً اشارة الى قوانين العرب في الدراسات الطبية، وفي مفاهيم (التجربة) العلمية، كل قانون يرجعه الى مكتشفه، بتاريخه ببلده، ويقوم راجي يعلق على كل قانون تعليقاً استنباطياً، يظهر فيه: أي للعرب وأي لغيرهم، واذا هذه الاستنباطات كلها غدت علماً في ابراز التراث وليس تحقيقاً في كتب التراث، غدت بناء فكرياً للعقول الطبية..!

هل كان سياسياً:

وانا اقول: نعم.. فهذا الجهد والوعي وهذه الرؤية الفاحصة الاجتهادية الى التراث الطبي العربي لا بد ان تصدر عن نظرة عميقة الى الامة، والبحث في الامة هو السياسة والبحث في ان تأخذ الامة دورها الريادي في العصر الحديث هو السياسة، وما دامت السياسة هي احدى الوسائل في البعث القومي، فان راجياً التكريتي كان سياسياً منذ بدأ يكتب اولى الحروف الادبية في الابتدائية، ومنذ كتب اناشيده الشعرية وقصصه عندما كان فتى في المتوسطة..!

* * *

ما زال يتذكر تلك العصا التي خرج بها هو ورفاقه ينشدون في تظاهرة شعبية في مقتل الملك غازي في أواخر الثلاثينات، او مازال هذا السيف الخشبي او الحديد - سيان - يذكره بموكب المسيرة التي ناصرت انتفاضة مايس ١٩٤١، كان يحمل السيف ويهتف لانه رأى الناس الطيبين يهتفون للعراق، وربما تكون قراءته للحروف الكبيرة في لافتة المسيرة: (الله اكبر ياعرب.. الى الجهاد ياعرب...) هي التي أوحت اليه بان يجعل قلبه مع قلوب الهاتفين الى العرب.. حزن في حزن، حتى يتفجر هذا الحزن مرة واحدة في اعماقه حينما سار مع موكب المتوسطة يطالبون بتحرير فلسطين، بعد مذبحة دير ياسين في أواخر الاربعينات، والحزن في الفقراء اذا اتحد مع الوعي صار: سياسة، هنا تعلم راجي المبادىء الاولى في السياسة، انه مع كل جرح عربي، مع كل من يضمد هذا الجرح، مع كل من يرى في هذا الجرح خلاص المظلومين..

ومن تكريت الى بغداد وفي قلب الكلية الطبية نادى بأعلى صوته: (الموت للطغاة) وتخرج تظاهرة الكلية في انتفاضة تشرين ١٩٥٢..

شاب اسمر، دقيق الجسد، ممتلىء الشرر، مازالت اصوات الانتفاضات الوطنية التي سمعها في تكريت، تلون قلبه وحاجبيه هو الآن في بغداد يقود جمع الطلبة من باب المعظم (حيث مقر الكلية)

مروراً بشارع الرشيد الى حيث الباب الشرقي، وهنا تساقط الجرحى الطلبة ولم تنتكس الراية في يديه، هنا رأينا راجياً يمتزج قميصه البني بدماء الجرحى، ومع الراية أنشـد خمسة ابيـات من الشعر فـانتفض الجرحى، وكلهم مع صوت راجي، رأيناهم يهزجون في الدماء، بينما رصاص ينهمر كالمطر بينما الحزن بداية الطريق، هنا كان راجي يختبر الطريق . .

* * *

لكن هذا الطريق شـائك الى الامـة، هو هكـذا كان يعـرف البداية، يعرف انها المفاجآت وقنابل مسيلة للدموع وقضبان حديد، ويكلمه احدهم . .

■ انتم اطباء . . ومالكم ومصر . . ؟

ـ انا عربي . . والجرح جرحي !

■ انت تثير الشغب! . . . (وبينما هو يخط لافتة في الكلية الطبية يشجبون بها الاعتداء الثلاثي على مصر العربية سنة ١٩٥٦ اخبره احد الثـوريـين: ان اهــرب يـاراجي . . .) واختبـأ في بيت من بيـوت (العيواضية) وفي الليل داهمته شرطة الامن، لكنهم لم يعثروا عليه فقد تسلق سطوح الدور المجاورة اليه حتى بات ناجيا في دار مولود مخلص (العيواضية ـ شارع دجلة) وبعدها اقفلت الكليات ابوابها وعاد راجي الى تكريت وغاب لون وجهه عن عيون الاذناب . . !



في مستشفى وست مدلسكس بلندن سنة ١٩٦١
وقد تساقطت من حواليه أوراق الخريف ..!

لكن وجهه لم يغب عن عيون رفاقه في الكلية، فقد انتخبوه قائداً لهم في تنظيم حياتهم الاجتماعية، وممثلاً لهم في مناسباتهم الوطنية، فاقام لهم الاحتفال وشيد لهم مثالاً في القيم وشد أزرهم، فأحبوه وبجلوا فيه الحب للجميع والهتاف للجميع والحماية للجميع . .

كانت افكاره الى الامة، ويمكننا ان نجزم بانه كان (مستقلاً) في افكاره الخاصة لكنه تحزب الى الوطن، وهذا الوطن واحد ولغته واحدة وطريقه واحد ونضاله مشترك واحد حتى اذا تخرج في الكلية الطبية في اواخر الخمسينات كان راجي التكريتي في عرف الاحزاب: قومياً عربياً عروبي الاتجاه. . !

* * *

وتهل الثورة في ١٤ تموز ١٩٥٨، ويباركها جيل راجي، بينما راجي منهمك بالتدريب على السلاح، ضابطاً في كلية الاحتياط، مبتهجاً في هذا الفجر الجديد، متذكراً اناشيد الجرح التي صنعت ملحمة تموز، ومتذكراً انه جزء من هذه الملحمة، لكن الخلاف يدب في هذه الثورة، ويتسرب الى الثكنات العسكرية، فيحتدم الجدل ويتعالى الجدل، ويتوزع رفاق راجي الى جيلين، جيل العروبة وقد انحاز اليه راجي انحيازاً مصيرياً، وجيل يسميه جيل (الشعوبية) فصارعه بالكلام والجدل، بكل ما أوتي من قوة العواطف والاحاسيس، فوجد نفسه في سجن ابي غريب مثخناً بالجروح لاشهر معدودات ومن هذا

السجن أبعد الى كركوك، وهناك كتب في دفتر صغير: (هل قدر للثورة ان تبتلعها الشعارات) ونام عميقاً، تدفئه النار الازلية، ويصحو مرة اخرى فاذا هو في لندن، يخطو خطوته الثانية في دراسة الطموح الاعلى: الطب بجامعة لندن..!

* * *

هذا الطب علمه الاحساس بالحياة، انه كلما تغلغل في الاحساس فاض على الآخرين بالحب والسعادة، وكلما ادى دوراً صعباً، وكلما اكتشف شيئاً جديداً، خاطب نفسه (كن وتواضع) ففي هذا التواضع يرى الاطباء انفسهم (كما كان يرى جابر بن حيان) طيوراً بيضاً تخفق في الاعالي والضمائر، حتى قيل فيهم: انهم رسل.. حتى قال هذا الشاعر العربي في راجي:

اذا القوم قالوا من فتى خلت انني
عنيت فلم ابخل ولم اتبلد



سنة ١٩٦١ في لندن ويظهر : السيد وزير الدفاع الفريق أول الركن عدنان خير الله لحضوره دورة عسكرية) ويليه السيد فاضل التكريتي وكان موظفاً في السفارة العراقية .. ثم الحكيم راجي التكريتي.

○ الطبيب ومفردات الحياة ..

تعلم ان لايتردد في شيء ، فسالته :

س - متى يخاف الطبيب ..؟
ج - عندما يؤتى عملا يغضب الله ويخالف الضمير ..
س - متى يغش الطبيب ..؟
ج - عندما يموت الضمير وتواد الاخلاق ..
س - هل ضروري ان يغضب الانسان ..؟
ج - لابد للانسان ان يغضب ، لنيل كرامة ولرد منكر واحباط كذب ..
س - حرية الفكر ..؟
ج - العقل موهبة الانسان ، والفكر ثمرة العقل ، وحرية الفكر هي العطاء الناضج للعقل ، ولايمكن ان يكون هناك عطاء فكري سليم من غير حرية للفكر ..
س - هل تثار ..؟
ج - سابقا نعم وبما يوازي الذنب والان اجلم ، والصفح سمو عال في اخلاق الانسان ..
س - هل انت راض عن نفسك ..؟
ج - نهاية الانسان عندما يتوقف طموحه ..
س - اي المؤلفين تميل اليهم ..؟
ج - اصدقهم مع الذات ومحاكاة العقل ، وبعدا عن التزلف والاتجار بالكتابة ..

س - اي المدن تحب ..!
ج - تكريت مسقط راسي ومرتع طفولتي ، والديوانية نضوج شبابي وبغداد آخر محطة لقطار احلامي ..
س - كم تحزن في اليوم وكم تفرح ..؟
ج - قد احزن كثيرا وقد افرح كثيرا ، ولكن لايبلغ حزني الى حد القنوط والانهيار ولايصل فرحي الى حد يفقدني اتزاني ..
س - اي عنصر يغلب على الانسان اكثر من الآخر : الشر ام الخير ..؟
ج - الشر عندما يفقد الانسان عقله والخير عندما يتحكم عقل الانسان ..
س - هل تحقد ..؟
ج - في مجالات قليلة نعم ، ولكن يغلب علي الحلم والصفح !
س - هل تحب المال مادمت طبيبا ..؟
ج - بالقدر الذي يغطي التزاماتي المتواضعة واكره ان يستعبدني حب المال ..
س - نسبة الايمان فيك ..؟
ج - عالية والحمد لله ، وان تمر بي فترات من التامل والتفكير ..
س - ماذا تفضل : ان تنتصر كطبيب ام كمؤلف ..؟
ج - الاثنان .. واعتقد اني قد حققت الانتصار كطبيب ، واتمنى ان احقق تقدما في التاليف ..
س - افضل مثل يلتزم به الطبيب ..
ج - من ملك نفسه ملك المملكة العظمى ...

○ اتحاد الادباء ..



■ انا شخصيا عضو في اتحاد الادباء واشعر احيانا كثيرة باني مقصرا الى حد كبير في ما يخص الاتحاد وذلك بعدم متابعة نشاطه الاسبوعي او الشهري والسنوي واعتقد ان السبب يعود الى التعارض في توقيت الندوات والمحاضرات مع دوامي وعيادتي الخاصة والتي لها واجبها ومتطلباتها فاغلب المحاضرات تعقد الساعة السادسة من ايام الاربعاء فمثلا ـ لو كانت الاثنين او الخميس او الجمعة لربما اتيحت الفرصة لي ولامثالي ان يحضروا هذه المناظرات والامسيات الشعرية ولكن التوقيت يحرمني من هكذا امسيات وقد طرحت مرة على احد الاخوان من الهيئة الادارية ووعد بدراسة الموضوع ولذا قد اجد صعوبة ان اقوم تجربة انا بعيد عنها بعض الشيء ـ اي ان صاحب الدار ادرى بالتي فيها ..

ولكن من خلال متابعاتي عبر الصحف الاحظ ان للاتحاد نشاطا ملحوظا بما ينظمه من امسيات شعرية ودراسات ادبية ومناظرات ومحاضرات ومن ثم ليتوجها من خلال مشاركة اعضائه بالاحتفال الكبير في مهرجان المربد وهو عبارة عن تجمع جماهيري كبير يساهم فيه الشعراء والادباء والنقاد من العراق والوطن العربي والعالم يضاف الى ذلك السفرات التي ينظمها الى المدن الاثارية وجبهات القتال ليكون الادباء على مقربة وبتماس وتفاعل مع الجندي المقاتل حتى تتوحد بصدق قوة الكلمة مع قوة الاطلاقة .. ومع هذا فان نظرتي

الى الاتحاد يجب ان تاخذ ابعادا اوسع ومجالا اكبر - فمثلا لابد ان تكون مجلته ملء الساحة الادبية وتصدر بشكل منظم لتاخذ دورها الايجابي في تنشيط الحركة الادبية والفكرية ليس في القطر وانما على مستوى الوطن العربي وانما الذي اعرفه وهكذا تصلني بفترات متباعدة ان النشر يقتصر على شخصيات معينة .. ومن ثم يسعدني ان اقرا مسلسلات ومؤلفات تصدر بشكل منظم وباعداد كبيرة وهي تحمل اسم اتحاد الادباء على غلافها ، وان ياخذ الاتحاد على عاتقه احياء الكثير من تراثنا الادبي والفكري سواء المطبوع منه باعادة طبعه او الذي لم يطبع باتاحة الفرصة للطبع وان تكون المعونات والمكافات مجزية بل مغرية لحركة الطبع والتاليف والتحقيق ومن ثم ان ياخذ الاتحاد على عاتقه اختيار المؤلفات الحديثة والقديمة وطبعها وتوزيعها على العالم وبلغات مختلفة حتى يعرف العالم بالحيز الذي يجب ان يكونه لنا تحت الشمس ، اي ان حركة الترجمة يجب ان تكون باتجاهين نقل الآداب الى لغتنا العربية ونقل تراثنا وادبنا ومؤلفاتنا الى اللغات الاخرى .. ليخلق الاتحاد حركة ونشاطا ادبيا واسعا وان نؤثر ونتاثر بالحركة الثقافية الانسانية واريد من الاتحاد ان يسمعني صوته ضد الآراء والافكار النشاز التي تصدر بين آونة واخرى هنا وهناك على تشجيع اللغة العامية بهذا الاسلوب او الآخر .. واعتقد ان اتحاد الادباء اولى بأن ينهض بهذه المهمة التاريخية ..

ومن ثم ارى من الضروري ان ياخذ الاتحاد دوره الكبير في الحفاظ وحماية اللغة العربية وبذل جهود جبارة في منع الاختراق الذي يحدث بتعريب كلمات مشبوهة واستعمالها بكثرة في الاذاعة والتلفزيون والصحافة بل حتى في ندوات الاتحاد نفسه .. ان يشترط الاتحاد في عقد ندواته ومناظراته بأن يتكلم المتحدثون باللغة العربية الفصحى وعدم استعمال كلمات منمقة اعجمية كالاستراتيجي والايديولوجي ..

[من رسائل راجي التكريتي الى المطبعي]



الاول في وقفة في احدى حدائق لندن مع بعض اصدقائه

الفصل الثالث

شجر من الكتب، وثمار من المعرفة

مجلسه :

هو ايضاً مجلسي، اقام له مجلساً في البيت في بحر الستينات، بعد ان عرف بانه الطبيب الباحث والمحقق في التراث الطبي، ولم يكن مجلسه للسمر وتزجية الوقت وانما اراد ان يكون (ندوة) كما هي مجالس بغداد، تدور فيها قضايا الحياة فدعا رفاقه في البداية، العميد المرحوم عبدالرحمن التكريتي (صاحب الامثال) والمرحوم سليمان الناصري والمرحوم محيي العلي الياسين، ثم انتشرت ندوته فتعلق بها اخوه استاذ الفلسفة ناجي التكريتي وفائق مخلص وخالد ماهر وحميد خيرالله، واطباء ومهندسون وسياسيون، كلهم الى الثقافة ينتسبون، ويجادلون، ويحتد بينهم النقاش، ويتطور النقاش (بلا محض) لكنهم يلتقون بعد فورة النقاش، حول (لماذا نحن مثقفون) و(كيف السبيل الى منهج قومي في التراث) لانهم ادركوا ان ندوة كهذه لا بد ان تصوغ لهم في النهاية السؤال المهم الذي يلقى عادة في مجالس بغداد المعاصرة: (اذا كنا ننتسب الى حضارة العراق، فلماذا لا نوضح هذه الهوية في مجادلاتنا..) وفعلاً كانوا يغنون هذه الهوية في ندوتهم بقراءة التراث مرة، وبتصفح ما صدر في هذا التراث، وتقويم المؤلفين، وتقويم آراء المؤلفين، حتى صار لدى راجي سجل من افكار هذه الندوة يرجع اليه في تذكر الملامح، في تذكر ليالي الجمعات التي اعطوا فيها انفاسهم في مساجلات وقصص وحكايات هي عز شبابهم الثقافي، لكنه الآن (في

سنوات الحرب) اغلق ابواب مجلسه، لأن ليالي الجمعات لم تعد ملكه، بل ملك هذه الدماء التي تفور في جبهات القتال، فيبتكر لها اتعابه، فيحقنها بالطب القديم او بالطب الحديث، ويعود بها الى الجبهات مترعة بآماله، مترعة بآمال ندوته القديمة . . !

* * *

وليس هؤلاء الذين حضروا مجلسه هم كل محيطه الثقافي، فهو اقام مع جيله او اجيال اخرى صلة الجسور الثقافية العامة، منهم الاستاذ في علم الاجتماع كالدكتور يونس حمادي، والمختص في النقد الادبي كالدكتور عبدالجبار المطلبي والدكتور عناد غزوان (ابن دورته في اعدادية الديوانية) والمختص في البلاغة كالدكتور احمد مطلوب (ابن دورته في متوسطة تكريت. .) والمختص في الجغرافية وعلم النفس والتاريخ، واختصاصات اخرى كلها وجدت في راجي قريباً اليها في شيء من اشياء الطب، وهو ايضاً وجد في هذه الاختصاصات اطاراً عاماً لبحوثه في التراث، وكان في ما مضىٰ او مازال يقيم صلاته الفكرية مع المرحوم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين (رئيس المجمع العلمي العراقي سابقاً) والمرحوم الدكتور فاضل الطائي والشاعر محمد ابراهيم الياسين وغيرهم. . وفي حقبته الاخيرة كانت له علاقة وطيدة مع الدكتور كمال السامرائي (الخبير في اصدار كتب التراث الطبي . .) ومع الدكتور عبد علي الجسماني رئيس قسم علم النفس في كلية

الآداب والتربوي احمد توفيق الحلي، وغيرهم هؤلاء او اولئك الذين رحلوا عنا، كانوا عيوناً مشدودة الى التراث والى الهم الاول: الكتابة. . !

* * *

يضاف الى ذلك وجهه الطبي، فمن خلال هذا الوجه الذي ارتسمت فيه علائم الجدة والابتكار، تعرف او تعرفت به كوادر طبية عربية وعالمية من الطراز المرموق الذي يجمع بين الخبرة والشهرة، ففي الستينات التقى مع الدكتور وليد قمحاوي نقيب الاطباء في الاردن، والدكتور احمد درويش عميد كلية طب الاسكندرية (الذي شغل منصب وزير الصحة في نهاية الستينات بمصر العربية) والدكتور عبده سلامة رئيس مؤسسة الدواء المصرية (ووزير الصحة في ما بعد) والفريق الطبيب داود حنانيا (مدير الخدمات الطبية الاردنية، واستاذ جراحة القلب المشهور عالمياً. .) كما انه بصلة وثيقة مع اطباء عالميين كالدكتور أرنست رابنتيش من المانيا الاتحادية، والفريق الطبيب خيرالدين من جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية، والفريق الطبيب اسكندرانوف (عميد اكاديمية لينينغراد الطبية)، ولهؤلاء وغيرهم رسائل ومكاتبات مع راجي التكريتي بلغات مختلفة، وبعض هذه الرسائل تبحث في دواء جديد، وبعضها تفتش عن مصدر للطب قديم او جديد، وبعضها يناجي راجيا بدوام القلب. . !

قراؤه :

واذا كان راجي يعرف ان جيله من الكتاب هم هؤلاء الذين ترعرع بينهم في النشر والطبع وقوّمهم وقوّموه، فانه ايضاً يعرف من هم قراؤه الذين يقرأون له ويتحسسون مضامينه واهدافه في الكتابة، ولو انه لم يستطع ان يلمح من قريب او بعيد هؤلاء الذين يشترون كتبه او يثنون على معاناته في استخراج درر التراث، لما ظل يتابع اصدار الكتب، ولما ظل يعيد الطبعات الاولى والثانية والثالثة من بعض او اكثر كتبه، هذا دليله الاول في ان له قراء من القراء، وأدلته الاخرى كثيرة، منها: ان دوراً للنشر في بيروت او غير بيروت اقدمت على اعادة طبع بعض كتبه (من دون موافقته الرسمية) وهو الى الآن يتساءل (من اباح لهذه الدار او غيرها بطبع كتبي . .) لكنه (كعادته) لا يرفع شكوى او يطالب بحقوقه في التأليف، فقد اقتنع انه ما دام في اعادة طبع كتبه فائدة للقراء، فان حقوقه في هذا الطبع هي مسألة شكلية يتركها للزمان، وهكذا ترى ان راجياً التكريتي كان همه في طبع الكتب هو: (القراء وليس الربح) اما لماذا لا يطالب بربح مشروع من وراء اتعابه في الكتابة، فهو هذا الغنى في نفسه، وربما يعرف القريبون اليه، انه كان يتفق مع الناشر المعروف قاسم الرجب او غيره بان يرسل اليه كتباً بدل المال الذي يأتي من مبيعات كتبه، فكان المرحوم الرجب يحمّل اليه

صناديق الكتب الكثيرة الكثيرة ويكتب مع هذه الصناديق رسالة من سطرين: (الدكتور راجي التكريتي هذه هي ارباحك من كتاب السلوك المهني للاطباء. . . .) حتى اذا فتح هذه الصناديق وجد ان الرجب بعث اليه بافخر مجلدات التراث التي كان يجلبها من القاهرة او بيروت او انقرة، ويزداد راجي ثقة بنفسه، لانه وجد ان ما يكتبه لا بد ان يدخل في عقول الآخرين او في عواطفهم ثم ان هذه الرسائل التي تصله بالبريد (تشيد بكتبه وبقلمه) من اقطار العرب، تعطيه دفقاً روحيا لمواصلة نهجه في الكتابة او في ما هو يختار من موضوعات البحث، ثم هذه المجلات العربية التي تصدر في لندن او باريس او هذه الصحف التي تصدر في الاقطار العربية، هذه المنابر الاعلامية الكثيرة عندما تشير الى هذا الكتاب او ذلك من كتبه، فانما تشير الى رصانة الابحاث التي جاء بها راجي، من دون ان يقيم علاقة مع تلك الاقلام التي كتبت عنه، وهؤلاء المثقفون الذين يصادفهم في مؤتمر تراثي او في قاعة محاضرات يعطونه حالاً ردودهم الايجابية على ما قرأوا له، على ما توصلوا اليه من نتائج في ابحاثه. . !

***

ولا بد اننا يوماً قرأنا له في صحافتنا موضوعاً كموضوع (اوحال بغداد من فوق سماء بروكسل) او (امانة العاصمة والظهار) او (ماذا



الثاني إلى اليسار .. في اجتماع المكتب التنفيذي للأطباء العرب ١٩٦٤

نعل ابو رغال) او (المربد ومسؤولياته) او (المعوقون ماذا فعلنا من أجلهم) او غير هذه الموضوعات التي على قلتها قد أثارت جدلاً كثيراً، وبعضها قرأ في الاذاعة او التلفزيون (وأعدت من الموضوعات المختارة)، أنا لا أقول ان الناس كل الناس يقرأون كتبه او موضوعاته، وانما هذه الدوائر من القراء تتسع يوماً بعد آخر، الى كتبه، وتطالبه بمزيد الفكر وثماره، وهو دليل يقام على شهرته الرصينة..!

اما هو فيقول عن صفات قرائه بانهم: (من الطبقات المثقفة التي يعنيها التراث والتاريخ والمواضيع العلمية..) بخجل قال.. وبمودة!.

حتى اولئك الكتاب والمختصون (هم بمعنى من القراء) نقلوا عن كتبه نصوصاً واقتطفوا فقرات، بعضهم اشار اليه في هوامش كتبهم، وبعضهم تناسى اسمه، وبعض بلع نصوصه بدون حمد او ثناء ونشروها في كتبهم على انها من وحي افكارهم، لكن هؤلاء واولئك اسدوا (خلمة) لشهرته، وعلميته واهميته في التراث الطبي، وفي مؤتمر طبي عقد في كربلاء (وكان راجي حاضراً في افتتاحه) استشهد نقيب الاطباء (خلدون درويش لطفي) اثناء القائه كلمة الافتتاح بنصوص من كتب راجي، اذ أعدها أشبه بوصايا طبية ينبغي الاخذ بها في السلوك المهني للاطباء، كما أشار في نفس كلمته الى اهتمام اطباء (الاتحاد العربي للاطباء) بهذه الوصايا، وقامت جريدة (السياسة) الكويتية بنقل ونشر

نصوص مقتبسة من كتابه (الضحك) لما لهذه النصوص من متع روحية وعلمية في آن واحد، ولما لها من تأثير على قارىء اليوم، كما اعتمد كمال السامرائي على كتابه (السلوك المهني للاطباء) كأحد المصادر في تأليف كتابه (مختصر تاريخ الطب) كما ظهرت نصوص كتبه في نشرات طبية عديدة ورسائل دكتوراه عديدة وبيانات مؤتمرات طبية عديدة. . !

افكاره :

وهكذا عرفه القراء من افكاره، ولكن افكاره لم تشكل فلسفة من الفلسفات التي نعرفها اليوم في عالم العلم والمعرفة، لانه اولاً لا يريد ان يذهب بعيداً في اعماق الافكار الفلسفية والمدارس الفلسفية القديمة والحديثة والخصومات والمجادلات الكلامية بين علماء الفلسفة الذين يحاول كل منهم ان يبني حياته ويهدم بناء غيره، وثانياً لانه ابن بيئة ثقافية ارتضى ان يكون وسطاً في ثقافته الواقعية، وكان من مجموع هذه الثقافة ان حمل افكاراً في هذه الحياة، في بناء ونقد هذه الحياة، على وفق تصوره الفلسفي :

١ ـ هو رجل يبني حياته على العلم وثقافة الواقع، لكن هذا العلم لا يجعله ينزوي في الحياة ولا سيما وهو طبيب مختص بالتأهيل الطبي، والتأهيل الطبي يحتاج الى قراءة افكار الحياة، الجغرافية، التاريخ، الفلسفة، الفقه، أي قراءة تلك العلوم التي تبصر الطبيب بما

يحيطه وما يحيط ابعاد مهنته . .

٢ ـ يحب الحياة، في مباهجها ومسراتها، لكن ذلك لا يجعله ينغمس في ملذاتها، اوينسى انه ابن وسط اخلاقي ، فاقام الحدود على مباهجه والتقاليد والاعراف .

٣ ـ يفلسف حياته كثيراً، ولا سيما عندما تتأزم حوله المشاكل والمحن والمصائب وتعسر به أموره، فلا يشتط ولا يقلق، وانما ينتظر اليسر القادم (ان بعد العسر يسرا) هي نظرته التفاؤلية الى الحياة، صدقتها ايامه في تجاربه (وعسى ان تكرهوا شيئاً . . .) هي نظرته القائمة على (الطبيعة الثابتة) في الانسان، فالانسان الشرير شرير والانسان الخير خير، لكنه مع هذا يتساءل، لماذا لا ينمي الشرير عنصر الخير فيه ويقضي على (الجرثومة الطبيعية) فيه . . ؟

٤ ـ تصيبه الحيرة فيما اذا نظر الى هذا الكون الفسيح ، يبدأ اولاً بالتساؤل، ويصمت، ويهتز، لكنه لا يصل الى نقطة الشك، فهو مؤمن . . لكن ايمانه قائم على سلسلة من الاسئلة الفلسفية : هل توجد حياة على النجوم، كيف نظم الكون، هل الخلق بني في ستة ايام، فكيف كان قبل ذلك، هل كما وصفه ابن سينا وابن النفيس : بأن السديم عبر ملايين السنين تكاثف وتحجر ومن ثم اصبحت الارض، وكيف جاء الانسان (وهكذا يعود راجي حيران يتساءل) في حلقة مفرغة، هل هي سنة التطور التي نادى بها دارون ، أم ان هذا الانسان

من بذرة آدم وحواء، ثم يمر على العلماء، والفلاسفة العرب والغربيين، واخيراً يلتجيء الى ذاته ويقول انا مؤمن. !

٥ - وفي نظرية الاخلاق ظل في شبابه يتساءل: كيف تتكون الاخلاق، من الوراثة أم الطبيعة، لماذا هذا الانسان شجاع وذاك جبان، هذا كريم وأخوه بخيل، هذا فاضل والآخر مبتذل، لكنه في حقبته الاخيرة توصل الى ان للوراثة الدور الاكبر في تحديد الاخلاق، وبعد ذلك يأتي دور البيئة، من العائلة، الحي، الشارع، الروضة، المدرسة، الاقارب، الاصدقاء، وحيث يرى ذلك جلياً في مختبره اليومي، فانه دعا في بحوثه الى الاهتمام بصحة الام والاب والاهتمام بتهيئة البيئة الصالحة، ابتداء بالعائلة لانها منطلق اخلاق الفرد، ومن خلال تحديد سلوكية العائلة تحدد اخلاق المجتمع، ذلك ان الانسان أشبه بالنبتة. . !

افكاره بسيطة، هي بلا شك افكار الطيبين المتفائلين بهذه الحياة، افكار من يحرق الشمعة ولا يلعن الظلام، او افكار الذين يدعون الى (الخير العام) بدون جزاء طبقاً للحديث الشريف: (اصنع المعروف لمن هو أهله ولمن ليس اهله، فأن أصبت أهله فقد اصبت أهله، وان لم تصب أهله فأنت من اهله). . هو من اولئك الذين يدعون الى ان الاصلاح وسيلة في تهذيب النفوس وقتل الأثرة، فلا يتعدى حدود الاصلاح ولا يتعدى حدود القول المأثور ولا يتعدى

اخلاق العامة في تقاليد المأثور . . !

قراءاته :

ولا بد انه في هذه الافكار كان مزيجاً لقراءات شتى منذ طفولته، او لعله كان في هذه الافكار متأثراً في جزء منها بكتب قرأها في شبابه، او مازال. . واظهرت لي افكاره انه كان يقرأ قصص (المياسة والمقداد) وسيرة بني هلال بكاملها، وهذه القصص قرأها في السادس الابتدائي، لأن جزءاً من ابطالها ما زال مترسباً في اعماقه وتصرفاته، ولأن ابطال هذه القصص لا يدغدغون الا قلب ابن الحادية او الثانية عشرة وأرشد نفسه الى قراءة كتاب (محمد) لهيكل، وكتب عن الخلفاء الراشدين وهو ما زال في مرحلة الدراسة المتوسطة، وفي الثانوية انفسحت امامه فرص جيدة لقراءة القصص المترجمة لتولستوي (البعث وغيرها) وبلزاك وهمنغواي (في قصصه المشهورة) وما زالت مكتبته تحتفظ ببعض هذه القصص، وكان عندما ينتهي من قراءة قصة من هذه القصص المترجمة يقرأ عنها نقداً في مجلة (الآداب) او (الاديب) البيروتيتين، او في كتب نقدية خاصة بالرواية، وكادت تكتمل عنده الاداة الروائية لولا انصرافه الى هموم ادبية اخرى، وهو الى الآن يتذكر ابطال تلك القصص، والمغامرات والمخاطر التي تعرضوا لها، ويتذكر افكارهم، وكان يحذر من بعضها لانها تمثل بيئات اخرى واجواء

اجتماعية هي ليست اجواؤه في الدين والاخلاق، وبين القصص والروايات كان يقرأ الشعر ويحفظ الكثير منه ولا سيما كان يغريه الشعر السياسي عند الرصافي وتعصب للرصافي لانه كان يجد فيه الوطن والفقر متلازمين، ونشأ راجي وطنياً على طريقة الرصافي ثم على طريقة نفسه في ما بعد، ومازالت دواوين الزهاوي وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد الصافي النجفي وعدنان الراوي تذكره في مكتبته ايام صبا العنفوان، كان يقرأ في الشعر والحكمة التي تؤجج فيه حماسته الى الحياة الجديدة، ولا يقرأ القصص والروايات الا تلك التي تحث على الكفاح من أجل لقمة شريفة او وطن متحرر او انسان يبشر بالبطولة، ومن هذه الكتب وغيرها استمد طاقته التعبيرية في افكاره، حتى بات في المتوسطة يكتب مقالة صغيرة تتجاوز حدود الطالب التقليدي، حتى بات زملاؤه من الطلبة يشككون بقدرته (الانشائية) وان وراء هذه القدرة شخصاً آخر، وزاد من هذه الشكوك تلك الدراسة التي كتبها راجي حول (شاعرية الرصافي) بخمسين صفحة، لكن ممدوح الآلوسي مدرسه في العربية قال للطلبة: (وتلك قدرة راجي..) لأن الآلوسي اختبره مرات واستمع اليه مرات ورأى فيه الافكار اكبر من الكتابة ورأى فيه الكتابة أصغر من طموحه الثقافي، وقال له ذات صيف: (انت يا راجي ستصبح بعد عشر سنوات مؤلفاً علمياً مرموقاً..) واذا نبوءته تتحقق فيكتب راجي مؤلفاً علمياً في مقالة علمية حققت شهرة نسبية

* * *

وكبر الآن راجي وكبرت احلامه وعليه ان يقرأ الحكمة بغير نفس، ويرى في عينه الشعر على غير ما كان يراه في شبابه، تبدلت مفاهيمه وتبدلت معها أذواقه واندفاعاته، واتجه كلياً الى العلم، حتى هذا الادب الذي يقرأه لا بد انه يقترب الى العلم في باب من أبوابه، لقد خفت عواطفه الرومانسية وحلت في قلبه العواطف العقلية الصرف او المنطقية التي تنظر الى الدنيا من منظار الرقم والعدد والتناسب الاحصائي والتفاعل الفيزيائي لان هذه النظرة تتيح له ان يكتمل في اختصاصه الطبي، ان يكتمل في عقل علمي بمعاناة. . لكن هل يقرأ، ومتى يقرأ. . ؟

أنا أشبهه الآن بقطعة الثلج التي ما ان تخرج من المجمدة حتى تتلقفها الايدي، تعطي البرودة لمن يمسكها ولكن تضمر مع استمرار الوقت، وهكذا فانه من الصباح الى المساء تطوقه المسؤوليات من جميع الجهات، عدا هموم بيته واسرته واولاده، أي ان دماغه يعمل حتى في المنام، ومع هذا فانه يقرأ، وقد يسحب الليل كله الى قلبه كي يعمل نابضاً في القراءة، لان راجياً ما نام ليلة الا وكتاب منشور على وسادته، وما صحا الا ومشروع كتابة عالق في عيونه بقي من ليل ماض، هكذا

يغذي عقله ونواميسه بالجهد المضاف وبالمعاناة المضافة . .

لكن ماذا يقرأ . . ؟

وفجأة وجدت نفسي في بيته . .

عالم قائم بذاته :

وأهم ما يشغلني في بيته ، مكتبته ، او تلك الكتب التي تنسى فيها العوالم الصغيرة لتبدأ رحلة الى عالم قائم بذاته ، الحياة ، عالم كبير من الحزن والبهجة والسؤال والجواب عن طبيعة هذه الحياة ، ولا يمكنك ان تمضي برحلتك في هذا العالم الى نهايته ، فأنت تحتاج ، الى زمان الى مسجل آلي (كومبيوتر) حتى تقف على الرموز الحقيقية في هذه المكتبة ، حتى تحقق متعتك في عالم بدا وكأنه ملفوف في بطون الأسرار او كأن آدم هبط مرة واحدة في هذه البطون . .

* * *

لم تبق من كتبه التي قرأها في فتوته الا روايات وقصص قليلة وكتب اخلاقية ، وزعها هنا وهنا ، ودائماً يرمقها بعين الذكرى ، لأنها تؤرخ له شوقه الى القراءة الاولى ، يوم اشتراها من عرق يتصبب حزيناً على يديه ، يوم كان يقرأ بحدة ويجد بحدة ويعرق بحدة ، ويتطاير شرر الذكاء من رأسه وقلبه بحدة ، اما هذه السلالم التي تغص بالمجلدات فيبدأ تاريخها منذ تخرج في لندن طبيباً باحثاً في المستقبل في بداية الستينات . .



في حدائق القدس .. الخامس في اليسار

كانت طريقته في شراء الكتب، انه يبدأ يلج مكتبـات بغداد الكبيرة، المتحف، المجمع العلمي ، الاوقاف، فيفتش عن المصادر في فهارس هذه الدور، وعن المراجع التي لا تقبل الدحض، ويسجلها في جزازات صغيرة، ومنها يذهب الى قاسم الرجب الخبير الكتبي الاول في بغـدأد في بحر الستينـات، فاذا لم تتـوفر هـذه المصادر في مكتبة الرجب، فيطلبها راجي من الخارج، بالمراسلة او بوسيلة السائحين من اصدقائه مهما كانت اثمان الكتب والمصادر، فهو يعطي حصة للكتب من ماله (٢٠٪) سواء منها المطبوع او المخطوط، ويبدأ بالقرآن ثمين الطبع، متعدد الطبعات، حتى المترجم منه بالالمانية او الانكليـزية، وتفاسيره وشـروحاتـه المهذبـة على الجلود والاوراق التي لا تصيبهـا الامراض المعروفة في الكتب، والى جانب القرآن وضع كتب المذاهب الاخلاقية والفلسفات الخلقية عند العرب واليـونان والهنـد وشعوب الشرق الاخرى، وفي صفحات هذه الكتب وضع راجي (تأشيراته) الخاصة على بعض الفقرات، وهي الفقرات التي تتحدث عن نشأة هـذه المذاهب الاخـلاقية والخلقيـة، وفي رفوف خـاصة جمـع كتب (الحكمة) لنوابغ التراث العربي، وتشمل الفلسفة بعيونها الاصيلة، ورسالات العقل، وقصص الحضارات، أهم مجلدات الحضارات، ثم كتب الـطب القديمـة التي تبحث في النظريـات القديمـة في تـطبيب

الانسان، لكل شعب من الشعوب القديمة، لكل ملة ولكل فئة، وهي كتب نفيسة لم تتوفر في مكتبات الدور الكبيرة في بغداد، وبعد ذلك تنتقل الى سلالم الكتب الاجتماعية والادبية والنفسية وكتب الجنس والصحة النفسية وتاريخ الحكماء والقادة وتاريخ النظريات السياسية والاحزاب، انه بمجرد ان تمر على هذه السلالم تلمح وجه راجي التكريتي واضحاً في قسماته العلمية..!

* * *

وقد اعتاد الكتبيون ان يسموا المكتبة الفاخرة (حديقة غناء) ومكتبة راجي ليست حديقة غناء، وانما بستان كبيرة، فيها اصناف الثمر، كل صنف من تربة ومن ماء ومن فلاحة، وحالاً تعرف ان هذه البستان من تاريخ عريق، وحالاً تعرف ان ثمر البستان شهي كالتاريخ، فلا بد ان تشتهيه او يستدرجك الى الدهشة والاشتهاء، لكن مشكلة هذه البستان، او مشكلة راجي في هذه البستان المكتبة، ان قدرته الشرائية اكبر من قدرته القرائية، فلا مجال له في متابعة ما يشتري حتى تكدست الرفوف فوق الرفوف حتى صار للرف الواحد رف خلفي من الكتب، فكيف يمد يده لالتقاط المصادر، ثم مشكلة اخرى في هذه المكتبة، ان بعض زواره الى بيته يثقلون عليه وقته في المطالعة، فلا يتركون له فسحة يتنفس فيها رغبته في تصفح الكتب الجديدة، وفي كتابة بحث تطلبه جامعة من جامعات العرب، وهو



يعمد امام بعض هؤلاء الى فتح الكتاب مبتدئاً يقرأ، والى فتح غطاء القلم مبتدئاً يكتب، او ربما يحمل الكتاب بيده ويتأبط الاوراق، موحياً لهؤلاء بأنه الآن مهيأ للكتابة، لكنهم لا يشعرون، فهم يغطون في كلام معاد، وهو مضطر لأن يجاملهم في مجاملات وكلام معاد. . !

ومشكلة ثالثة في مكتبته، اذ اني وجدت تزاوجاً وتنوعاً في رفوف الكتب، فثمة كتب جاءت عن طريق الخطأ وحشرت في غير امكنتها، ولا سيما عندما تضيق عائلته به وبكتبه ذرعاً، وباحتجاج عفوي او مقصود يحملون مجاميع الكتب التي تجمعت خلال اسبوع او شهر في غرف النوم والطعام التي جاء بها راجي من مكتبات الارض، فتجد طريقها الى رفوف مكتبته كيفما اتفق، وهكذا يحدث الارتباك، واظن ان الارتباك سيصير وبالاً على مكتبته ان لم يبادر الى شراء (كومبيوتر) لتسجيل الكتب وترقيمها وترميزها لتحقق له غرضه العلمي، مادام هوالآن في عز طاقته البشرية!

انه من شوقه للكتاب بات ولهاناً في شؤونه، انه لا يحزن او يتألم لفقدان مال كثير او تلف بدلة عزيزة عليه او ضياع حاجة منه ذات قيمة مالية او ذهبية كبيرة، بقدر حزنه وألمه لفقدان كتاب يعتز به، ثم هو لا يتردد ابداً بالمطالبة بالكتب التي يعيرها الى اصدقائه، فقد ضاعت منه كتب وكتب باسم صيغ الاعارة، حتى وان قيل عنه بأنه البخيل في الكتب. . !

* * *

وفي مكتبته (أرشيفه الخاص) هو من نتاج الذكريات، بعضه رسائل من علماء طب اجانب وعرب، وتحتوي على اسرار الكتابة الطبية او البحث عن مصدر لم يتسن لصاحب الرسالة الحصول عليه في بلده ويطلب من راجي العثور عليه في مكتبته أو في احدى مكتبات العراق القديمة، وفي هذه الرسائل طرائف طبية وتوقعات طبية لو ألفها راجي في كتاب لخدم الطب العصري، لكن رسائله كشأن صوره، مبعثرة في تواريخها وازمانها، والزمان صار فيه حلماً . .

منهجه :

وعندما تهدأ الدنيا من حوله يجلس بين الكتب يكتب في الفصول التي خطط لها من قبل، وفي منهج هو استنبطه بالتجربة، اذ لم يكن قد درس مناهج البحث في الاكاديميات العلمية، وقد حدث تغير كبير في منهجه منذ كتب الدراسة الاولى عن الشاعر الرصافي سنة ١٩٤٩، وكان قبل هذا التاريخ ينشيء انشاء ويكتب كتابة بدون منهج، أي بدون ان يراعي اهمية المصادر وتنقيتها واختيار الاجود منها، ودون ان يراعي التسلسل المنطقي للافكار والآراء والحوادث والتقديم والتأخير وتقديم الأهم على المهم، وحتى كتبه الاولى التي الفها في بداية الستينات يراجعها الآن ليجد الفرصة لاعادة كتابتها من جديد على وفق الاسلوب العلمي المعاصر، ومادامت اكثر كتبه تبحث في العلم، فان اسلوب العلم يتغير من فترة الى اخرى، وراجي يرى انه لا بد ان

يتطور مع تطور هذا الاسلوب، ويتطور ايضاً منهجه مع هذه التغيرات العلمية، وفعلاً باشر باعادة كتابة بعض كتبه وطبعها. . !

محاضراته:

وقد تعرفه اوساط بأنه محاضر اكثر مما تعرفه مؤلفاً، لكثرة ما يذاع له من محاضرات، وما ينشر له من فصول محاضراته في الصحف والمجلات والحوليات، هو محاضر من طراز اكاديمي، بل يتجاوز هذا الاكاديمي، في البشاشة وحسن الاداء، وضرب الامثال، وتدفق البديهة والسيطرة على العيون والقلوب واكتشاف القلوب، وتقديم الاجود والغريب وما لا يقال ويعاد في الكتب والمصادر، حتى بات لا يخلو بين اسبوع وآخر، من دعوة توجه اليه لالقاء محاضرة في علم من علوم الطب او في تراث من تراث الطب. .

ومنذ بداية الستينات القى عشرات المحاضرات في عناوين تضطرك لان تصغي الى محتواها ومضامينها، من (انضغاط العصب الوسطي في اليد) حيث القاها سنة ١٩٦٢ في الجمعية الطبية العراقية الى (العلاقة بين الادارة العسكرية والمدنية في العراق الحديث) حيث القاها سنة ١٩٨٧ الى المركز القومي للاستشارات والتطوير، وكل محاضرة من محاضراته تصلح ان تكون كتاباً مستقلاً بفكره ومنهجه وعلمه، لأنه في هذه المحاضرة يختصر الاسلوب ويختصر الفكرة ثم

يختصر علم الفكرة، واذا هذه المحاضرات (لو رتبت اسبابها ونتائجها) موسوعة في امراض الامس واليوم، تقرأ فيها امراض المفاصل والرأس والقلب والنفس، وتقرأ معها تجربة العلاج، وبأية طريقة، وتتعرف من خلالها على تجارب الطب في العالم، وعلى خرائط الادوية وانواع العقار، وعلى خرائط علماء العرب في تجاربهم، وعلى جراحة الحرب في الفتوح الاسلامية والحروب الحديثة، كل ذلك يتم عبر اسلوب لا هو بالصحفي السائح ولا هو بالعلمي الجامد جمود القديم. وانما بنبرة علمية في اطار ادبي، وانما رأى ان الاسلوب (الوسط) هو خير الاساليب في تثقيف الطالب والمتعلم والمختص، أي انه باسلوبه يتوجه الى الاكثرية من القراء، لأنه هو من الاكثرية..!

* * *

وكان اسلوبه مثار نقاش، في المتوسطة منح عليه جائزة في سنة ١٩٤٧ وأزداد الاعجاب به في الثانوية حتى منحته الادارة جائزة في سنة ١٩٥٠، ولما صار اسلوبه يثري الطب ويبدع في الطب قلدته الجمعية الطبية العراقية وساماً رفيعاً في سنة ١٩٨٤، ووساماً من الجمعيات العلمية العراقية في سنة ١٩٨٥، ووساماً من نقابة الاطباء في سنة ١٩٨٧ ووساماً من اتحاد المؤرخين العرب، لكن خير هذه الاوسمة هو وسام الجمهور، جمهور يقرأ وجمهور يكتب، هذا الجمهور الذي وجد في راجي، قلماً طبياً يذيع الحقائق بلا منة، وينشر العلم بلا أبهة



في المؤتمر الطبي في القدس سنة ١٩٦٤ ويبدو : الثاني من اليسار

وينتصر للحق بلا رياء، واظن ان راجياً كان مستحقاً لهذا الوسام وغيره لأنه منذ نشأ طبيباً اتخذ من وصية ذي الاصبع العدواني لأبنه منهجاً في الحياة: (... ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، واكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، وأسمح بمالك، وأحم حريمك واعزز جارك، وأعن من استعان بك....) وأظن انه منذ طفولته كان جواداً في نفسه، يكرم ويوفي بالعهد، متمثلاً بقول زهير بن ابي سلمى:

ومن يكن ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذماً عليه ويندم

■ في منظار طبيب ..

.. حتى اذا فرغ من معالجة مرضاه سالته :

س - هل هناك فرق بين معالجتك لطفل من اطفالك وانسان اخر ..؟

ج - نعم لأني اترك معالجة اطفالي لغيري ، وغالبا ماينال الانسان الاخر اكثر اهتماما مني من اطفالي ..

س - ماهي نقاط ضعفك ..؟

ج - ثقتي السريعة بمن حولي ..

س - واين تكمن قوتك ..؟

ج - في دفاعي عن الحق والحقيقة ..

س - هل الاطباء يؤمنون بالحظ ..؟

ج - نعم ، في الغالب ..

س - هل يستطيع الاطباء تقدير اعمارهم ..؟

ج - نعم واعمار غيرهم ..

س - هل تؤمن بالسحر ..؟

ج - وهل استطاع علي الوردي ان يفسر ظاهرة السحر !

س - من هم خصومك ..؟

ج - الذين يكرهون الحقيقة والصراحة في المنطق ، والمنافقون

س - يقال ان الاطباء يحبون الدنيا اكثر من غيرهم ..؟

ج - وهل الصحفيون يحبون الأخرة اكثر من غيرهم !

س - كيف تناقش قول بعضهم : ان المراة شر لابد منه ..؟

ج - ان كانت المراة فاضلة رفرفت السعادة على العائلة ، وان كانت شريرة اصبح الزوج فيلسوفا !

س - هل تمتلك حدسا ..؟

ج - نعم في اغلب الاحيان ..

س - ما العنصرية ..؟

ج - مدمرة !

س - من اي عضو في الانسان يصدر الشر ..؟

ج - من اصغريه ، قلبه ولسانه !

س - هل العشق مرض ..؟

ج - نعم ودائما !

س - الصفة الغالبة على كبار السن : اليأس ..؟

ج - لانها غروب شمس الحياة ..

س - اي المرضى اقرب اليك ..؟

ج - الاكثر صبرا وتفاؤلا مع الحياة ..

■ التلفزيون . . !

لست من هواة التلفزيون . . والى وقت قريب كنت من أشد المنتقدين لبرامج التلفزيون، اما في الفترة الاخيرة فقد حدث تحول الى حد ما في هذه البرامج ، سواء في القناة الاولى او الثانية . . ان العراق اول بلد عربي ادخل التلفزيون الى المشاهدين، لكن يحز في النفس ان نجد الاقطار العربية الاخرى التي نفوقها قدرات وامكانات قد تجاوزتنا في المناهج والبرامج والمسرحيات والحلقات الدراسية . . . التلفزيون مدرسة او جامعة وربما كان أهم من ذلك لانه يدخل كل بيت ويخاطب جميع الناس ولذا على المشرفين ان يهتموا بهذا الجانب الثقافي التربوي . . . . نلاحظ مثلاً في مناهج الدول الاخرى، انه عندما تحدث مشكلة دولية في أي مكان في العالم تعقد من أجلها ندوات مباشرة ويستدعى لها خبراء المنطقة ويدخلون في حوار ومناقشات مفتوحة امام الجمهور، كل يعطي آراءه وتوقعاته في تلك المشكلة، ونجد العالم مشدوداً اليهم . . . ألاحظ في الفترة الاخيرة زيادة الحلقات الثقافية وهذا شيء حسن وكذلك الحلقات العلمية، وأرى انه لا بد من اجراء تغيير في توقيتات البرامج ولا سيما اوقات البرامج الزراعية والصناعية والمرورية حتى يتسنى للمواطن المعني الاستفادة منها . . علينا ان نقدم الشيء الصحيح وليس السهل . . . .

[من رسائل راجي التكريتي الى المطبعي]

الفصـــل الرابـــع

في عيادته . . طبيب مثالي



في عيادته :

.. وآثرت هذه المرة ان انتقل الى عيادته الخاصة، في يوم كان راجي التكريتي يعد دراسة مقارنة بين الطب البابلي والطب الاسلامي، وفضلت ان يكون دوري في هذه العيادة مراقباً وباحثاً اجتماعياً، يراقب راجياً في (سلوكه المهني) ويبحث في طبيعة سلوكه المهني، ولا سيما بعد ان وجدته قد أضاف الى دراسته المقارنة وصايا اخلاقية تحث الاطباء على (ممارسة الفضيلة) في عياداتهم، معتبراً ان السلوك الانساني يجب ان يرتكز على قاعدة من الفضائل العامة، وحب الخير للجميع والامانة المطلقة مع الآخرين والصدق مع النفس والبعد كل البعد عن الانانية الفردية، والمصلحة الذاتية، وهنا في عيادته، بله الطبيب في عيادته يظهر على مادته الاولى، حبه للدنيا، صراعه مع هذه الدنيا، غرائزه الروحية والمادية، صراعه مع المرض والمرضى، فنونه في اكتشاف الانفس، يظهر امام ذلك الشره الذي يمتص عواطف المريض وينخر في عظامه ويجعل من عيادته سوقاً للتجارة الحرام، او ذلك الانسان الاليف الذي يسخر العلم في اختبار الارادة الانسانية لمرتقاها الاعلى والاجمل، هنا كان راجي التكريتي، او كان خلقه من الصنف الاول في قول الفيلسوف العربي محيي الدين بن عربي عندما قال: (والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون الا بالرياضة والاجتهاد ومجاهدة النفس وتقويتها)، اذ كان لا يفتعل



الاول على اليسار .. في مؤتمر طب أمراض المفاصل الافريقي الآسيوي الاول ١٩٦٦

هذا الخلق لمجرد انه رأى مراقباً وباحثاً جاء يقارن بين ما يكتبه وما يفعله كاتب كراجي التكريتي، وانما كانت سريرته تسبقه الى الآخرين قبل هذه الدلائل والاعمال الظاهرة عليه. . !

متعاطفاً :

عندما عاد من لندن في سنة ١٩٦٢ لم يكن في باله انه يفتح (عيادة) وانما كانت تحدوه رغبته القديمة بالقراءة والتأليف والتحقيق، لكن ضغط المرضى ومراجعتهم الى داره (بعد ان اختبروه في احد مستشفيات بغداد ولأنه الطبيب الاول الذي عاد من انكلترا يحمل اختصاصه. .) حملوه على ان يكون له مقر عيادة ينال به رضا نفسه والناس، فكان في شارع الرشيد (ساحة الوثبة). . . ومنذ البداية كان متعاطفاً مع مرضاه بل منحازاً اليهم. . !

اولاً، لأنه نظم بطاقة للمرضى ووضع فيها الرموز والعلامات.

وثانياً لأنه ربط المريض بهذه البطاقة، حتى لا تذهب به العيادات الى الادوية المختلفة وحتى لا تبتزه اسواق الادوية التجارية. .

وثالثاً، كان يقول للمريض (كن في هذه الخارطة) اتبع هذه البطاقة، ولا يأخذك القلق، كان يبعث فيه النفس المطمئنة. .

ورابعاً، شد مرضاه الى (حنانه) والحنان نصف الشفاء، باعطائه

المريض عنوان عيادته، ورقم هاتفه، وأقام بينه وبينهم جسراً من ثقة الطب. .

* * *

في اسبوع تجمع في عيادته عدد كبير من بطاقات الاحوال المرضية في اختصاصه: (المفاصل ـ الظهار ـ التأهيل الطبي) وكان المرضى اجناسا من اجناس الناس، لم يخطيء راجي فيهم مرضا او تشخيصاً في مرض او تعييناً في وهم، وكان في حالة توقفه (في مرض ما) يذهب الى الطب القديم فيجد ضالته في أوصاف ابن سينا او الرازي او غيرهما، ويزداد خبرة، وكأنه أراد بمراجعته للطب القديم ان يقيم (مختبراً طبياً) في عيادته يجمع بين التراث والمعاصرة، هكذا كان يفكر في هذا المختبر منذ كان يدرس الطب في بغداد في الخمسينات، وكان ينوي ان يؤلف كتابه الاول في هذا المختبر، من البطاقات المتراكمة في خزانة عيادته (كما كان يفعل ذلك في الثلاثينات العالم النفسي فرويد وحينما الف كل كتبه من مصدر واحد هو بطاقات المرضى) لكن ما ذنب راجي وهذا العامل الذي استخدمه في عيادته قد اتلف آلاف البطاقات وآلاف الفهارس اثناء (تحويل) عيادته من شارع الرشيد الى شارع السعدون في العام ١٩٦٩ فأضاع عليه سجلاً علمياً أميناً لمسيرة المرضى الذين تعامل معهم في الاسابيع والاشهر الاولى بل في السنوات السبع في

عيادته الاولى . . !

* * *

لكن ذاكرته لا يصيبها البلى، لكن المرضى او اقرباء المرضى عندما يرونه في أية مناسبة يرون اطيافهم في ذاكرته، فقد اخبره صديقه (س،م،ش) ان ابنته وهي اول مريضة فحصها في عيادته، وكانت طفلة ابنة سنتين مصابة بشلل اطفال في احد الساقين، قد تماثلت للشفاء، واصبحت شابة ناضجة وجميلة وتزوجت وهي الان أم لطفلة جميلة. . . . وكذا (احمد. . . . .) الطفل ابن اخت (غ.ح) قد تخرج في الكلية الآن وهو في أتم الصحة، بعد ان عالجه راجي من شلل الاطفال ايضاً، هذا من بعضه. . وثمة مرضى عالجهم وهم يذكرونه، والآن ربما يعالج ابناءهم او احفادهم، انها لمسيرة الحياة، او السعادة التي تغمر راجياً عندما يرى مرضاه بعد حين من الدهر يمشون ايضاً بسعادة الحياة !

المضمون العقلي :

في قول للرازي بانه (يصعب في الطب كثيراً الوصول الى الحقيقة، وفن الطب كما نجده في الكتب أقل شأناً من الخبرة العملية التي يحصل عليها طبيب مفكر ماهر). . وهذا القول يضعنا امام أهم مشكلة يواجهها الطبيب، أي طبيب، في عيادته، وهي (اعطاء الحقيقة الكاملة) للمريض، بمصارحته في مرضه، او عدم اعطائه الحقيقة كلاً

او جزءاً، هل يواجه راجي التكريتي مريضه بحقيقة مرضه أم انه يخفي اسرار المرض، أم انه يتفنن في استخدام عقله فلا يقول الحقيقة حينما تضر المريض ولا يخفيها خشية الوقوع في الكذب التزاماً بالحديث الشريف (كبرت خيانة عند الله ان يأتمنك اخوك فهو لك مصدق وانت له كاذب) ولا سيما وهو طبيب، ويكون الالزام أدق بقول الحقيقة على الاطباء، انما هذا الالزام إلزامان على الطبيب المشهور، الاول بصفة الطبيب انساناً اخلاقياً بطبيعة مهمته، وثانيهما اصبح موضع ثقة وائتمان المريض، فلا مجال امامه للخداع والكذب، لكن في حياة راجي الطبيب، او أي طبيب ظروفاً دقيقة قد تلزمه السكوت، وان يقول قولاً لا يكشف الحقائق التي تخص مرضاه، لأنها قد تدخل في باب (الاسرار الطبية) الملزمة على الطبيب كتمانها وصيانتها، وكما هو معروف فان الكذب (خطأ كبير) من الوجهة الاخلاقية في جميع الشرائع الدينية والمفاهيم الفلسفية لكنه عندما يجد في قول الحقيقة تأثيراً سلبياً على مريضه، فانه يتجنبها في اسلوب وهي، بأسلوب يعوض عن الحقيقة، او يمارس اسلوب (السكوت والصمت) يرضي فيه نفس المريض . .

ان للمريض الحق في ان يعرف حالته المرضية وصحته ومستقبله وحياته، فاذا سأل هذا المريض (وهذا ما سمعته في عيادته) كان راجي يجيبه بشرح، لكن دون ان يدخل في تفاصيل مرضه التي قد تزيد من

وطأة مرضه، اما اذا سكت هذا المريض ولم يسأل فلم يندفع راجي او يتبرع بشرح الحقائق عن مرضه ومضاعفـاته، وفي بعض الاعـراف والمذاهب الفلسفية يتاح للاطباء والساسة (الكذب البرىء) في مواقف خاصة لتجاوز خطر يهدد المريض ان كان مريضاً.. وفي عيادته تراه يستخدم مع مرضاه قول الكلام على اللسان وهو يقصد كلاماً آخر، ويقلص الكلام بمضمون عقلي، ويرسل الاجوبة بنظرات فيها المعاني الواضحة، تسكت المريض (دون احراج) وتؤدي غرض مهنة الطب، واستخدامه للمضمـون العقلي كـان نتيجة قـراءاته الكثيـرة في علم النفس، في الحدس والتأويـل وقلب الحقائق بـلا ثغرات، والفـطنة والفذلكة، ونتيجة لاستقرائه مناهج اطباء العرب القدامى في (تكييف الحقائق وفق الامزجة البشرية) ونتيجة موهبته في حفظ الامثال والحكم والاشعار الحكمية وتوظيفها في حشو دماغ المريض من دون ان يقع في الكذب الصريح، او من دون ان يحدث شرخاً في صدقه.. وهيبته كطبيب..!

الاسرار الطبية:

وكان حريصاً في ان يكون كاتماً للاسرار الطبية والتـزاماتهـا، وهذه الاسرار كانت ومازالت من الامور المهمة في تحديد العلاقة بين الطبيب والمريض، وقـد حافظ راجي التكـريتي على هـذه الاسرار واحترمها، وتقيد باصولها، فازدادت ثقة المـرضى به، حتى عـرفت

عيادته بأنها كاتمة الاسرار، والسر الطبي هو كل ما يحصل عليه الطبيب من خلاصة المرض بوسيلة الاستماع الى قصة المريض والكشف عليه او بوسيلة التحريات الشعاعية او المختبريـة، بشكل مبـاشر او غـير مباشر، واذا أفشىٰ الطبيب هذا السر بالقول او الاشارة او الكتابة او المحاضرة ويـذكر فيهـا اسم المريض ومـرضه، فيحق للمـريض ان يقاضي الطبيب من خلال النقابة او القضاء، لكن راجياً واجه اكثر من معضلة في هذا السر الطبي (ولا سيما في هذا الظرف الراهن) وبشكل دقيق واجه تعارضاً بين مصلحة المريض (بالحفاظ عـلى سره) وبـين المصلحة العامة (التي ينبع منها التزامه الوطني) فاذا وجد ان المريض مصاب بمرض يؤثر على السلامة العامة فانه يضحي بالمصلحة الخاصة، ويخبر به الجهات المختصة، وكذا هو يدين الامراض المفتعلة، وهنـا يحدث (الحرج) بين التزام الطبيب المهني والتزامه القانوني والوطني، وفي جانب آخر ومن خلال تجاربـه رأى ان عملية السـر الطبي قـد ضعفت في الحقبة الاخيرة، كما ضعفت الروابط القديمة بين الطبيب والمريض، وذلك لأن بطاقة المريض (وفيها كل المعلومات) قد تتداول بـين الفراش والسكـرتيرة (في العيـادات الخاصـة) وبين الاضـابـير والسجلات ومأموري التسجيل والحفظ (في المستشفيات) اضافة الى ان الطبيب الحديث اصبح يعتمد كثيراً على (الكشوفات) المختبرية، مما

يضع المعلومات والاسرار امام اطلاع وانظار اكثر من جهة، اذ ذاك تضيع او تتوزع المسؤولية على جهات كثيرة، وفي عيادته كان يعمل بثقة عالية للحفاظ على قدسية مهنته من خلال توازنه الدقيق بين اهمية الحفاظ على الحق الشخصي وعدم تجاوز الحق العام..!

الحدس والتشخيص:

وحدسه في هذه العيادة من النباهة بحيث انه في النظرة الاولى يقول لك: (انت مريض) ولم يبالغ في حدسه ان قال: هذا مرضك من سبب كذا وكذا..) لأن الحدس صار فيه غريزة من غرائزه الطبية، وكأنه في يوم ما درس أصول الفراسة وتعلم في علم الفراسة التنبؤ وذكاء التنبؤ، والتنبؤ اساسه: قوة الملاحظة، هو قوي الملاحظة اذا اعطى حكماً في مرض، قوي النباهة اذا اعطى أمراً في علاج، وقوي البديهة اذا قدر المواقف، وهو صاحب تقدير وحاضر في تقديره على ماترويه سجلاته الطبية..!

اضافة الى ذلك، ان في راجي التكريتي ميزة نفسية مهمة وهي (قوة الحساسية) التي تلتقط الحياة الداخلية للمرضى المنبعثة من حركة الجسد، لقد وقع احد مرضاه في دهش غريب عندما قدر راجي درجة مرضه في أول لحظة، اذ وصلت بتقديره الى (٩٦٪) وقبل ان يطابقها المريض على النتائج الشعاعية، وكان مريضه (ع.ق.خ) قبل ذلك قد ابحر سنوات في بحور العيادات الطبية فما نال منها الا اللصقات

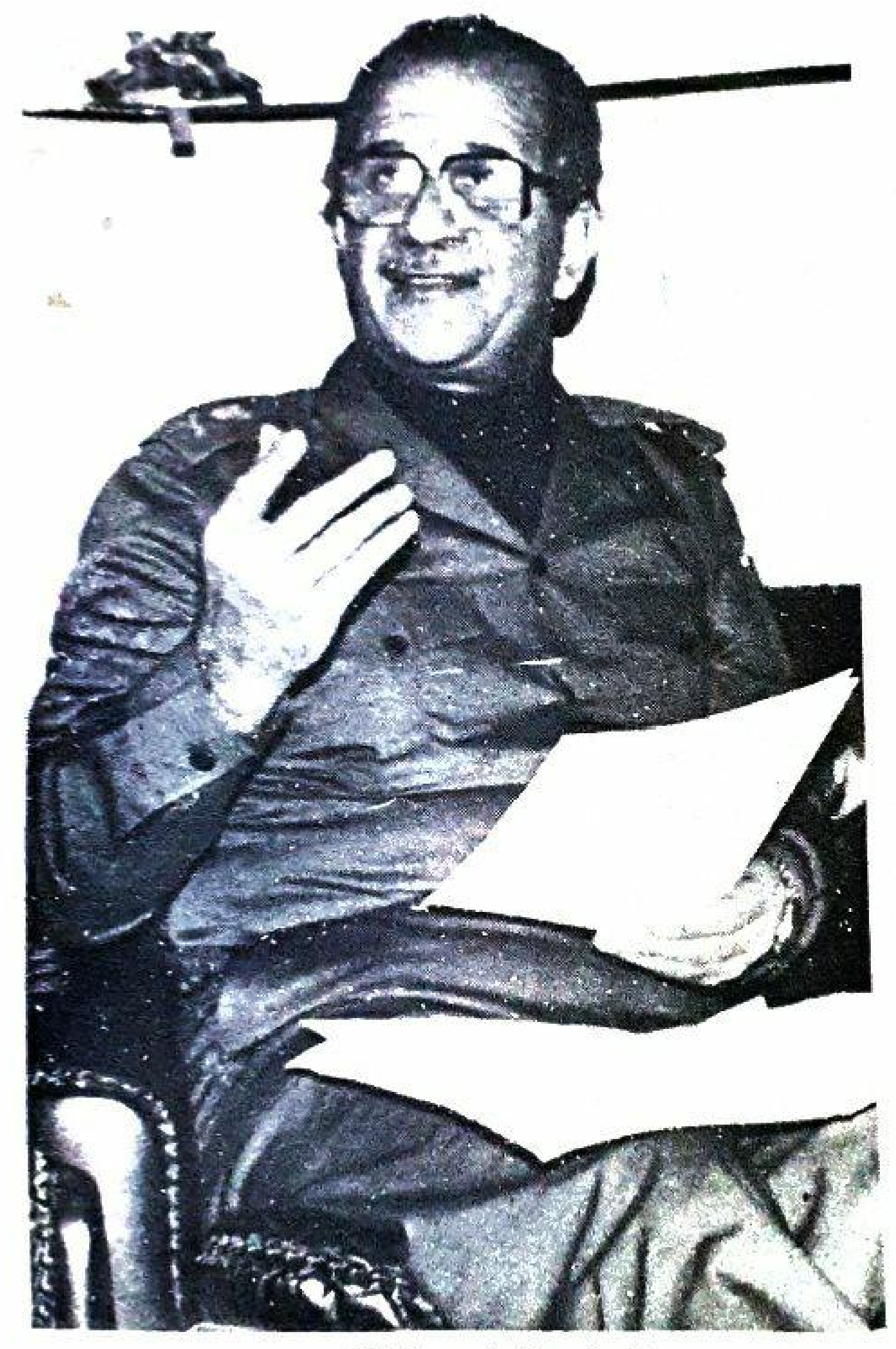
البيضاء والحمراء والصفراء، ولما غرق المريض في بهجة نفسية وحصل على العلاج المناسب اعفاه راجي من اجرة المعاينة لانه وجد مريضه من بيئة فلاحية لا يملك الا قوت يومه. . !

* * *

وأنا لا أشك، في ان هذه العوامل التي ولدت فيه (الفراسة الصائبة، يضاف اليها حساسيته المرهفة وبعض جاذبيات نفسية نشأت فيه بفطرة الخلق، هي كلها أعطت لراجي قوة (تشخيص) المرض في المرضى ويوم كان طالباً يزحف في المقاعد الطبية الاولى في الكليـة، وحينما تراكمت في عقله التجربة، وحينما تفاعل فيه العلم بالفحص اليـومي للحالات المـرضية المشابهة، وقـربه بـين أجواء المختبـرات الكيميائية، وحينما وقف على تاريخ مرضاه، متتبعاً، التحريات في هذا التاريخ، حينما مزج بين مواهب نفسـه ومواهب العلم، ارتقى فيـه ميزان التشخيص، اذ بات حضوره في المريض حضوراً يقيناً، وبات يـنـدر ان تأتي تحليـلاته للمـرض مخالفـة لما كـان يتوقعـه او ان هذه (التحليلات المختبرية) لم تكن لتشير الى ان تشخيص راجي كان مخالفاً لما وضعه ابتداء، وكثيراً ما كان يحدث خطأ في تشخيص الاشعة او المختبر ويقوم هـو يتصل هـاتفياً ويـدعو الى مـراجعة قـراءة الافلام وتصحيح الاخطاء. . !

وساعد راجي على هذه النباهة في تشخيص المرض، هو فسح

المجال امام المريض ليروي قصة مرضه دون ان يضايقه بالزمن، ربما تستغرق قصته ساعة واحدة، فاذا انتهى المريض من شرح حالاته يبدأ راجي بمراجعة اولياته في مرضه، ثم يبدأ بفحصه بدقة، فاذا ما انتهى من فحصه أصدر قراره الصحيح بيسر وسهولة حتى قبل ان تتكامل التحريات، لا بل ان اغلب الاحيان يستطيع ان يشخص حالة المريض في بداية دخوله العيادة من خلال مسير ووقوف المريض، ومن خلال سحنته البادية على وجهه، ومن خلال العلامات الظاهرية الاخرى، واذكر ان (ب. أ. ل) وهو من فئة الفنانين ساله: دكتور لماذا تعطي نتيجة حتمية، لماذا تقول انت تشفى ١٠٠٪ هل هذا علم أم جرأة، اجابه راجي (هوالله) أي ان الله يحضر في قلب راجي فيزيده حباً لمرضاه.. ولا ننسى بعد ذلك، ان راجياً يدخل المرضى في طقس من البهجة الروحية والنفسية، فيرسل اليهم امثالاً شعبية هي في خلاصتها أدعية غير مباشرة للشفاء، ويحكي لبعضهم قصصاً فولكلورية هي في نتائجها مهدئات للاعصاب، ويقول لبعضهم شعراً وربما يقرأ قصيدة ان وجد في هذه القصيدة ما يرضي نزعة الهيجان عند المريض، يقول هذه الفنون الثقافية بحسب أمزجة المرضى، كل له مقام في نفسه، يحكي للفلاح بلهجة الريف، ويداعب الحضري بمنزلة الحضر، ولذلك انت ترى مرضى منذ عشرين سنة او تزيد يجمعون في قلوبهم ذكريات راجي التكريتي وكأنهم يجمعون ذكريات الطبيب الاجتماعي المثالي..!



الدواء .. الدواء .. ياسادة !

فحص المرأة :

والنساء لهن حصة في هذه العيادة، ودون (حرج) يقوم بفحص الشريات والفقيرات، ودون حرج يسلسل المواقف لهن ويشخص امراضهن، مفنداً بذلك قول من يعتقد (عدم جواز فحص الرجل للمرأة) فقد أباح الاسلام فحص المرأة للرجل ومعالجته سواء أكانت هذه المرأة طبيبة أم ممرضة ام عاملة مختبر، كذلك اباح الاسلام فحص الرجل للمرأة، وأباح الفقه الاسلامي الاطلاع على عورة الواحد للآخر في الطب من غير حرج ديني او سلوكي او اخلاقي وحتى هذه الشرائع الدينية العربية قبل الاسلام قد أمرت بهذا الفحص المشترك بين الجنسين طبياً . .

هو في عيادته لا يتعرض الى أي احراج في هذا الشأن، لأن اختصاصه امراض المفاصل والظهار، وفي هذه الامراض لا توجد علاقة مباشرة بفحص المرأة داخلياً، وانما يكتفي راجي بتتبع تاريخ المرض بشكل تفصيلي في ما يخص آلامها ومشاكل الظهر والحمل والولادة وحبوب منع الحمل، فاذا ظهرت نتيجة فحصه الظاهري او المختبري بان الامراض تخص امراضاً نسائية فانه لا يتردد باحالة هذه المرأة المريضة الى اختصاصية بالامراض النسائية، وكثيراً ما يحدث ذلك في عيادته، عندما يعتقد ان لوجع الظهر علاقة بالرحم او الطمث، فيحيل هذه المريضة الى تلك الطبيبة الخبيرة بالتجربة التي

ستزوده برأي ناضج يرى فيه خيطاً متصلاً باختصاصه، بأفضل مما هو قام بهذا الفحص. . وهو بعيد عن (اختصاص النسائية). . !

* * *

هو محرج نفسياً واجتماعياً في الامراض النسائية اكثر مما يحرج دينياً او اخلاقياً (علماً، انه في الغرب يقوم الطبيب بفحص المريضة كاملاً، ولا يسبب ذلك لها احراجاً) وهذا مثلاً ينطبق عندما يكتشف راجي ان سبب ألم ظهر المرأة هو ورم خبيث في الاحشاء الداخلية يسبب لها الألم فحالاً يحيل هذه المرأة الى الجراح الاختصاصي . . او الى طبيب الجملة العصبية اذا كان هذا الالم له علاقة بالامراض العصبية. .

وثمة ناحية اخرى في عيادته بالغة الحساسية في حياة المرأة الاجتماعية، فبين حين وآخر تراجعه مريضات (يتعاطين) حبوب منع الحمل، وهذه الحبوب (كما هو معروف طبياً) تكون أحد اسباب اوجاع المفاصل او الظهار، ويقوم راجي (باسلوب مثالي) يشرح للمرأة ولزوجها ان هذه الحبوب تزيد من وطأة المرض، طبياً مرة، اخلاقياً اخرى، وفي مسألة (الاجهاض) لا يذكر ان راجياً اعطى تقريراً يحبذ الاجهاض، رغم (التماسات) جاءته من اصدقائه وغير اصدقائه، لانه يعتقد ان في عملية الاجهاض ازهاقاً لروح انسان، ومن يراجع آراء الفقهاء يجد اختلافاً في ما بينهم حول سؤال (متى تبدأ الحياة ومتى

تنتهي)، فبعض يرى ان الحياة تبدأ منذ ان تتم عملية الاخصاب، وبعض يقول بعد الاربعين يوماً . .

وبعض يقول: بعد الشهر الثالث، اما راجي فبعد تغلغله في التراث الطبي، العربي الاسلامي وبعد اختباره الحياة الطبية الحديثة في المستشفيات العربية والغربية، وجد: (ان الحياة تبدأ عندما تشعر المرأة بانها حامل)، ولذلك يحاول جاهداً ان يعالجها بمختلف الاساليب الطبية والحبوب غير المؤثرة على صحة او حياة الطفل. . حتى هذه حبوب منع الحمل او اساليب منع الحمل فان له فيها (وجهة نظر) هي ليست اخلاقية على كل حال، وانما هو يسميها وجهة نظر وطنية، في زيادة عدد السكان، وكان اخبرني قبل سنتين، ان له في هذا المجال الحيوي دراسات واقتراحات وجداول وبيانات واحصاءات، ربما قد تكون (تقريراً) علمياً في هذه المسألة المهمة في زمن الحروب. . !

* * *

ومشاكل الجنس لا يعالجها في عيادته لا مالها ربط بين أوجاع الظهر وما ينتج عنها من (ضعف) للرجل او للمرأة، وعندئذ يعطي راجي التكريتي ارشاداته في هذا المجال، في اطار الشرع والسلوك والاخلاق العامة، وفي مثل هذه الحالات لا يجد راجي مانعاً في ان ينصح الزوج او الزوجة باستعمال (المانع الغلافي) لمنع الحمل اذا كانت المرأة مصابة بمرض ما، او يعطي الاسناد المعنوي وبعض (المقويات)

للرجل الذي قد تساعده في انجاز واجباته الزوجية ان كـان مصاباً بضعف ما، اما في كتبه فقد عالج اكثر مشاكل الجنس بوعي الطبيب المختص بهذا الاختصاص، عالج المباضعة الجنسية والبرودة الجنسية عند المرأة وزرق (مادة النيوستكمين) التي أبدع في اوصافها، وكـان اخلاقياً عندما درس الجنس بايراده الآيـات وفقرات من الاحـاديث الشريفة، ودرسه بحسن تصرف الطبيب الاجتماعي الذي يراعي في مثل مجتمعنا نظرية (الحرام والحلال) في تقديم الوصايا او المحذورات، لأنه يعتقد ان أهم واجب يقوم به الطبيب هو (عمل الاحسن) وذلك باعطائه أفضل ما يمكن التوصل اليه من الحقـائق الثابتـة والتقاريـر الصحيحة حول الحالة المرضية والانذار في المستقبل من غير الاعتماد على التخمين. . !

اخلاق الاطباء:

واذكر ان حديثاً دار في احدى جلساتي في عيادة راجي التكريتي، عن اخلاق الاطباء، وهل هم (رسل الانسانية) بمثل ما ذهب اصطلاح حكماء الاغريق، ام انهم او نصفهم او اكثرهم يميل الى الجشع والأثرة وحب المال، كان راجي يرد الجميع، بأنه على الرغم من ان هنـاك ممارسات خاطئة وسلوكيات مدانة سواء أكان هذا في العيادات الخاصة أم في المستشفيـات الاهلية والحكـومية، الا ان هـذه (الاخـطاء) في

الاطباء او في مهنة الطب لا تساوي سوى عشر من اخطاء أية مهنة اخرى في المجتمع، وراجي بالضرورة يدافع عن مهنته اولاً، ولأنه ثانياً ينظر الى هؤلاء الاطباء بالقياس الى نظرته للسلوكية العامة للمجتمع ولـذلك يصفهم بـأنهم (مثاليـون) وعلى درجـة عـاليـة من الـرفعـة والسمو..

* * *

والظاهر ان راجياً كان متأثراً، في ما اذا اراد ان يتحدث عن اخلاق الاطباء، بأقوال الفلاسفة في من (هو الطبيب المثالي).. الذي عليه ان يسيطر على غرائزه ويقضي على اطماعه وعلى مخاوفه وماديته، لكن هذا النموذج موجود بيننا، فمع انكاره لوجود هذا النموذج (الذي لا يتوفر الا في الكتب) الا انه يرجع الى شبيه ما كان يقوله في البداية عن تميز الطبيب عن غيره في المجتمع قائلاً: لكن طبيعة المهنة الطبية وحساسيتها وارتباطها بمشاعر وأحاسيس الناس، تجعل من أي خطأ يحدث فيها (خطأ كبيراً) يوسّع ويكبّر بالنسبة الى أي خطأ يقع في أية مهنة اخرى ويرى راجي ان الطبيب فرد من أفراد المجتمع، هو حاصل تربية الوراثة والبيئة، لكن هذا الفرد عندما تمرس في مهنة الطب كان عليه ان يكون مزيجاً يستمد قوامه من الصفات المثالية التي تقربه الى العلماء والفلاسفة ورجال الدين، ومن هذه الصفات التي يجدها واجبة

الوجوب، هي : ان يكون الطبيب معتدل القامة، متناسب الاعضاء، حسن الحديث صحيح الرأي، عفيفاً، شجاعاً، لا يحب المال، مالكاً لنفسه عند الغضب، ولا يكون بليداً، وهي الصفات التي كان ينادي بها أول مؤرخ وفيلسوف للطب (أبقراط) الذي نقل عنه كما اعتقد ابن ابي اصيبعة كل وصاياه في كتابه (عيون الانباء في طبقات الاطباء)، وهناك علماء طب في العصر الراهن لا يطلبون من الطبيب مثلما طلب منه ابقراط الاغريقي، وانما على الطبيب المعاصر واجب واحد، هو (العمل على ازالة آلام المريض، او على الاقل تخفيفها. .) اما راجي التكريتي فان (اخلاقه) في العيادة تنصب في حرصه على سمعة مهنته وما تتطلبها من علم وفن واجادة، وان يكون مواسياً لمرضاه، متبادلاً وأياهم الاحاسيس والمشاعر ليغدو بامكانه التأثير المباشر على عقلياتهم واقناعهم بيسر وسهولة للأخذ بنصائحه وارشاداته وتطبيق علاجه، وفي النزول من عيادته كان راجي ينقل لي رواية، من ان الخليفة المعتضد كان يحترم طبيبه ثابت بن قرة احتراماً بالغاً ويقال انه كان يمشي مع المعتضد في بستان الخليفة، وكان المعتضد متكئاً على يد طبيبه ثابت، فنثر يده من يد طبيبه وقال: يا أبا الحسن. . سهوت ووضعت يدي على يدك، فان العلماء يعلون ولا يعلون. . اذ ان راجياً بإيراده هذه الرواية اراد ان يترجم قولاً تاريخياً، في ان الطبيب اذا أزال ألماً من انسان معذب او قضى عليه، فان هذا وحده كفيل بوضع الاطباء في منازل المثالية الانسانية. . !

ظواهر نفسية :

لكنه هو لا يزيل الالم، في عيادته، وانما يزيـل المرض، حتى يقضي على مسببات الألم، وتصاحب هذا الألم ظواهر نفسية تثير قلقاً مستمراً في المريض، وهو يتعامل مع نوعين من هذه الظواهر، الاولى، الظواهر النفسية التي ترافق امراض المفاصل العضوية، وأغلبها مزمن تشغل ذهن المريض وعائلته وتسبب لهم ضجراً متواصلاً، ومنذ الخليقة كان الألم ظاهرة مزعجة، وان كان له فوائد (في رأي بعض العلماء) باعتباره صفارة انذار تنبه الشخص بأن بجسده خللاً ما، هنا يكون اهتمام راجي بالعلاج الرئيس نحو معالجة المرض العضوي، اكثر من اهتمامه بمعالجة (ألم النفس) اذ هو يعتقد ان معالجة الألم (لذات الألم) يشكل خللاً طبياً احياناً فان سكن الألم وحده وترك المريض بلا علاج جذري، فهذا المرض يستفحل تدريجياً دون ان يشعر به المريض.. وهناك العديد من الاطباء عندما يخطئون في تشخيص الامراض، فانهم يخففون آلام المرضى بالعقاقير او بالاسناد المعنوي، وهذه تكون لها مضار جانبية وتخريبية أشد وبالاً من المرض نفسه، راجي يتوصل الى معالجة الألم بالعلم والخبرة، فان لم يستطع ان يكتشف مقدرته في هذا العلاج أحال مريضه الى اختصاصي آخر يجد فيه حلاً لمريضه، أفضل مما هو يعبث بمريضه بتسكين ألمه او اشعاره بهدوء نسبي، فهذا العبث بمشاعر انسانية كان وما زال هـو اسلوب الاطباء الفاشلين الذين

وصفهم راجي، بـأنهم (اثريـاء بـلا حق) يـدنسـون شـرف المهنـة الانسانية.

اما النوع الثاني من هذه الظواهر النفسية التي يواجهها راجي في عيادته، هي (الظواهر العضوية) ذات الاسباب النفسية او (النفسية العضوية ـ سايكوسومتيك) وهي حالات تتكرر في عيادته، ولا سيما في ما يخص الجهاز الحركي، فهو لا يعطي حكماً مسبقاً على وجود مرض نفسي قبل ان يتأكد من الفحوصات المختبرية او السريرية، وكثيراً ما اعطى اطباء احكاماً عاجلة بوجود امراض نفسية (نتيجة لشكوكهم الاولية) وتبين في ما بعد ان وراء هذه الاحكام تكمن امراض خطرة حتى استفحل أمرها وتحولت الى مآس في حياة المرضى، وكان الاطباء الذين شخصوا تلك الامراض عرضة لاتهامات عديدة..

* * *

هو في عيادته يتبع النظرية التالية: (المرض في بدايتـه صعب التشخيص ولكنه سهل العلاج، وبعد تقدمه يغدو التشخيص سهلاً بينما علاجه صعب) ولذلـك يهتم راجي اهتمامـاً بـالغـاً بـوضـع الاحتمالات كافة في حالـة اجرائـه التشخيص التفريقي لـلامراض المحتملة، سواء تلك التي تصيب العمود الفقري او الجهاز الحركي بشكل عام، حيث قد تكون الاعراض المنعكسة على الجهاز الحركي متأتية من اعضاء واجهزة اخرى باطشة بالمعدة او الامعاء او القلب..

ولذلك ايضاً فانه يهيء نفسه تهيؤاً كاملاً في عملية التشخيص قبل ان يعطي حكماً سريعاً بأن اسباب هذا المرض او ذاك هي من هواجس نفسية او امراض نفسية. . وكما هو معروف، فان كسر الحلقة المغلقة بين الطبيب ومريضه لا يتم الا بثقافة الطبيب وسعة شخصيته ولباقته في الاقناع النفسي او العلمي، بدون هذا الافق تستبهم الحدود وتتضعضع الثقة فيما بين الطبيب والمريض ويبقى الطبيب راكداً يجتر زمناً عبثاً، بينما هذا المريض يذهب يبحث عن طب جديد وطبيب جديد، وفي وصية لأبقراط: اذا دعي الطبيب الى المريض فليقعد متربعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب. . لأن الاستماع بتأن يمنح علاجاً بتأن، ومن عالج بتأن يعيد للمريض توازنه النفسي والعضوي. . !

* * *

وهكذا رأيت راجياً التكريتي يستمع الى مرضاه بتأن، فيكسب ثقة مرضاه اولاً، ويصل (بنفس طويل) الى نفوسهم بسهولة ثانياً، واذا وصل الى نفوسهم منحوه الثقة، والثقة هي كلمة السر في حياة الاطباء الناجحين، ولا تولد الثقة الحقيقية بين المرضى والاطباء الا في اجواء العواطف الانسانية، فالعلم لا يكفي والمقدرة الطبية والجراحية تأتي في الدرجة الثانية، كنت اعرف الكثير من الاطباء والجراحين ممن اجتازوا مراحل علمية متقدمة، سواء في سني دراساتهم او بحصولهم

على اعلى درجات الاختصاص ولكنهم واجهوا فشلاً ذريعاً في عملهم الوظيفي او في عياداتهم الخاصة وكان السبب واضحاً، هو ان هؤلاء عاملوا مرضاهم وكأنهم احجار شطرنج ، او كائنات ضعيفة، مهملة، وهكذا غدت شبه قاعدة، ليس كل من يحمل (F.R.C.S) جراحاً، وليس كل من يحمل (M.R.C.p)طبيباً ناجحاً، وانما الشهادات هذه ما هي الا جواز مرور للحياة العملية . .

وحينما هبطت من سلم عيادته ادركت ان الناس في عيادات الاطباء لا تظلم عبثاً ولا تمدح عبثاً . . !



الثالث إلى اليسار وكان في مكة سنة ١٩٦٩

○ في ذكاء الناس .. !

حينما درس علم النفس كان (الذكاء) مادته الاولى ، فكان جدالنا :

س هل الذكاء وراثي ام قدرة ذاتية .. ؟
ج الذكاء وراثة يطور بالتنمية والصقل ..
س أيهما اكثر ذكاء : الكاتب ام القارىء .. ؟
ج الكاتب غالبا .
س أيهما اكثر ذكاء : الرجل ام المراة .. ؟
ج الرجل في الاكثر ..
س ماينمي الذكاء .. ؟
ج حرية التعبير والتوجيه السليم .
س مايقتل الذكاء .. ؟
ج كبت التفكير وحصر التعبير ..
س ماذا تقول في ذكاء الشرير .. ؟
ج ماساة .. !
س يقال ان الجنون نوع من الذكاء .. ؟
ج اغلب المجانين اذكياء .
س هل العبقرية مرحلة في الذكاء .. ؟
ج مرحلة متقدمة في الذكاء المستثمر .
س هل الذكاء درجات .. ؟
ج الذكاء درجات والغباء درجات

س عند مَن مِن الناس تتوفر الدرجات العليا في الذكاء .. ؟

ج عند المخترعين والمكتشفين ..

س ايهما اكثر ذكاء .. الطبيب أم الشاعر .. ؟

ج الطبيب والشاعر كلاهما يملك حظا جيدا في الذكاء ، واكثرهما ذكاء ربما كان الطبيب الشاعر .

س هل تختلف الشعوب في ذكائها .. ؟

ج بكل تاكيد نعم ..

س هل السياسة تنشط الذكاء .. ؟

ج السياسة تنشط الذكاء وربما اغتالته ..

س ما نوع ذكاء الانبياء .. ؟

ج من نوع العباقرة ..

س لمن تنحاز : الى ذكاء الفقير أم الى ذكاء الغني .. ؟

ج الى ذكاء الفقير في الغالب .

س هل نوع الغذاء له علاقة بالذكاء .. ؟

ج نعم انواع معينة في الاغذية وحسن تنظيمها تساعد في تنمية الذكاء .

س متى يموت الذكاء في الانسان .. ؟

ج عندما يغتال حرية التفكير والتعبير ..

س حدثنا عن ذكائك .. ؟

ج لاأستطيع أن احكم على درجة ذكائي ، وانما وظفت قدراتي العقلية في ما افاد حياتي وخير الناس ..

الدواء . . الدواء . . !

عزيزي الاستاذ المطبعي :

ولا بد ان تكون هناك ضوابط وسلوكية في وصف الدواء وطريقة أخذه. والدواء مهما كان نوعه هو سيف ذو حدين، بمقدار ما هو مفيد ورائع في عمليات العلاج والشفاء ولكن خطره بالقدر نفسه، ولذا يجب ان توازن وبدقة متناهية في كيفية وصف هذا الدواء او ذاك . .

نعم للطبيب الحق في اختيار الاسلوب في معالجة مرضاه وبهذا العقار او ذاك بشرط ان تكون هذه الطريقة في العلاج مبنية على أسس علمية صحيحة والمنطق العلمي بحيث لا يعرض مريضه الى الخطر حيث يوازن بين اخطار ومضاعفات المرض واخطار العلاج المتوقعة، فليس من المنطق العلمي ان تعالج حالة

مرضية خفيفة بأدوية معقدة ومجازفات غير محسوبة بحيث قد تؤدي الى مضاعفات اكثر خطورة من المرض نفسه، في حين اذا كان الألم شديداً والحالة خطرة وشبه ميؤوس منه فان للطبيب الحق الكامل ان يلجأ الى اعطاء أي عقار ينقذ حياته.

ومن ثم على الطبيب ان يعرف الافعال الجانبية للعقار وحالة المريض الصحية بالنسبة للامراض الاخرى فلا يجوز اعطاء عقار - مثلاً - في علاج مفاصل ولكنها تؤثر على المعدة او القلب او الضغط.. وانما ان يختار الدواء حتى وان كان أقل فاعلية ولكنه لا يؤثر على الاصابات الاخرى ان الافضل هو استعمال (العقار البسيط المتوفر ذي السعر المناسب وقليل المضاعفات)..

[من رسائل راجي التكريتي الى المطبعي]



يتحدث في مؤتمر طبي عربي

الفصل الخامس

دينامية الحركة في العمق الاجتماعي

. . وله ايضاً قدرة على (التنظيم) في ادارة الهيئة او في قراءة مستقبل الهيئة الاجتماعية، ولا سيما اذا كان الحكيم التكريتي يقود هذه الهيئة في الجمعيات الطبية وفي المؤتمرات الطبية. ونشأت موهبته في التنظيم من اجتماعاته، اذ هو لا يرى سعادته الا بين الناس، ولأنه الباحث كتابة وتأليفاً ومحاضرة، كان لا يتردد في ان يكون لموقفه في مهنة الطب تضحية وبذل، وهما شرطان في ان يكون ممثل الهيئة معبراً عن الاكثرية، أي ان اية هيئة لا ترى في ممثلها لساناً جريئاً وعقلاً جريئاً، هو ممثل طفيلي، لا يستطيع ان يحقق لها مشروع المستقبل، ثم الوعي السياسي، فراجي ابن تجربة سياسية وطنية وجد في (التنظيم) المهني ما يلبي احلامه الاولى في ان يرى الوطن ممتداً في عينيه وأعين الحالمين، فجدّ ان يكون ضميراً يقتحم حياة العامة، وجدّ ان يكون (معلماً ومتعلماً) في هذه الحياة، يعطي ويأخذ، يعطي وقتاً ويبدع في هذا الوقت، ويأخذ من الزمان عبرة او عبرتين، حتى يجدد الحياة في قلبه، واولئك عندما تتجدد الحياة في قلوبهم يدركون انهم جزء حيوي من تاريخ، حتى وان خسروا في اموالهم وطاقاتهم، حتى وان نبذوا اللذات المباحة، المهم انهم استجابوا فوراً، منذ ادركوا، الى نداء (الغريزة الاجتماعية) الدفينة في اعماقهم او في (لا شعورهم) وقدموا ما كان منسجماً وغرائزهم، وانه لو كان لنا ان نرجع الى جملة وثائقه الاجتماعية، لاستطعنا ان نراه، في ربع قرن، اسماً رفيعاً في قوائم

المؤتمرات الطبية، وصار اسمه محفوظاً بود عند علماء ومفكرين، و هيئات علمية، وفي جمعيات ما كانت اهدافها الا لنشر النبل الانساني، وترشيق الآدمية في الانسان. .

دور . . وأمل :

اذاً، راجي ليس مؤلفاً من المؤلفين يطبع كتباً او ينشرها، ليراهن على انه من فئة الكتاب او من فئة الادباء (وهو الذي فاز ونجح في هذا التأليف) وانما كان همه ان يوصل فكراً اجتماعياً، منصهراً في مختبر الحياة، ان يوصل تأليفه الى المناطق الحساسة في المجتمع، بل الى كل المناطق التي ترى في الطب رحمة لازالة الآلام، وفق مشاعر . . الناس، وعلى وفق مشاعر العلم الحديث. .

منذ انتمائه الى الجمعيات الطبية العراقية في سنة ١٩٥٨ وما بعد هذا التاريخ كان من قلة في الاطبـاء، يقدم بحثـاً جديـداً، او رأياً سديداً، او موقفاً شديداً، وأظهـر في سنة ١٩٦٣ نشـاطاً علميـاً في الجمعية الطبية العراقية، كانت خلاصته في ذاك التقرير الذي اعاد الى اذهان الاطباء (ان الطبيب رسول محبة) رسول لا يبتغي الا اجراً بسيطاً في قضية معقدة اسمها اسعار الاطباء، فانتبه الى كلامه الجميع، وقال قائلهم (من أين جاء بهذه الفكرة) لكنهم بعد حين عرفوا ان راجياً لم يقدم في تقريره (مزايدة) ولم يتبجح، انما قال (ان الاكثـرية فقيـرة،

والمرض ينتشر في الفقراء، فعلام نزيد الفقر فقراً والجوع جوعاً ونهين رسالة الرسول بالجشع. . .) انما قال (يا اطباء كونوا بمستوى الرسالة)، وحيث انه بات لا يشغله في هذه الجمعية الا البحث في وفرة الادوية وفي سلامة الانسان، وحيث انه دخل او رشح نفسه للهيئة الادارية للجمعية الطبية، بلا اعلان كبير، فقد اعطته الاكثرية اصواتها في سنة ١٩٦٤، ممثلاً لها في الهيئة الادارية، وفي ما بعد سكرتيراً للجمعية لاربع سنوات متتالية، ملأها بكل خزينه، وبكل عقله، عمل مناهج في تطوير الجمعية، ونظم ورفاقه مؤتمرات طبية ناجحة ولا سيما المؤتمر الطبي الربيعي الاول والثاني في الموصل، كما انه أشرف على طبع قاموس يضم اسماء اعضاء الجمعية الطبية، والتعريف بهم (وهو عمل تحسب نتائجه المثمرة في التاريخ الآتي)، وقل عن انشطته في هذه الجمعية، بالمحاضرات في حقلها العلمي، وبالندوات في حقلها الفكري، وبتضييفهم للشخصيات الطبية العالمية التي ما كان مردودها الا تفاعلاً بين الخبرة الطبية العراقية والخبرة الانسانية الاخرى عموماً. . ! وفي ذات الفترة كان عضواً في (جمعية السرطان العراقية) التي قال في احد مؤتمراتها: (الطب لا يتقدم من وراء المكاتب وانما باجراء البحوث. . .) وقال في أحد اجتماعاتها السنوية: (التقنية لا تزيل مرضاً فعلينا بابتكار العقول. . .) معنى قوله، ان هذه الجمعية لا تقضي على (سرطان عراقي) اذا بقيت تجتر بحثاً اجنبياً او تنقل تقنية

طبية اجنبية، ولا تتقدم ان بقيت عراقية بالاسم والمقر: (ويا أيها الاطباء عليكم بالمختبر ولا نحتاج في هذا المختبر الا للحظة تفكير، اذ ذاك تتجلى العبقرية العربية كما تجلت عند أوائلنا. . .) وهذه الستينات التي ظهرت فيها اولى كلمات راجي في الاقتراح العربي للطب كانت تقدم لنا منظماً للطب اكثر جدلاً . . !

* * *

وانضم الى (الجمعية البريطانية للطب الفيزيائي وامراض المفاصل) في سنة ١٩٦١، أي خلال دراسته لاختصاصه في امراض المفاصل، وكان يواظب على حضور جميع مؤتمراتها التي تعقدها سنوياً داخل لندن وخارجها، وكان في هذه المؤتمرات يمرن وعيه باختصاصه ويطلع على أهم منجزات العلم فيه، وتلك الجمعية أصدرت مجلات اختصاصية ونشرات وكتباً كان يقتنيها ويحرص على جمعها ويقرأها بفهم، وحتى بعد عودته من لندن استمر اتصاله بها، اذ هو بهذه الوسيلة تعرف على نوابغ الطب العالمي، وهؤلاء عرفوه وقدروه لانه كان حركة دائبة في مؤتمراتهم، ولأن بعضهم تعرف على التراث الطبي العربي من خلاله، وطالما ناقشهم بهذا التراث، وطالما دل كبيرهم على أهم فتح في الطب فتحه العرب الاوائل فتحاً مبيناً، يترجم ويعطي ويصور لهم النسخ الخطية ويذيلها بالشروح فكيف ينساه هؤلاء الاطباء الانكليز او غيرهم، بل اثنىٰ عليه هؤلاء ثناء الاوائل اذ قال قائلهم:

انت من ورثة الرازي، وكان يردهم بابتسامة الخبير بتراثه . . !

* * *

وفي سنة ١٩٧٨ اصبح عضواً في (اللجنة الدولية للطب والصيدلة العسكرية) وهي منظمة دولية مقرها في بروكسل، وتلعب دوراً كبيراً في تطوير الطب العسكري من خلال مؤتمراتها السنوية، وشارك في مؤتمرها الرابع والعشرين الذي عقد في (اثينا ـ اليونان) وفيه انتخب نائباً لرئيس اللجنة الدولية، وفيه استطاع ان يحصل على موافقة الاغلبية بعقد الاجتماع الخامس والعشرين في بغداد (رغم معارضة بعض الدول الكبرى والكيان الصهيوني) . . وانعقد المؤتمر في بغداد وكان راجياً رئيساً له (ويحدث هذا لاول مرة منذ تأسيس اللجنة الدولية في سنة ١٩٢١، اذ لم يعقد مؤتمر من مؤتمرات اللجنة في أي قطر عربي آخر. . .) وفي وثائق اللجنة الدولية، ان المؤتمر الذي انعقد في بغداد كان من انجح المؤتمرات السابقة فقد اعطى مردودات طبية ناجحة اولاً، ولأنه أغني بآراء اكثر من (٢٥٠) عضواً يمثلون (٥٠) دولة من العالم، وكلهم أشادوا بحسن تنظيم المؤتمر وجلساته . . ولما رأوه (اهلاً) للطب ولرعاية الطب العسكري انتخبوه رئيساً للجنة الدولية لمدة سنتين، الى حين سلم قلادة الرئاسة الى مدير الامور الطبية المغربي في سنة ١٩٨٦، وأهم ما في هذا المؤتمر تلك الامسيات التي اقيمت على ضفاف دجلة الخالد، حيث شرح لاعضاء المؤتمر القدامى المناهج

الطبية التراثية عند العرب في الماضي (في ما يتعلق بالطب العسكري) وقرأ عليهم وصايا الحرب ووصـايا الجنـد، وطلب بعضهم تسجيلاً لاحاديثه فاعطاهم اوراقـاً مصورة هي خـلاصة اسـرار الطب عنـد العرب، وزودهم بوصايا الرسول العربي في الحرب. . !

المجلس الاعلى :

حتى اذا أطلت بشائر الثمانينات، لم يبق احد في مجلس البحث العلمي في العراق من لا يعرف راجياً في تفكيره وكتبه و(همته) في تطوير العلم ودعوته لمواكبة التطور الحضاري، ولا سيما راجي الاجتماعي الذي لا تفوته محاضرة الا حضرها، ولا سيما وهو صاحب (الكياسة) في ثنايا الناس من ذوي المواهب العلمية، ولا سيما وهو لا يرد مجلساً او جمعية علمية حينما تطلب منه محاضرة او حديثاً او أي شيء يغني العلم وآفاقه، وكياسته ولباقته العلمية جعلته حاضراً شـاهداً مقيـماً في أي نشـاط عقلي من انشـطة العلم، حتى لقبـه المشتغلون بـالعلم بـأنـه (مهندس المناهج العلمية) لعقله الذي برع في تخطيط مناهج العمل، لواقعه الذي يقبل جدل العلم والعمل، فانتخب (رئيساً) للمجلس الاعلى للجمعيات العلمية العراقية، ومنذ سنة ١٩٨٢ كان يجاهد في ان يكون هذا المجلس دعوة عالمية في تلقي العلم وتطوير العلم وجعل العلم اسلوب النهضة الوحيد ويتكون هذا المجلس الاعلى من (٣٦)

جمعية علمية مع بعض الممثلين من وزارات معنية بمناهج هذه الجمعيات، والطريف في شهرته، انه يوم انتخب رئيساً لهذه الجمعيات كان يقضي فترة علاج في خارج العراق مما عد انتخابه « تكريماً » .

* * *

وفي نهاية الدورة لرئاسة المجلس جددوا انتخابه (بالاجماع ايضاً) رئيساً له ، وكان هؤلاء الذين انتخبوه مرة ثانية يأملون منه ان يعقد مؤتمرهم الثاني فعقد هذا المؤتمر في آذار ١٩٨٧ ، ومن على منصته نادى: (ان العلم معارف ، فلنبحث عن هذه المعارف العلمية اينما وجدت في القطر) لأنه اراد ان يدخل العلم في أية زاوية من زوايا المجتمع العراقي، وفي هذا يعد الآن دراسة طويلة في (كيف نكسب المستقبل بعقل علمي)، وهي دراسة بل منهج متكامل لتطوير العلم العراقي بالمختبر، بالمؤسسة، بالفكر. . !

وهو الى ذلك، رئيس (جمعية امراض المفاصل والتأهيل الطبي) الذي اعد نظامها الداخلي في سنة ١٩٨٢ وانتخب رئيساً لها بالاجماع بعد اسبوع من اجازتها، وهنا في هذه الجمعية اعاد راجي الى اذهان اعضائها ما كان يحلم به في تطوير الدراسات العلمية لامراض المفاصل، منذ شرع يدرسها في لندن او منذ شرع يكتب عن اختصاصه فيها، فقال في اول جلسة يفتتح بها اعمال الجمعية : (هذا الاختصاص جديد في العراق، فلماذا جديد اولاً، ولماذا نحن غائبون) لانه كان



وقفة بجانب تمثال ابن رشد في قرطبة بداية السبعينات !

يريد من هؤلاء الاعضاء ان يقتحموا الاجتهاد في الاختصاص، ان يرفعوه منازل في مستشفيات العراق، وفعلاً حقق هؤلاء الاعضاء هذا الامل الذي دعا اليه، بالندوات حيث كانت دراساتهم بمستوى العلم، وبالمحاضرة أثر محاضرة حيث تنبه الاطباء الى اننا غائبون عن الاختصاصات، وبالنشاط الثقافي حيث شاهد المعنيون بامراض المفاصل تجربة راجي بالصور الملونة و(بالكاسيت) وبخرائط الاجسام التي تبرز فيها مفاصلها بشكل مرعب وهي تعاتب الاطباء على اهمالهم لها في سنوات الجدب، اما كلمة (نحن غائبون) التي قالها في بداية افتتاح الجمعية فأظنه كان يعني، ان اطباء العرب في العصر الماضي كانوا قد سبقونا في العلم بأمراض المفاصل ولا أظن غير هذا المعنى، لأن راجيا ان زرت بيته فتجده قد جمع المصادر كلها في امراض المفاصل وهي مصادر الاولين، وبين هذه المصادر وضع دراساته المطبوعة والمخطوطة في امراض المفاصل، ورتبها بموهبة عنيدة ومتواصلة مع الحاضر.. وكلها تشير الى اهمية: (نحن غائبون)..!

وثمة جمعية اخرى باسم (جمعية التأهيل ورعاية المعوقين العراقية) كان له دور في تأسيسها سنة ١٩٨٦، وهي حاصل اندماج جمعيتين، جمعية امراض المفاصل والتأهيل الطبي وجمعية المعوقين العراقية، وأثر أمر صادر من مجلس قيادة الثورة سمي راجياً مشرفاً على (هذا الدمج) وموحداً للانظمة والانشطة القديمة للجمعيتين، وخلال

شهرين انجز المهمة وجاءت هيئة ادارية جديدة، وانتخب رئيساً لها، ومازال يغذي روافدها بالجديد، وما زال ينتظر صدور العدد الاول من مجلة (الشهب) الناطقة باسم هذه الجمعية التي أقر ان يكون هو رئيس تحريرها..!

جمعيات ثقافية :

ومن العلم الى الثقافة فهو كأسلافه القدامى لم يرتو بالعلم وحده، او بالثقافة وحدها، وانما أراد لموهبته ان تكون مزيجاً بين علم وثقافة، وكان مبعث هذا المزيج، انه قرأ يوماً للرازي حكمة يقول فيها او يوصي فيها تلاميذه، بأن يأخذوا العلوم كلها مرة واحدة بعد ان يجرعوها جرعة جرعة، ثم قرأ لعلماء الطب في دار الحكمة ببغداد اقوالاً هي أشبه بأقوال الرازي، فانتبه الى اقوالهم، وكان ذلك منذ ادرك راجي الكتاب وهو في سن تؤهله لأن يكون قارئاً ذكياً، فقرأ بعد ذلك، وصنف القراءات، يقرأ ساعة أدباً فيه الشعر والقصة، وساعة يقرأ علماً، من الطب او العلوم التي تقترب الى الطب. ثم دعا الى ما كان يدعو اليه اطباء دار الحكمة او الرازي، وكان مجال دعوته منافذ المجتمع الرئيسة، الندوات، المؤتمرات، المجالس الادبية، وأهم هذه المنافذ (الجمعيات الثقافية):

في سنة ١٩٦٥ اجتمع بجيله او بمن يكبر جيله بعقد قال:

(الثقافة لا تنتشر الا بجمعية ثقافية. . .) فأيدوه وكانوا عشرة يغلب عليهم الطابع القديم في الادب العربي قال: (أرى ان يكون اسم الجمعية: جمعية النشاط الثقافي. .) فقبلوا التسمية، فكتب راجي طلب الاجازة بصفته مؤسس الجمعية، فأجازت وزارة الداخلية الجمعية بتاريخ ١٩٦٦، وفي خريف هذه السنة كان اعضاؤها يعقدون اول اجتماع لها، ينتخبون فيه راجيا رئيساً للجمعية، ويرسمون منهج العمل، في ان تكون الثقافة للجميع، وفي بعث القديم بروح العصر وبعث العصر بروح القديم، وتشجيع الطلبة الجامعيين المجتهدين لمواصلة ومتابعة دراساتهم العليا بمنحهم سلفاً تسدد بعد تخرجهم، وانتمى للجمعية وزراء واطباء ومحامون، منهم المرحوم العميد عبدالرحمن التكريتي (صاحب الامثال المعروف)، وما ان عين راجي ملحقاً طبياً في لندن في اواخر الستينات، حتى اضمحل نشاط الجمعية وذوت الحياة فيها قبل ان تتمكن من تحقيق اهدافها المعلنة. .

* * *

وانتسب الى اتحاد المؤرخين العرب، حيث يساهم في أنشطته، سواء عن طريق محاضراته في التاريخ، او في مشاركته في الندوات والمحاضرات، التي يعقدها الاتحاد، ولا سيما تلك التي تبحث بتاريخ وتراث الطب العربي الاسلامي، ومن مجموع (نتاجه) في هذا الاتحاد يقوم كتاب متعدد الفصول، بقي هو وغيره في أحد مدارج مكتبته، كما

انـه انتمى الى (جمعية احيـاء التراث العـربي الاسـلامي) في اواسط السبعينات وشارك في برامجها . .

تصوراته :

وتصـوراته في الثقـافة، ولا سيـما في الادب والشعر والقصة وتصدير الكتاب ومؤسسات الكتاب وحركة النشر، هي بـلا شك نـابعة من امـزجته العقليـة التي تلقاهـا من قـراءات شتى ومن فهم وجداني، فهو عندما انتسب الى (جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين) وفي ما بعد الى اتحاد الكتاب والادبـاء كان لا يتـراجع في رأي ادبي يعرضه، ولا يتـردد في رفض أية قيمـة ادبية او شعـرية لا تحقق لـه (انسجامه الوجداني) فهو في الادب مثقف ثقافـة تقليديـة، لا يقبل الجديد بسهولة، ولا يرفضه بقناعة نهائية، وفي الشعر تثقف على بحور الخليل بن احمد، فكلما كان بحر الشعر ذا رنين تقبله برضا وانفعل فيه ودافع عنه، هو من النمط الذي يريد الادب منبراً تذاع منه الكلمات الواضحة السلسة التي تدخل الى القلب دون معاناة وقد تجده متعصباً غاضباً اذا اشكل عليه شعر حتى لو كان كاتبه من رعيل الرواد، وتجده متبرماً ناقداً اذا بدأ قصة ولم يتوصل الى عقدتها الحديثة حتى لو كتب امثال هذه القصـة قاص مجرب محنك في ادارة القصص العـراقية، مزاجي بالفطرة، يحكم بدون منهج، وحكمه بقدر الرقعة التي يراها في

عينيه او بقدر اهتماماته الادبية بقدر ما يتجمع في قلبه من عشق ورغبة للقراءة الادبية لكنه في ما يخص حركة النشاط العقلي والذهني واللغوي في مؤسساتنا يمتلك رأياً جريئاً واحساساً عالياً، بأن العقل يجب ان ينتصر، ان يتحرر من الانانية، وضيق الافق، وواضحاً يعطيك آراءه، او تصوراته، وواضحاً يدافع عن هذه التصورات، وواضحاً تعرفه بأنه متابع، سريع الحركة، سريع الالتقاط، سريع الحكم بعقل وتجرد وايثار، يقول هذا في مجالسه، والى كل من يجد في عقله فسحة من الجدل وفسحة من الرغبة في سماع الجدل. .

الجامعة او الجامعات :

وهو درس في الجامعة واستكمل اداته العلمية في جامعات العالم معنى انه ادرك، ان قوة الدولة (أية دولة) وقدرتها على النهوض والبناء ومواجهة التحديات، هي بقدر ما تملكه من جامعات وكليات ومعاهد، فهذه عنوان حضارة لا نشك انه العنوان الاول في تطور البلدان، ادرك راجي هذا، لكنه رأى غير هذا في جامعاتنا. . .

كان في سنة ١٩٧٠ في زيارة الى معاهد امراض المفاصل في جيكوسلوفاكيا، وسأله استاذ امراض المفاصل بجامعة براغ وكان عمره ٨٤ سنة:

■ كم هو عمر جامعة بغداد. . ؟

وانتبه راجي الى مقصده فقال له:

- ما يقارب ١٠٠٠ سنة..

فاندهش وسأل:

■ ولكن كيف.. ان جامعتنا ثالث جامعة في اوربا!

فقال له الدكتور راجي مفتخراً:

- ولكن كان في بغداد جامعة.. ودار الحكمة منذ القرن التاسع!

■ قال الاستاذ الجيكوسلوفاكي: (نعم... نعم هذا صحيح، ولكن الذي قصدته: ما عمر جامعتكم في العصر الحديث)..؟

* * *

رأى الكثير من الدول تفخر وتتباهى بعدد جامعاتها وقدمها وعراقتها وتقيم لها الاحتفالات السنوية، ابتهاجاً بتاريخ جامعة او ابتهاجاً بتفرد بحوث جامعة اخرى ولأنه رأى غير هذا في جامعاتنا، من ذلك:

١ - لم تكن لدينا تقاليد، اي ان جامعاتنا لم تستطع ولحد الآن ان تخلق لها التقاليد.. (وهذا ما هو واقع، فقد أشار السيد الرئيس الى انعدام التقليد في جامعتنا عند زيارته الى جامعة الموصل في مناسبة من المناسبات..).

٢ ـ اننا نهتم في جامعاتنا بالكمية دون النوعية، وقد نحشر اعداداً كبيرة من الطلبة في صفوف وكليات غير مهيأة اطلاقاً لاستيعاب هذا العدد الكبير. .

٣ ـ النسبة الكبيرة في حالات الرسوب والفصل (من غير البحث عن الاسباب)، فكثيراً ما يكون السبب في ذلك: الاساتذة وليس الطلاب، ولا سيما ما يحدث في الكليات العلمية، وليس كل من حصل على شهادة عالية يصلح للتدريس. . !

ويشدد راجي على الاهتمام بلقب استاذ جامعي وهذا اللقب لا يأتي الا من الانتقاء الجيد والاختيار الاعمق، والاعداد، حيث ينبغي ان يعد الاستاذ الجامعي اعداداً مركزياً، ثم ينبغي علينا ان نعرّب الجامعات والكليات، وهؤلاء الذين يثيرون الاوهام ضد التعريب ما هم الا اشخاص يفتعلون الهواجس افتعالاً. . وإلا لماذا تدرس العلوم كل العلوم في كل دول العالم بلغاتها. . ثم لماذا نشكك في قدرة لغتنا العربية باستيعاب كل العلوم. . !

المعارك الادبية :

وكذلك في عالم الادباء، له رأي في (معاركهم الادبية) فهو اولاً لا يحبذ اصطلاح (المعارك الادبية) لأنه لا يريد ان نرهن كل شيء بالمعارك، ويضع بديلاً لهذا الاصطلاح، يسميه (المناظرات الادبية) لأنها تعتمد على الحوار الهادىء والتباين والاختلاف المجدي في وجهات

نظر الادباء والشعراء والمؤلفين، بينما هذه المعارك الادبية لا تورث الا البغضاء والشحناء والتنابز بالالقاب، وهو في ذلك يتـذكر الحديث الشريف: (اختلاف امتي رحمة) حينما يكون هذا الاختلاف في الرأي باعثاً على تجدد العقول لا تصارعها، وسبيلاً الى تعايش كل العقول لا انقسامها، وأي تطور ما لم يمحص بالاجتهاد الحسن، يؤدي الى نتائج عكسية هو تطور منغلق، يقضي على كل بذور الحركة والحيـاة، هو راجي التكريتي ضد المعركة الادبية لأنها (في جوهرها الاصطلاحي) هدم، فناء، تجريح، لكنـه مع المنـاظرة الادبيـة، لانها تجعل الآراء متناظرة، وأي جدل في هذه الآراء لا بد ان يكون جدلاً متناظراً، في قوته وتلازمه وفي نتائجه التي لا تعني في النهاية: سوى خدمة الرأي القوي الحصيف المثمر، وهو يتمنى لو نشأ تقليد جديد في صحـافتنا عنوانه (الحوار الهاديء) في الادب والشعر والقصة والنقد. . !

حركة الكتب :

. . .ثم ناقشني في اصدارات الكتب، وهذه السلاسل وكتب المعرفة التي تصدرها مؤسسات كثيرة في العـراق. . والتي يرى فيهـا (نهضة ثقافية) لم يشهدها من قبل، وهو يقرأها، جميعاً، وله آراؤه فيها، يعلق ويهمش على بعضها وينبسط في ورقها الجميل وطباعتها الانيقة (المحسنة بعض الشيء) لكنه (بكل تأكيد) لا يعزل ظاهرة الكتب عن ظاهرات المجتمع، فهذا المجتمع سريعة وتاثـره الى الاعلى، وقـراء



إلى اليسار وفي عام ١٩٦٧ يراس مؤتمراً طبياً عربياً

كثيرون يولدون في كل جيل او في كل سنة بل في كل شهر، والكتب لا تلبي سياق هذه الوتائر المتصاعدة، أي انه يجد ان حركة الكتب تبقى قاصرة عن احتياجات المثقف لأن ثمة جوعاً عميقاً نحو الثقافة والقراءة والكتابة، ثم يذهب راجي الى العالم فيجد (مثلاً) ان نسبة الذين يقرأون (قراءات خارجية) في الولايات المتحدة الاميركية هم اعلى نسبة من الذين يقرأون في عموم الوطن العربي، وهذا شيء يقلقه، وازاء هذا القلق فانه يدعو الى زيادة عدد دور النشر (لأن الكتاب متعلق بحركة النشر) فكلما كثرت دور النشر وتنافست في تحقيق المزيد من اصدار الكتب النوعية، تحقق هدف ثقافي وعلمي كبير، هذا صحيح يا راجي، بل انت معي، في ان دار نشر واحدة او خمساً او عشراً لا تكفي في العراق، وربما تشاركني الرأي او اشاركك فيه، بأننا ينبغي ان تشكل دور نشر (مختلطة) حتى تتبارى هذه الدور في الاصدارات، وتخصص منحاً مجزية لأي كتاب جيد ينشر او يترجم او مخطوطة تحقق، وان يكون هناك لدور النشر فنانون متخصصون في التصحيح والتصحيف والطبع والتصميم، وان نجنب المؤلف كثرة المراجعات وجهد التصحيح و(مذلة) الرواح والمجيء، ياراجي: (اعوذ بالله من دلالة المؤلف بكتبه هنا وهناك)..!

القــاص :

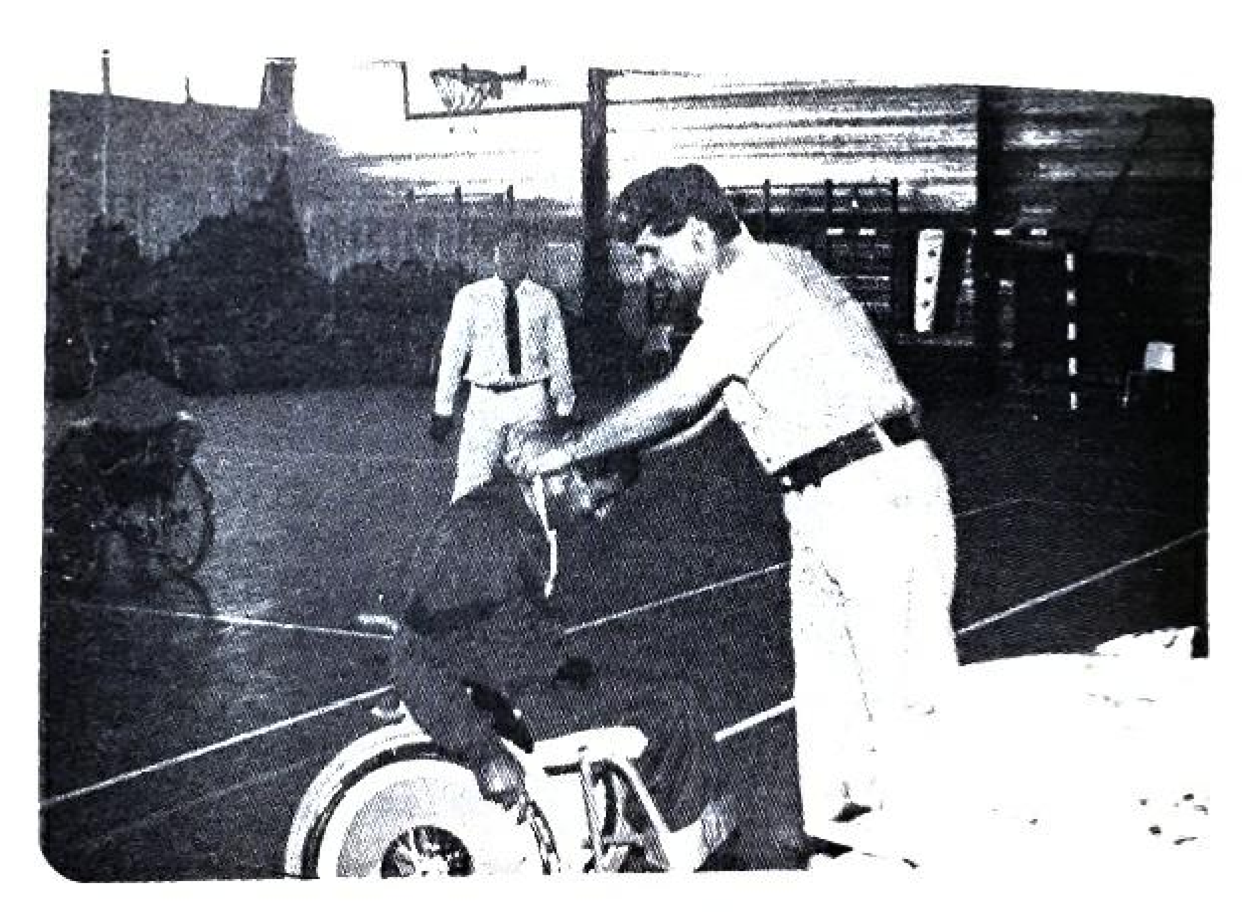
ومن هذه الكتب يقرأ القصص ولا سيما المترجم منها، وربما

كانت ثقافته الاولى هي قراءة القصة المترجمة اكثر من القصة العربية، فقد صدمته القصة العربية عندما قرأ قصة ليوسف السباعي بعنوان (اني راحلة) وكان قبل ذلك يقرأ لتولستوي انّا كارنينا . . !

وهذه الكتب التي تبحث في القصة وهذه المجاميع القصصية التي افرد لها زاوية من مكتبته وبعضها يعود لتاريخ دراسته في المتوسطة، تظهره مولعاً بالقصة، و(مغرماً) بها لوجود شروحات بقلم الرصاص على صفحات بعض المجاميع، ولأنه (الى الآن) يتذكر حوادث بعضها بمنتهى شوق الماضي وذكرياته الطرية في قلبه، ويضاف الى ذلك، انه يحتفظ بقصاصات صغيرة من الورق الاصفر، هي احداث رومانسية من واقع الصبا، يسميها قصصاً، لكنه يعترف انها بمستوى قصص التلاميذ المجتهدين في مراحل الدراسة الثانوية، وأول قصة (تمثله) ويسميها رواية كان قد كتبها في سنة ١٩٥٩ وهو في سجن ابي غريب، وهي رسائل يسميها فصولاً تنتهي بأزمة الضمير الانساني وبمحنة اسمها (التعذيب) وقد طواها لزمن عندما غادر الى لندن لدراسة الطب، وفي سنة ١٩٦٤ اعاد النظر فيها وهذب بعض حوادثها وطبعها بعنوان (حفلة تعذيب صاخبة) يقول عنها: (نالت اعجاب واستحسان القراء، وقد نفدت وطلبوا مني اعادة نشرها مرات ومرات، وسأفعل ذلك . . . . . .) !

* * *

لكن قصصه الحقيقية هي التي كتبها ويكتبها في عيادته الطبية، عن حالات واقعية لحوادث مؤلمة، لحياة مرضى، يسجلها في دفاتر، بأسلوب قصصي، حتى تجمعت لديه قصص وقصص، دفاتـر فوق دفاتر، لا يجد نفساً يكتبها في قرارها الاخير، ولا يجد متسعاً في زمنه يطبعها ويوزعها على الناس، فهو ثانياً يخشى ان يترك الطب، ويتفرغ للادب القصصي كما حدث لسومرست موم، وهـذا من بعض قلق الاطباء الادباء..!



يقلد وسلم الفوز لاحد الرياضيين المعوقين

■ اســرار الاطبــاء ..

هل يبوح الاطباء باسرارهم ، قال (نعم) فسالته :

س - مانسبة الامراض النفسية في الاطباء ..؟

ج - انها اكثر نسبة من بقية شرائح المجتمع ..

س - كيف يعالج الطبيب نفسه اذا اصيب بمرض ..؟

ج - في الحالات البسيطة بالامكان ذلك وحسبما توصي به العلوم الطبية ولكن في الامراض الشديدة فالافضل ان يترك ذلك الى طبيب غيره ..

س - هل صحيح طبيا ان القلب مركز العاطفة ..؟

ج - بكل تاكيد لا ، وانما الدماغ مركز العاطفة وانما القلب يتاثر بالعاطفة ..

س - ماذا يعني : ان النفس امارة بالسوء ..؟

ج - بحسب ما اعتقد ان المقصود بالنفس هنا هي العاطفة والهوى ، وان الانسان اذا ترك حكم العقل واستجاب لعواطفه واهوائه فانه يقاد الى مواضع الهلاك !

س - كيف تكتشف كذب المريض ..؟

ج - يختلف من حالة الى حالة ، ولكن قوة الفراسة والانتباه الدقيق وتطبيق العلم وربط الحقائق مع بعضها يسهل عملية اكتشاف المريض او مايسمى المتمارض !

س - كيف يشتهر الطبيب ..؟

ج - ان يطبق وصفة مركبة اساسها العلم وقوامها الاخلاق ، محيطها الرافة ووجهها البشاشة ، وهدفها الانسانية ..

س - رشح لي طبيبا عراقيا لجائزة اوربية كبيرة ..؟

ج - انا شخصيا لا اميل ان يعمل الطبيب من اجل جائزة ...!

س - لماذا يفكر الاطباء بالربح الكثير ..؟

ج - قلة هؤلاء الذين يحصرون تفكيرهم بالربح الكثير ، انما هدف الطبيب انقاذ الحياة !

س - ماهو دخلك الشهري ..؟

ج - اني موظف في الدولة ولي راتب تحدده القوانين ، ومن ثم عيادتي

تدر على مكافاة مادية ولا اسمي ذلك ربحا لاني لست بتاجر حتى اقيس المردود المادي بالربح والخسارة ..!

س - هل يجوز ان يكون الانسان طبيبا وشاعرا في آن واحد ..؟

ج - بكل تاكيد نعم ، ويكون الشعر رقيقا ومعبرا عن خلجات النفس بصدق !

س - لماذا يكره الاطباء قراءة الفلسفة ..؟

ج - في السابق اشتهر الكثير من الاطباء بالفلسفة ربما غلبت على مهنة الطب كالرازي وابن سينا وابن رشد والفارابي والكندي ... اما الان فلقد اصبحت دراسة الطب طويلة ومعقدة والفلسفة بحاجة الى وقت وصفاء ذهن وتامل ، ولم يعد هذا متاحا للاطباء ..

س - اي المرضى تخاف معالجتهم ..

ج - لم اخف يوما من معالجة مريض ، وانما كنت اتضايق من بعض المرضى الذين يرغبون ان يكون علاجهم بحسب مركزهم الوظيفي او ما يملكون من اموال وعطاء ..

س - هل الحسد مرض بايولوجي ..؟

ج - اعتقد ان الحسد متواجد في احد كروموسومات الخلايا البشرية ..

س - كم نسبة الحسد فيك ..؟

ج - احمد الله انها قليلة ، فلا احسد غنيا لما يملك ولا عقارا ولا اولادا ولكن اغبط عالماً ومؤلفاً وقارئاً واتمنى ان تتاح الفرص لأن اقرأ وابحث وأبدع ..

س - كم ملكا عالجت ..؟

ج - لم اعالج ملكا وانما عالجت رؤساء وقادة سياسيين وعسكريين ووزراء وسفراء !

س - ممن ينشا مرض (جنون العظمة) ..؟

ج - ربما كان منشؤه من تركيب غريب، سببه الكفاءة والغرور والجهل ..

س - هل هناك مرضى طيبون ومرضى خبثاء ..؟

ج - بكل تاكيد ، لان المرضى يمثلون مختلف شرائح المجتمع ..

س - كيف تعالج الوهم في الانسان ..؟

ج - بان اكون معه اكثر صدقا وانبساطا ، مستخدما طاقة المنطق والعلم والصراحة .

■ **تعريفات الاطباء . .**

. . وانت الطبيب، فكيف تعرّف

هذه المفردات ، قال:

القوي: من يصارح النفس بضعفها . .

البطل: الذي يحمل روحه بكفه من أجل المبدأ والعقيدة . .

الرجل العظيم الذي يجعل المستحيل ممكناً . .

الخوف: غريزة في الانسان، ان قهرها غدا شجاعاً وان غلبته اصبح جباناً . .

العشق: ان يصبح العقل عبداً للقلب . .

الحرب: ان تتكلم المدافع بدلاً عن الدبلوماسية.

العنصرية: ان تتعصب بغباء للعنصر الذي تنتمي اليه . .

الالحاد: الكفر بالمفاهيم السائدة . .

السياسي المثالي: من يضع ضميره رهن قضيته . .

الحقد: ان تغلف العواطف الانسانية بقعة سوداء تحجب كل منفذ للحلم والصفح . .

الفصـــل السادس

رحلة الى عالم مملوء بالأسرار

. . عالم راجي مملوء بأسرار الطب، وفي جلسة واحدة من جلساته لا بد وانك تسمع رأياً طبياً حديثاً، لا بد ان يسمعك آراء اولئك الاطباء الذين يراسلونه ويراسلهم، وكلهم من جنسيات طبية تبدع وتخلق ابداعها في مختبرات وفي اكاديميات، وصار راجي اليوم حركة طبية، يلتقي فيها القديم وقد جعله عنواناً لحضارتنا الطبية الاولى، ويلتقي الحديث، حينما لا يريد ان يكون القديم قديماً، فالعرب لا بد ان يخضعوا الزمان الى لحظاتهم، ان يكون اطباؤهم اطباء وحكماء في آن واحد، وأظن ان راجيا اكتشف هذه (الغاية) عندما رحل الى عالم واسع، عندما رأى الدنيا تتسارع في الخطى . .

الحضور :

وكان يرحل الى العالم بوسيلة المؤتمرات او بوسيلة (رحلاته) الخاصة، في الاولى كان يعطي حقائق، وفي الثانية كان يفيد من تأملاته اذا دخل جامعات الطب وأروقة التأهيل العالمية، وفي كلتا الوسيلتين كان يعيد على نفسه السؤال الذي مال به الى الطب: (هل نبقى طلاباً في الطب) لا . . ثم يبتكر سؤالاً جديداً: (لماذا نبقى طلاباً . . .) لا . . ثم راح يقدم برهاناً أثر برهان كلما اتيحت له فرصة هذا البرهان في مؤتمرات الطب . .

* * *

(كيف حال الطبيب التكريتي) هذه عبارة هي ملخص التحية



الثاني إلى اليسار .. وهو يستمع إلى محاضرة طبية

التي يحملها اطباء عراقيون عائدون من الخارج الى راجي التكريتي، من اولئك الذين استمعوا اليه في ندواتهم العلمية، ومن اولئك الذين ترك في نفوسهم صورة (المبضع العاقل) او صورة الحكيم الطبيب، كان لا بد انه ترك في عقولهم عقلاً طبياً يفكر في حالة الطب، و(الطب الانساني لا غير)، اذ ان راجياً ظهر في كل ندواته العالمية او العربية، حكيماً قبل ان يظهر بندقية طبية، واذا ظهر على صورة (البندقية الطبية العسكرية) فانه يظهر فارساً لا يصيب الا النتوءات البشعة في وجه الانسانية، يطهر هذه النتوءات ويخرج الانسانية الى فضاء رحب . . !

في لندن كان زميلاً لاستاذه (الدكتور هـ. برت) حيث تلقى على يديه اجوبة عديدة في التأهيل الطبي، وكان يرى فيه استاذه اذناً وعقلاً ورغبة في ان يكون السباق مع اختصاصه، سباقاً سريعاً، قال له في المختبر:

* كن معي في رحلاتي . .

ـ حيث العلم مرتحلاً . .

وكان راجي يجد في استاذه (نباهة في الانسانية) انه الآن في لندن يطمئن الى عالم في الطب العسكري، ساهم في تضميد ملايين الجنود في الحرب العالمية الثانية، وهناك في لندن ينظرون الى هـ. برت نظرتهم الى داهية فتح لهم معجزات في امراض المفاصل وفي غير امراض المفاصل، اليوم شتاء من سنة ١٩٦١، وتحمله قدماه مع استاذه الى

مؤتمر طبي من المؤتمرات التي تقيمها الجمعية الطبية البريطانية للتأهيل وامراض المفاصل، ويجلس راجي مغتبطاً، اذ وجد نفسه في مقعد امامي يستمع الى خيرة خبراء الطب، وازداد ثقة اكبر عندما رأى ان هذا المؤتمر الاول الذي يحضره هو بادارة استاذه هـ. برت، كان يمنحه التجربة الاولى، في التقاط الجدل الطبي الجماعي، وديمقراطية الجدل في الامور المهمة، وتعلم فيه كيف يدار الاجتماع العام في اختصاصه، وكيف تعرض المصورات، وعلى هامش المؤتمر سأل طبيب انكليزي هـ. برت: (من هذا الشرقي) الذي يصطحبك، قال له: (عراقي ذكي مدفوع برغبة التذكر والاطلاع. . .)، وحقاً كان استاذه استاذاً أشبه ما يكون بالمنبر، لانه اراد من راجي ان يخرج من (شرنقة) الطالب الاعتيادي، ويتنفس عالم الطب في أهم مصادره، كان يهيء له زيارات خاصة الى المستشفيات الرئيسة في التأهيل في بريطانيا، ويحمله رسائله وتوصياته، يوصي به خبراء هذه المستشفيات، هل هو (حظه) لا. . ان استاذه كان مستشار شرف للقوات المسلحة البريطانية، وكان اذا وجد في تلميذ من تلاميذه نواة موهبة ذاتية، فانه سيقول لهذه المستشفيات ان هذا التلميذ طبيب عسكري لا عسكري طبيب، وكان يعني ان الطب في راجي موهبة طبية قبل ان تكون موهبة عسكرية، ولشدة ولع استاذه بالمواهب الطبية في شعوب العالم، كان يتابع تلاميذه بعد تخرجهم في اختصاصاتهم، وهكذا نظم لراجي (بعد حصوله على

الاختصاص) زيارات ميدانية الى مراكز التأهيل العسكرية في بريطانيا، وهناك كان راجي يستعمل حواسه كافة في الافادة من اساليب العمل وتنظيمها، حيث اكتسب خبرة هائلة في تنظيم المستشفيات، نقلها (باسلوبه المعتدل) الى مستشفياتنا.

البحث الجديد:

وفي سنة ١٩٦٢ يقرأ قراء في احدى صحف بغداد، ان طبيباً جديداً يكتب بحثاً جديداً في الطب، كان راجي يقدم هذا البحث في المؤتمر الطبي الذي اقامته (الجمعية الطبية العراقية) وملخصه: ان الخدر الذي يصيب اليدين هو بسبب انضغاط العصب الوسطي عند الرسغ، وليس، كما كان معتقداً، بأنه يحدث بسبب الضلع السائب في أسفل الرقبة عند مدخل الصدر، ومنذ اذاع راجي هذا (الاكتشاف) تعلق به العديد من الاطباء وهم يتساءلون (كيف اهتديت الى ذلك..؟) وكان يجيبهم بكلمة واحدة (التراث والعلم)، وربما أراد ان يقول لهم: (لن يفيدنا تراث بدون معاصرة) او (لن تفيدنا المعاصرة ان أغفلنا تراثنا العظيم)، وربما كان هؤلاء الذين سألوه كانوا يستمعون لأول مرة الى مثل هذا البحث الاكتشاف، في مؤتمر او في كتاب، في العراق او في أي بلد عربي آخر، ثم الحوا عليه ان يتوسع في نشر البحث، فنشره في المجلة الطبية العراقية التي تصدرها نقابة الاطباء في سنة ١٩٦٣..

في القدس :

وكل هؤلاء الذين استمعوا اليه في مؤتمر الجمعية الطبية العراقية قالوا بعد سنتين: (راجي ممثلنا في مؤتمر اتحاد الاطباء العرب..) ويعقد المؤتمر في (القدس) ويصبح راجي رئيساً لوفد العراق، وهناك يدخل راجي في القلوب جميعاً، لانه في اول جلسة ادارية تساءل: (أين الطب من التراث) او (أين التراث الطبي العربي من طبنا الحديث) فكان شعاره مثار جدل، لا سيما وقد كان بليغاً في ايراد الامثلة والشواهد في تراثنا الطبي، لا سيما وقد وزع بحثاً على نخبة من المؤتمرين يدل فيه على وصايا علمائنا في الطب، ان طبقت في مستشفياتنا كان لها أثر في (سد بعض فراغات الحلقات المفقودة في طبنا المعاصر).

* * *

وينتهي المؤتمر، ويخرج من المؤتمر: أهذه هي القدس، كانت تنزل من عينيه دموع صامتة الى قلبه فتلونه بعواطف الامس، حالاً يتذكر كل هذا الجرح الذي كان يسميه في الاربعينات (مأساة فلسطين) حالاً تمتزج في اعماقه رايات التظاهرات العراقية (ورايته واحدة من هذه الرايات التي رفعها في نكبة فلسطين ١٩٤٨ يوم كان طالباً في الثانوية) وهذه الاسلاك الشائكة التي تفصل وتشطر المدن والقرى بين عرب فلسطين وهؤلاء الذين اغتصبوها، كان يتمتم، ايضاً في

صمت، قال له صديقه الدكتور وليد قمحاوي (وهو من نابلس) لنهرع الى المسجد الاقصى، ذهبا، وهناك امام الصخرة المقدسة تعرف راجي على الالم الحقيقي: (هذا الشاهد يبقى شاهداً) ويكى في لسانه، اخرج قلمه وسجل الآيات التي تتدلى من حيطان المسجد، ورسم العصافير التي تنوح وتتطاير حول عنق القبة الزرقاء: (الدمع يكبر يافلسطين. .) ودموعك هل تكبر ياراجي، قال: نعم يادكتور وليد، لكن ما حيلتنا وأزيز الطائرات ومؤتمرات القمم، ودوائر الدول تدور وتطوق العيون، (لكن عروقنا تنبض، ستبقى تنبض ياوليد) وصحا واذا هو بسوق كبيرة امام حانوتي يبيع التحفيات الفولكلورية، يسأله: (هل انت من العراق؟) نعم، وفي لحظة تنفتح اساريره (لم ننس العراق) وسجل راجي مرة اخرى: (الناس هنا فلسطينيون، الحب فلسطيني، والزخارف، واصوات الباعة، وشناشيل أشبه بشناشيل البصرة، حمراء، زرقاء، ووجدان واجنحة تطير وكل العيون. . . .) ويرحل الى نابلس، ويعرفه وليد قمحاوي على بلدته، هنا في نابلس رأى الدنيا تتكور في مأساتها، رأى اطفالاً هنا واطفالاً هناك تفصلهم اسلاك الحديد، هم من أسرة واحدة، كما رأى الشيوخ هنا وهناك، كأنه رأى البيوت الواحدة وقد مزقتها قنابل الغدر: (قال لي عربي فلاح اتذكرون حالتنا. .) ياشيخ: (الجرح جرحي. .) صحا مرة واذا هو في عمان، وفي غرفته بالفندق كتب عشرين ورقة ملأ نصفها بدموع، ونصفها

بقلب مكلوم، وضع لها عنواناً جميلاً حزيناً: (في ابي الاجداد انهر من الدمع) ونامت الاوراق في منضدة رئيس وزراء آنئذ دون ان تحرك دمعة من اعين. . ! سوى كتاب شكر لمسح الدموع .

في مصـــر :

وتمضي شهـور واذا هو يحـاور علماء الطب في المؤتمـر الـطبي الافريقي الآسيوي الذي عقد في القاهرة، ويسأله البروفسور بايوتر استاذ امراض المفاصل بجامعة لندن:

* كم سنة اعددت هذا البحث. . ؟

ـ أشهر معدودات. . !

* أي مصدر انكليزي اعتمدت عليه. . ؟

ـ المصـدر الاول من تراثنـا القديم، والآخـر من تفاعـلي مع التراث. . !

* في قديم تراثكم. . هل هذا مؤكد. . ؟؟

ـ وبعض ما اعتمدت عليه موجود بالقرب من جامعتك. .

وطلب بايوتر من راجي الرموز الخاصة للبحث عن المصادر، وليس هذا وحده طلب من راجي المعرفة، وانما طلب علماء آخرون استماعاً اكثر لهذه المعرفة التي كان راجي يعرضها في بحثه المشهـور بعنوان (تشمع الصلب) الذي القاه في هذا المؤتمر الافريقي الآسيوي، ومن هؤلاء العلماء: الدكتور مالكولم ثمبسون من جامعة نيوكاسل. .

الذي وجه دعوة الى راجي لالقاء محاضرات عن أمراض المفاصل في جامعة نيوكاسل . .

وفي سنة ١٩٦٧ ترأس وفداً من الاطباء العراقيين لزيارة المؤسسات ومعامل الادوية في مصر، وجعل الزيارة ندوة للفكر الطبي ، ناقش فيها وزير الصحة المرحوم النبوي المهندس ووزير التربية والتعليم ورئيس جامعة الاسكندرية وعميد كلية الطب في هذه الجامعة احمد سيد درويش الذي اصبح فيها بعد وزيراً للارشاد ووزيراً للصحة والدكتور عبده سلام الذي اصبح وزيراً للصحة، وغير هؤلاء كثيرين ، انما كان يناقشهم في وسيلة ان يجتمع الطب على مصطلحات وحدوية واحدة وتحديث المصطلح وتعريبه، وان يكون لنا عقل طبي عربي، في نزعته، في اجهزته، وان نحيي من الماضي طباً معاصراً . .

* * *

ومن مزاياه، انه اذا رحل الى مدينة من مدن الارض، يتذكر او يستعيد ذكرياتها من الكتب التي قرأها في شبابه، وفي مصر تذكر انه قرأ اشارات اخلاقية وطبية كان المشرع المصري القديم يرسمها على جدران القبور او في الواح حجرية، فذهب اليها يفتش عن نصوصها، رآها واضحة في الكتابات والنقوش والرموز، رآها شواهد تنطق بحضارة مصر في الشرائع

والقوانين والطبائع والعادات، رأى في الحفريات الآثارية ان أحد الفراعنة ينصح وزيره حين عينه في منصبه: (. . . بأن يهتم في أمور الناس جميعاً، البعيد منهم والقريب، والمجهول منهم والمعروف، فان اصدق واجبات الامراء العدالة). . وقرأ في نقش من النقوش على مدفن احد الحكام: (أنه لم يسيء معاملة ابنة من الناس، ولم يظلم أرملة، ولم يمتهن فلاحاً، ولم يطرد راعياً، ولم يسخر في اعماله عمالاً بلا أجر، وبذلك زال البؤس عن ولايته. . .) وينتقل راجي واذا هو يعثر على نص يتقدم به الميت دفاعاً عن نفسه موجه الى رئيس الآلهة اوزوريس، وينفعل به ويقرأه امام خمسين طبيباً، لروعته ولدلالته على ان لمصر حضارة سبقت الاغريق، يقول النص: (انني لم أقترف اثماً ولم اعتد على أحد، ولم أسرق، ولم أتسبب في قتل أحد غيلة وغدراً، ولم أبخل بشيء من القرابين للآلهة ولم اكذب ولم اجعل احداً يبكي، ولم اكن دنساً، ولم أقتل الحيوانات المقدسة، ولم أتلف ارضاً مزروعة ولم أش بأحد، ولم أغضب مطلقاً، ولم أزن، ولم أرفض سماع الحقيقة، ولم ألوث الماء، ولم أحنث في يميني . . . . أني طاهر أني طاهر)، وما ان انتهى من قراءة هذا النص حتى انحنى على القبر، وتداعت افكاره، عادت تذكره انه يوم قرأ كتاب (الحضارات الاولى) لجوستوف لوبون اعتقد ان العرب هم السباقون الاوائل في اكتشاف قوانين الحضارة، وليس (كما يدعي الغرب) ان العرب عالة على العقل

الاغريقي، يقول احد نصوص لوبون: (كان الناس يعتقدون ان اليونان غير مدينين في فنونهم وآدابهم لغيرهم من الامم التي سبقتهم، ولكن هذا الرأي لم يعد ممكناً التسليم به، فانه وان كانت الحضارة القديمة قد بلغت الأوج في بلاد الاغريق، الا انها ولدت ونمت في الشرق، ونحن نعلم اليوم انه في العصر الذي لم يكن اليونان فيه الا جهلة برابرة، كانت هناك حضارات لامعة مزدهرة على ضفاف النيل وفي سهول كلديا. .)، وعبر الى قرى اخرى، الى الاهرامات وكان كلما يلتقي شاهدة او حائطاً مائلاً الى آثار قصر قديم، يحدث في محتوى آثار الكتابات القديمة، ويسجلها حرفاً حرفا، وعندما تصير الاحرف نصوصاً، يجعلها مصادر لكتبه وأبحاثه، فهو من الكتاب اذا كتبوا اسندوا كتاباتهم الى المصادر، لانه يكتب علماً، والعلم اساسه المصدر، وهكذا انت ترى في كتب راجي عناية فائقة في انتقاء المصادر، ولا يأخذ من مصدر الا بتدقيق، حتى لو كان المصدر بعيداً عن بغداد بملايين الامتار. . المهم، انه في مصر رحل الى عالمين، عالم الاخلاق الاولى التي كانت تقدمها النصوص الطبية المحفورة في الآثار، وعالم الاخلاق الطبية المعاصرة التي قدمتها له مؤسسات الادوية، فرأى ان هذا الانسان المصري العربي واحد يسعى الى خير الانسان وسعادته، وعندما عاد الى بغداد كتب حالاً في بحث من بحوثه: من هذه الخصال الرفيعة والمثل العالية والصفات الحميدة (والتي وجدها في آثار مصر)



لندع الافكار تتفتح !

والتي يجاهد العبد للتمسك بها ليقابل الأله وهو طاهر من دنس الدنيا ومن الانزلاق في ايذاء الغير تدل دلالة واضحة وأكيدة على انه كانت للمصريين في تلك العصور اخلاق عملية رائعة وحياة سلوكية ممتازة، وكانوا يعتقدون بالخير الذي يستدل عليه من خلال سلوكهم في الحياة، ومحاسبة الضمير والوازع الداخلي، الامر الذي دفعهم للحث على عمل الخير والابتعاد عن الشر للوصول الى الفضيلة في هذه الدنيا. .

* * *

وكما قلت في فصل سابق، انه مفطور على (طبع اجتماعي) وهذه المؤتمرات التي يذهب اليها تحقق لـه (توازناً نفسياً) في طبعه الاجتماعي، ففي سنوات ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧ شهدت يداه اروع الامثلة في التخطيط لمؤتمرات طبية عقدت في بغداد وبعض محافظات القطر، تعاونه في ذلك كوكبة من الاطباء اللامعين: الدكتور عزيز محمود شكري والدكتور طلال ناجي شوكة والدكتور فؤاد حسن غالي والدكتور سالم خطاب عمر والدكتور مكي الواعظ، ومن يقرأ اخبار هذه المؤتمرات يجد انها اعادت «هيبة» دار الحكمة في زمن المأمون، حينما كان المأمون يرسل الاطباء الى الحارات والاحياء الشعبية يقيمون مهرجانات الطب، في نشر الدواء الجديد والتحدث عن الدواء الجديد، ولم تسعه بغداد، فذهب الى الموصل يعقد مهرجاناً طبياً عرف بالمؤتمر الطبي الربيعي الذي احتشدت فيه الخبرة العلمية العراقية،

نشرت فيما بعد بدراسات ومقالات في المجلات الطبية، ثم ذهب الى البصرة وأقام فيها المؤتمر الطبي الخريفي، كان ملتقى كبيراً، مناسبة مهمة، يعلن فيها اطباء شباب، نظرياتهم في الطب الحديث.

مراكش :

وحتى هذه الطائرة التي كانت تطير به فوق البحار كان لا يمر فيها وقت الا وأثار فيه جدلاً في تراث الطب، وما ان يجادلوه حتى تراه قد أتىٰ على جديد في هذا التراث، وعندما حطت طائرته في مراكش (المغرب العربي) في اواسط الثمانينات، ويوم أراد ان يسلم قلادة رئاسة المؤتمر الدولي للطب والصيدلة العسكري، لمدير الامور الطبية المغربي، تواصل حوار الطائرة الى مقاعد المؤتمر، ثم الى قاعة للنقاش، وكان عنوان حواره (مؤسسة للتراث الطبي)، أي ان راجياً طلب من الاطباء العرب ان ينشئوا معهداً كبيراً يحيي فيه الامجاد العربية الاولى في الطب، فنصف ذلك الطب جربه الآن ونجح، وفيه بصماتنا الذاتية، وفيه علاج سهل، ووصايا طبية سهلة واقتصاد فى النفقات، ودل على الخريطة

التي يمكن ان نصل بها الى ذلك الطب، ولكن اكثرية الاطباء كانوا يعتمدون على (التقنية الغربية) فاعتبروا فكرة راجي من (أوهام الماضي) فماتت الفكرة، ولكنها بقيت الى يوم ينهض بها راجي ويحققها في قاعة من قاعاته الطبية، وفي هذا المؤتمر الذي حضره الملك والوزراء واطباء عالميون، نبه في كلمته الارتجالية الاولى الى اننا ينبغي ان (نحافظ) على هويتنا الطبية.. وكل حديث عن القوة العربية ما لم يقترن بترصيف الهوية هو وهم في وهم، اعجب الملك بحديثه برد جميل، واعجب بـه كتاب اطبـاء، عسكريـون وخبراء، فقهيـون ومؤمنون، ومنهم من قال له: (الى التراث) وأخذوه الى مدن التراث في المغرب العربي..

* * *

لكنهم أخذوه الى اجمل البقاع الى (جبال الاطلس)، وعنـدما وقف راجي عبر دورة جبلية في هذه المناطق ذهب خياله الى الفتوح العربية، الى تاريخ مملوء بالايمان والقوة ويقظة الذات (هنا رأيت فتح العرب...) ربما كان يسمع صدى سنابك خيل عقبة بن نافع الفهري

او حسان بن النعمان الغساني او موسى بن نصير، ربما تداعت افكاره في وهـج الماضي، الادارسـة، المرابـطون، الاندلس، (هؤلاء كنت ابحث عنهم في هذا المكان) وجلس، وهنا جلس في رباط يطل على ناد أخضر، ورأى قبائل الاطلس، غنوا لـه عندمـا عرفـوا انه تـراثي، ورقصوا له عندما ادركوا انه من العراق، كانوا يقدمون له فولكلوراً مصنوعاً من وجدانهم القديم، وأقاموا له الضيافة على سعتها، القهوة ممزوجة بعاطفة العرب، وأكلات ظنها راجي انها من مائدة الفهري، وتحدث لهم بشيء من تاريخ (الكامل في التاريخ) وبشيء من اخلاق الصحراء، من كتاب (المؤنس في اخبار افريقية) وبشيء عن الانساب والمصاهرات من كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) او في (تفسير ابن باديس) وظنوا انه عالم في التاريخ، وظنوا رحالة من نسب جدهم ابن بطوطة، وتطير به الطائرة، ومن السماء ينفذ الى الارض عبر جملة من الارقام رآها اعداداً واضحة (٢٢هـ ، ٨٨هـ)أظن انه كان يرى ارواح عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي تحوم فوق هذه الارقام، يوم قضيا شهيدين في تحرير المغرب وسط عشرات من الشهـداء، كلهم رفعوا الراية بلا أنين.

ثم استظل بالمحيط الاطلسي، تلك مدينة الدار البيضاء، قبو اثاري بوجه صناعي، وهناك عقد ندوة، تحدث بما يشبه التاريخ (هل

نحن من أرث حضاري) أجابه بحاثة مغربي: (نعم، ولا بد ان نجتمع على كلمة سواء. . .) وطال حديثه وهو ما زال في سماء المحيط الاطلسي، حتى نام في ليل الرباط العاصمة، (وأنا على مفترق طرق التراث) وفي النهار رسم بيتاً من الشعر على كف تل من تلول الرباط، وفي الظهيرة غاب مرة اخرى في امواج الصخور التي تمتد على ساحل المحيط الاطلسي، وكتب على صخرة بيضاء: (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا) وكأنه يكتب الكلمة المثلى التي قيلت على شهداء الفتح العربي الاسلامي للمغرب وعلى كل الشهداء الذين يحررون امتهم بالدماء الاولى والانفاس الاولى. . . !

الأفق الابعد :

وشيئاً فشيئاً كان أفقه يترامى الى البعيد، في شهرة قلما تتاح لطبيب عراقي، فمنذ عين ملحقاً طبياً في السفارة العراقية بلندن، وهذه المنابر الطبية العالمية أخذت تسلط عليه اضواءها، وتنشر اخباره، ولا سيما وقد عرفوه قبل ذلك محاضراً لبقاً في ندوات طبية عندما التحق بمستشفى (مدلسكس) سنة ١٩٦٨ لمكافحة (الرثية). .

وهو في هذه الملحقية الطبية ١٩٧١ دعي (كمستشار) في مجموعة مستشفيات هارولد وود وبرنتوود، فعمل كمجتهد في امراض المفاصل

وبرهن على انه خبير في التأهيل الطبي يرجعون اليه في حالات شاقة، وفي ثمانية اشهر سجل اضافة في اختصاصه على كثير ممن هم في اختصاصه، حتى فاتحوه: (ان يكون بينهم مستشاراً ثابتاً..) فلم يقتنع، فهو لا يمكن ان يبيع ماضيه وعواطفه بدراهم من ذهب او بقصر من فضة، فعاد الى وطنه، الى تاريخه، (فلا بد ان أكون أقوى ساعداً وأقوى عقلاً..) عاد بوعي أمضى، في تجربة طبية غنية، يحمل من المتحف البريطاني أجمل مخطوطاته في الطب القديم، ويحمل أوسمة التقدير من مختبرات كبرى..!

* * *

واتيحت له فرصة الحضور الى المؤتمر الدولي لمكافحة امراض المفاصل الذي عقد سنة ١٩٧٣ في مدينة (كيتو) في اليابان (وكان الوحيد من العراق في هذا المؤتمر) ومن خلال ابواب هذا المؤتمر أقام علاقة بحث وجدل مع العديد من علماء الطب في العالم، كالدكتور (باس...) الخبير في فحص ناظور الركبة، والدكتور (دوثي...) استاذ امراض المفاصل في جامعة (ادنبرة)، والدكتور (روبنسون....) من اسبانيا والدكتور (موش...) من سويسرا، وغير هؤلاء كثيرين مازالت كلماتهم ورسائلهم طرية في مكتبة راجي، ومن خلال وثائق هذا المؤتمر حقق شيئين مهمين، الاول: انه فاتح اعضاء الاتحاد الدولي لامراض المفاصل بانضمام العراق الى عضويته

فوافقوا بشرط ان تكون للعراق جمعية بهذا الاختصاص، فلما عاد الى بغداد تم انشاء هذه الجمعية وصار العراق عضواً في هذا الاتحاد، والثاني: انه أفاد من هذا المؤتمر (كيف يجري فحص الركبة بالناظور) من خلال دراسته للخرائط والمصورات والبحوث التي تتعلق به، ولما اكتملت عدته استورد العراق هذا الجهاز، وأخذ راجي يفحص به المرضى في مستشفى الرشيد العسكري ولأول مرة في سنة ١٩٧٥، فأزال ألماً وحقق أمناً طبياً وأنعش نفوساً بعد صماً الى التقنية الحديثة . .

المؤتمر الاوربي :

ولا أدفع رأيي الى المبالغة ان قلت، ان راجيا التكريتي صار اسماً معروفاً في (قوائم) الاوربيين، ان فكر الاوربيون في اقامة مؤتمرات لأمراض المفاصل، وان أرادوا لهذه المؤتمرات ان تثمر عن بحوث فيها العلم بقدر الجدة وفيها النظرية بقدر تطبيقها، ففي سنة ١٩٧٥ وجهت له الدعوة لحضور المؤتمر الاوربي الخامس والعشرين لمكافحة امراض المفاصل الذي عقد في هلسنكي، جنباً الى جنب مع خبراء عالمين، العالم الفرنسي الذي ادخل عقار الذهب في معالجة (الرثية)، والطبيب المشهور (بريورتن) الذي نال المفتاح الذهبي من هذا المؤتمر، عن احد بحوثه العلمية . .

في هذا المؤتمر قدم راجي بحثين: الاول . . عن فائدة عقار

(فولتارين) في معـالجة (الـرثية) المفصليـة، والثاني. . في استعمـال الامواج فوق الصوتية في معالجة التكلسات التي تحدث في الكتف، وقد أثار في هذين البحثين جدلاً واسعاً في المؤتمر، لأن راجيا جاء بجديد العلم، حتى ان مجلة اسكندنافية نشرت خلاصة للبحثين قبل ان تنشر بحوثاً لعلماء مشهورين. . !

* * *

وانه لمن الفخر، ان نرى طبيباً بيننـا يقيم الدليـل على شهـرة آسيوية وافريقية واوربية، من دون ان ينشر او يمهد لشهرته، ومن دون ان (يتشبث) بهذه الشهرة، انما اشتهر لحق في طبه وتطبيبه، ولحق آخر، هو علمه الذي ما جاء اليه سهلاً منقاداً الا بسهر الليالي، الا بعد تعب مر، ومعاناة مرة، في مختبر وفي كتاب، انـه يداوي مـرضاه بقلبـه، وبسعادة من ضميره، وبسلامة نية، وبالحكمـة التي تعلمها من ابن سينا، التي هي (فضيلة العلم)، وأدرك الاشياء التي من شأن العقل الانساني ان يدركها، لا يلحقه فيها خطأ ولا زلل. . !



لقاء مع مدير الامور الطبية الالماني في السبعينات

في بعض اسراره ..!

والاطباء لايعطون اسرارهم ، قال ليس كلهم ، فقلت له :

س - أقسى لحظة مرت عليك ..؟

ج - حملة تعذيب بشعة ١٩٥٩ ..

س - ابهى لحظة عشتها ..؟

ج - بعد رجوعي الى الوطن اثر اجراء عملية خطرة انجزت لي في لندن ..

س - متى تفكر بالموت ..؟

ج - عندما افكر بالوجود والحياة والاخرة ..

س - كيف يعرف الطبيب الحرية ..؟

ج - الحرية ان تفكر وتعمل دون قيود او اشباح تغلف العقل عن التعبير السليم ..

س - هل انت حر في تصرفاتك ..؟

ج - نعم والى حد كبير ..

س - متى تشعر بالخيبة ..؟

ج - عندما انجز عملا ابغي به الخير فيفسر عكس ذلك ..

س - يقال بانك معزول عن وسط الادباء ..؟

ج - لا اعتقد هذا ، وكثيرا ما اعطيت الاسبقية لنشاطي الادبي على امور حيوية اخرى ..

س - كيف يعرف الطبيب الانانية ..؟

ج - عندما تسيطر الأنا الاعظم على الشخص وينسى كل القيم والمفاهيم الانسانية ..

س ـ هل انت اناني ..؟
ج ـ لا اعتقد ، وان وجد في داخل كل انسان شعور خفي بحب الذات ..
س ـ يقال بانك تكره الواسطات ..؟
ج ـ الواسطات آفة اجتماعية وادارية كبيرة ، ولكني افرح للشفاعة التي ارجع فيها حقا لمغبون ..
س ـ من اين جاءت (الجهامة) الى وجهك ..؟
ج ـ انها آثار الصراع المرير مع الحياة ومنذ نعومة اظفاري والى يومي هذا ..
س ـ اي صنف من الناس يصاب بالكآبة ..؟
ج ـ الذين يحصرون تفكيرهم بذواتهم وينسون هذا العالم الفسيح من الحياة ..
س ـ متى يصير البريء شريرا ..؟
ج ـ عندما يسحقه ظلم المجتمع ..
س ـ ومتى يصير الشرير بريئا ..؟
ج ـ عندما يشع بصيص الخير من اعماق نفسه ..
س ـ هل عشقت ..؟
ج ـ لا اعتقد هذا ..
س ـ كيف تعرف الشرف طبيا ..؟
ج ـ ان يحافظ المرء على كرامته من ان تثلم ، وقيمه من ان تنال ، ومثله من ان تهان ..
س ـ متى تصبح عالما ..؟
ج ـ لا اعتقد بانني ساصبح عالما ، لانني تلميذ علم دائما ..

○ حال الادوية !



.. ومن الادوية ماتحمل تاثيرات اذا ما اخذت بكميات كبيرة ـ كالزرنيخ مثلا في معالجة الزهري او (الفنيل بيوتازون) في معالجة امراض المفاصل وتاثيراتها على الدم والمعدة ـ (الكلى والقلب) او (الادوية المسممة للخلايا) المستعملة في الاورام السرطانية ـ فهذه تعطى من قبل اطباء اختصاصيين متمرسين (وذوي خبرة في اعطاء هذه الادوية) ..

او استعمال الادوية المخدرة كالبثدين والمورفين والتي يصح استعمالها في الحالات الحادة ولفترة محددة ولكن ليس في الامراض المزمنة والآلام غير الشديدة لان في هذه الحالات قد يصيب المريض الادمان ـ وما قد تحدثه من خلل جسمي ونفسي واخلاقي او التعود على اخذها . ولذا فعلى الطبيب ان يفكر مليا حتى قبل ان يعطيها اول مرة .

واحيانا اخرى تعطى ادوية لحالات معينة عندما يكون الالم شديدا والمرض متقدما ومسببا للمريض آلاما مبرحة لاتمكن السيطرة عليها باي اسلوب اخر ولذا قد تدعو الضرورة الى استعمال اية ادوية لتخفيف الالم حتى القوية منها والتي قد تسبب فقدان الذاكرة .

[من رسائل راجي التكريتي الى المطبعي]

الفصـــل السابـــع

ثمار العقل في ذاكرة الأيام



محاضراته لم تنقطع عن التراث الطبي العربي

واكتشف في أواخر الخمسينات، انه لا يمكن ان يبقى طبيباً دون بحث مستمر، وانه لو بقي طبيباً دون هذه المعاناة في البحث والاستقصاء والاستدلال ونشر الحقائق بين زمن وزمن، لكان كمن يمتص قواه الذاتية شيئاً فشيئاً، حتى يبدو في يوم ما، جسداً هزيلاً، ونفساً تضمحل فيها الطاقة، وعقلاً فقد تفاعله مع هذه الحياة، لكنه كان مدركاً ان في عقله مزايا من طاقة علمية، فأخذ يبتكر لها اساليب الوعي والتفاعل والانتشار، وانصرف منذ ذلك الوقت الى البحث والاجتهاد في هذا البحث. .

ملامحه في منهجه :

ومنهجه في بحثه كان ينتمي الى ثلاثة اشكال في ثلاث مراحل :

١ ـ تطوير الصفة العلمية في اختصاصه، عندما كان في مستشفى الرشيد العسكري، وفي عيادته الخاصة (بعد عودته من لندن) مباشرة، اذ كان لا يترك التجربة تمر بلا تمحيص او تفكر، فاذا رأى انه عثر على شيء جديد، فسرعان ما يسجل احداث هذه التجربة ويقارنها بتجارب اخرى في نفس مرض المفاصل مثلاً، وغايته ان لا يبقي الحالة على حالتها، وهذا الجديد يطوره الى الاحسن ثم الاعلى بالقياس الى علاج المرض في محيط العالم، اما اذا توقف عند شيء غامض في ذاك المرض، فانه لا يترك الغامض غامضاً الى أبد، وانما يسعى الى فتح مغاليقه بمزيد من التجربة الرياضية العقلية، فيقضي

اياماً للوصول الى (الحل المناسب) او الحل الوسط في نظرية (التأهيل الطبي) وهو الحفاظ على بقايا جسد المريض، بحسب اجتهاده في هذا التأهيل؛ وهكذا فانه لم يكن طبيباً (فاحصاً) فقط او طبيباً (مشخصاً) فقط، وانما يفحص ويشخص ويضع علامات في العلاج، ويدعم هذا العلاج بفرضيات علاجية، لعله في هذه الفرضيات، وفي زمن ما، يهتدي الى نظريات تصبح في ما بعد ارقاماً علمية ثابتة للعلاج، وله في ذلك العديد من البحوث، الناجحة او التي في طريق الاجتهاد والحسم الاجتهادي، كما حدث في بحوثه عن انضغاط العصب الوسطي عند الرسغ، في وقت كان اطباء آخرون يذهبون الى ان السبب في هذا المرض هو (الروماتيزم) او بسبب الضلع الزائد في أسفل العنق، بينما كان يتوصل اليه عبر (القراءة للعلم الحديث) في المختبر يومياً، الى ان اكتشفه، وطبق تشخيصاته عليه، ونجح في هذه (الآفة البسيطة) وغدا الاطباء، في الثمانينات (والجراحون ايضاً) يشخصون المرض تشخيصاً ناجحاً وسهلاً، وكذلك جاءت بحوثه في (حالات تشمع الصلب) او اهمية (مياه الحمامات المعدنية في علاج امراض المفاصل) وغير هذه البحوث التي بلغت العشرين، والتي لولا تشغيل طاقاته العقلية في اجتهاد التجربة اليومية لما اهتم بها الاطباء والجراحون، ولما نوهت عنها مجلات طبية عالمية..

٢ ـ وفي ما بعد الستينات كان يذهب باختصاصه الى الميدان

اكثر فاكثر، واراد ان تكون خبراته المتراكمة (في خدمة العام) فاجرى مزيداً من التجارب على الأدوية، حتى قبل ان تـدخل هـذه الادوية (السوق العراقية) واستخدم في ذلـك اسلوب (البحث المقارن) عن عقار (بروفين) وعقار (فولتارين) وكتب في هذين العقارين دراسات عرفت على صعيد المؤتمرات الدولية (لا سيما في المؤتمر الاوربي الذي عقد في هلسنكي ١٩٧٥) بأنها الدراسات الجديدة في (علم الادوية) لكنها بقيت دراسات نظرية (في مجال الشهرة الطبية) لأن راجيا لم يقدم لي وثائق تبرهن على ان دراساته في الادوية أخذت طريقها الى المعامل العالمية.

٣ ـ وابتداء من سنة ١٩٧٧ اتجه بحثه الى التراث الطبي (اتجاهاً تطبيقياً)، فبعد ان تلقى الاطباء او القراء هذا التراث سرداً في تاريخ او حكايات طبية في كتب الاولين، لمجرد ان يقرأوا مجداً في تراث، ولمجرد ان يستلهموا تذكرة في ماضي العرب البعيد، كان راجي يقف على (عتبة اخرى) في قراءة هذا التراث، كان يستخلص آراء وافكاراً في هذا التراث، ما زالت تتمتع (بصحـة علمية) وينقلهـا الى المختبر، يحولها الى واقع، يبعث فيها دماءها الاولى، ويبرهن على نظرات حديثة في طب عربي قديم، وبذلك فقد أزاح النقاب عن كثير من نظريات علمية عربية قديمة وقف الطب الحـديث عندهـا او يخطيء الاطبـاء باعطاء آراء حولها !

وراجي لا يفتعل التاريخ في المختبر، انه لا يريد ان «يقحم» التراث في هذا المختبر، كما انه لا يريد ان يفتعل الماضي في الحاضر، في نزوة من نزوات التخيل القومي، وانما هدفه في هذا التراث ان يطور حالة الطب او حالة اختصاصه، في أي قانون يرى فيه مجالاً للتطوير، وفي أية حالة ماضوية يرى انها تكمل حلقة من حلقات علمه الحديث، انما المهم الاكثر، هو (خلق) الجدل في المعلومات القديمة والحديثة، فالطبيب لا بد ان يكون حيوياً في عيادته لا سيما ان لكل زمن امراضه، ولكل حقبة علاجاتها لهذه الامراض، فان لم يقرأ الجديد على القديم، ان لم يكن متفاعلاً في نتائج جدله، فهو طبيب ساكن، تشخيصه ساكن، وعلاجه لا بد ان يؤدي الى نتائج ضارة، وهؤلاء الاطباء الحيويون هم اللامعون المشهورون في عياداتهم، وهم ايضاً يستحقون الأجر الحلال والحياة الحلال والضمير الحلال، والا لماذا يبقى راجي التكريتي واضرابه في مكتبته الى ليل اخير من كل يوم، وينشر على منضدة الكتابة ستة كتب، اثنين منها من القديم واربعة منها من الحديث، ويفتحها ويتفحصها، ويبذل طاقة من عينيه وطاقة من جسده، وربما ثلاث ساعات يقرأ عشرين سطراً من كل من هذه الكتب، حتى يستطيع ان يلم بفكرة ويقارن في هذه الفكرة، ويستنبط فكرة او قانوناً، وربما سنة واحدة يكتشف خيطاً من خيوط ذلك

القانون، لماذا يبذل كل هذا البذل، انه لا شك، في ان يطلب سعادة الآخرين . .

* * *

اذكر انه عندما اراد ان يبحث عن كلمة (الآسي) وهو الطبيب في التسمية التراثية، فتح ثلاث موسوعات كبيرة في اللغة العربية يفتش فيها عن جذر الكلمة واحكامها، ولم يقتنع فذهب الى كل كتب ابن سينا والغزالي وابن رشد، ولم يقتنع الا بعد رحلة مضنية من تعب الليالي في عشرين مصدراً، حتى الغربي من هذه المصادر، الى ان هدأ جوعه الروحي فقام يكتب بحثاً في الآسي والأسية: (أس الجرح أي ضمده، شده، والمؤاساة غير خافية في معناها اللغوي العميق) ربما جاءت هذه الكلمة منحدرة من اصول لغتنا الجزرية القديمة حيث وردت في النصوص القديمة بصيغة (آسو) وأسي ورب أس (لكبير الاطباء). . وتراه اميناً في نقل هذه المصادر الى بحوثه وكتبه، ولا يكتفي بايراد المصدر في اسمه، وانما يشير اليه كاملاً في السنة والطبع والمؤلف والمترجم والمحقق وغير ذلك، ويجاهد في ان تكون مصادره متنوعة، غربية وشرقية، على هيئة معاجم او موسوعات، او رسائل او كراسات او مخطوطات، فهو يبذل على المصادر (ثروة) كبيرة من ماله الخالص، وحتى اذا كتب في بحر هذه المصادر فانه (تبعاً لنزاهته) يأخذ رأي اصدقائه في ما كتب، فلم اعرف عنه (غروراً) في كتابة او بحث او

كتاب، حتى اسلوبه او لغته في هذه الكتابة يعرضها على من يجد فيه ضلاعة في اللغة وتبحراً في اساليبها، ويذكر فضل هؤلاء في كتبه كما يفعل العلماء في تصانيفهم. . . !

ابن التلميذ :

وامتدت ابحاثه الى الشخصيات العربية والاسلامية، فراح يكتب سيراً في معاني رجال الطب واخلاقهم ومجتمعاتهم ومدنهم، يقدم فيهم الجديد الذي كان خافياً عن كثيرين، ويربط مجدهم بظروفهم وتاريخ حقبهم، على انه يعمل في هؤلاء ما يعمله الكاتب المسرحي في تقديم شخصياته الى خشبة المسرح، فيحرك فيهم التذكار والعبرة والاقتداء، ويقدمهم على انهم صفوة وهبهم الله قدراً كبيراً من قوة العقل والموهبة والابداع والانجاز، وانهم اطباء اخترعوا ما لم يخترعه اليونانيون او غيرهم، وحكماء جاءوا بحكمة تلبي دعوة الانسان بالشفاء والغوث، ومن هؤلاء (امين الدولة هبة الله بن التلميذ) وهو من الاطباء المشهورين الذين تركوا آثاراً واضحة في الطب علماً وممارسة ومهنة مقدسة، حيث جمع الى سعة علمه في الطب، العلم في الهندسة والفلسفة والادب والشعر وتخرج على يده العديد من اطباء العرب، وكان يغلب عليه لقب ابن التلميذ، وجاء اليه عن طريق جده لأمه، ولد ببغداد سنة ١٠٧٣ وتوفي فيها سنة

١١٦٥ . .

وكان منهجه في تقديم هذا الطبيب العالم يدور في محاور ثلاثة، الاول في شـرح حالاتـه الشخصية ونشـوء موهبتـه في تعلم اللغات الشرقية القديمة بما يشبه سيرة تاريخية تكون الاخلاق فيها سمة واضحة بارزة، والثاني تقديمه بمواهبه الاخرى كالموسيقى وكان بـارعاً فيهـا، والهندسة، وكان ابن التلميذ يدرس هذه العلوم، وله قول في ذلك: (العالم الذي هو غير معلم بخيل . .) والثالث كان راجي يعرض لأهم انجازات ابن التلميذ الطبية، ويروى عنه انه (احضرت اليـه امرأة محمولة لا يعرف اهلها في الحياة ام في الممات، وكان الزمان شتاء، فأمر بتجريدها وصب الماء المبرد عليها صباً متتابعاً كثيراً، ثم أمر بنقلها الى مجلس دفيء قد بخر بالعود والنـد ودثرت بـاصناف الفـراء ساعـة، فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع اهلها الى منزلها . . .) وبين هذه المحاور يروي راجي التكريتي عن اهم كتب ابن التلميذ ومقالاته ويشرح عن طبائعه ونوادره، حيث لا يترك جانباً من جوانبه النفسية والاجتماعية الا وذكر فيها شيئاً من اشياءه الشخصية المميزة، وهذه السيرة او غيرها، عن ابن البيطار او غيره (وقد تجاوزت كـل واحدة اكثر من ثلاثين صفحة) لو طبعت كلها لقدم لنا راجي مسلسلاً ذهبياً عن نوابغ الفكر التراثي العربي، او لو عرضها التلفزيون لجاء الينا بماضٍ درامي حي . . !

* * *



عندما كان رئيساً للجنة الدولية للطب والصيدلة ومقرها في بروكسل في أواسط الثمانينات

وولعه في التراث الطبي ادىٰ به الى التعمق في الحضارة العربية في هـذا التراث، فقـد رأيت في (عشرين) حـافظة جلديـة في بيته، مقالات وبحوثاً في موضـوعات الحضـارة، كتبها في ازمـان مختلفة، بعضها كتبت لمجلات ولم تنشر، وبعضها لمحاضرات حاضر فيها في الجامعات، العراقية والاوربية، ويغلب على هـذه البحوث: السـرد التاريخي والمقارنة بين الحضارات وتوكيد الاصالة العربية وأهمية فضل العرب على أمم وشعوب العالم، والاجتهاد قليل في هذه البحوث الا في حالات كان راجي التكريتي فيها مستنتجاً ومستنبطاً، لكنه كان بارعاً في سرد مؤهلات الحضارة العربية من المنبع الى المصب، وبارعاً في ايراد الامثلة على تميز الحضـارة العربيـة (الجذر والعقـل)، فقد عـد هذه الحضارة (جذر الحضارات الاخرى) وعقلها مستقل، عربي في المنبت والنشأة، ولقد وضع لكل مثل من أمثلته تـاريخاً يـدل به عـلى نشوء الحضارة العربية، وتاريخاً آخر يدل به على تأثر الحضارات الاخـرى بالحضارة العربية، مستخدماً في هذه المقارنة الاستنتاجية أهم مصادر وموسوعات الحضارة الاغريقية او مـوسوعـات الشعوب الاخـرى، لكنني قلت لراجي ما فائدة هـذه البحوث الحضـارية ان ابقيتهـا في حافظات جلدية، فلا يمكن ان تستقـر الحقائق في البحـوث الا بعد نشرها للنـاس وللقـراء وللمختصـين، والنشـر امتحـان في قيـاس الحقائق..!

كتبه ومؤلفاته :

وبالقياس الى عمره (١٩٣٣) فان راجياً قد تـأخر في تـأليف الكتب، اذ هو ألف اول كتاب بعنوان (حفلة تعذيب صاخبة) وطبعه في سنة ١٩٦٤، وكان في مـرحلة الصبا قـد كتب بحثاً بتـوصية من مدرسه في الثانوية بعنوان (الرصافي وأدبه السياسي) في حدود اواخر الاربعينات، ولم يطبعه، وكلما نظر اليه في مكتبته عـاوده الحنين الى ذكرياته الاولى في حبه وتعلقه بشعر الرصافي، ورغم ان هذا المؤلف بسيط في افكاره، وافكاره هي افكار برج التمنيـات، الا انه يحمـل عـاطفة وطنيـة تؤرخ لراجي ظهـ ميولـه الوطنيـة في بدايـة تبلوره السيـاسي، على ان وضـوحه ا ي كان في كتـابه الاول (حفلة تعذيب . .)، وهو مجموعة افكـر عن تعذيب وقع عليه سنة ١٩٥٩ في سجن من سجون بغداد، وقد كتبه مثلما يكتب السياسيون مذكراتهم، حينما يعانون حصاراً ما او ازمة نفسية او موقفاً من المواقف الصعبة التي تواجه الفرد.

* * *

وفي ذات السنة ١٩٦٤ اصدر كتاباً باختصاصه اسماه (امراض المفاصل)، بعد ان وجد (من خلال ممارسة اختصاصه) ان غموضـاً يحيط بأمراض المفاصل في العراق، وغموضاً في انواعهـا، والوقـاية منها، والناس لا تعرف اياً من هذه الامراض يؤثر على القلب. .

وكان شرحه موجزاً لأهم امراض المفاصل، مبتدءاً بسوفان المفاصل، والحمىٰ المفصلية، وتشمع الصلب، والنقرس، وروماتيزم العضلات، والتهاب المفاصل الكدمية والتهاب المفاصل الجرثومية، والعضال الرثوي . . . الخ، وفي الكتب ولا سيما في هذا الكتاب الذي نبه التشخيص والعلاج على قدر واحد، يوصي راجي وصايا حول علاقة علم النفس بامراض المفاصل، ويوصي بالغذاء الملائم لكل نوع من انواع امراض المفاصل، وفي الكتاب فصل عن دور الطب الفيزيائي والعلاج الطبيعي في معالجة امراض المفاصل، كما تحدث عن موضوع مادة الكضار الكورتيزون . . ومشتقاته في معالجة امراض المفاصل. . وكيف يعطى هذا العقار (المهم والخطر في آن واحد) وحيث ان اموراً طرأت وتبدلت وتطورت في امراض المفاصل، فان راجيا قد اعاد النظر في كتابه هذا، ووضع له منهجاً جديداً في كتابة فصول جديدة له، واعادة كتابة بعضها . .

العلاج بالصيام :

وقام بترجمة كتاب عن الانكليزية بعنوان (الصيام والصحة) وهو في الاصل قد الف باللغة الالمانية لمؤلفه الدكتور (أتو. أف. بوجنكر) وهو طبيب يملك (مصحاً) يعالج فيه مرضاه بواسطة الصيام، ومن خلال خبراته في هذا المصح الف هذا الكتاب، اذ قال فيه ان الصيام

خير علاج لأمراض ضغط الدم وأمراض القلب والربو والمعدة والسكر وامراض المفاصل، ويصفها وصفاً شيقاً، وقد وضع راجي للكتاب مقدمة اثنى فيها على المؤلف وخالفه في بعض آرائه . . في ان الصيام لم يكن لفائدة الاجسام حسب وانما الاسلام خاطب به الاجسام والنفوس وتربية الاخلاق ومعالجة قضايا اجتماعية ودينية اخرى، وهذا الكتاب الذي طبعه سنة ١٩٦٦ (وكان راجي يشغل مدير واختصاصي شعبة الطب الفيزيائي وأمراض المفاصل في مستشفى الرشيد العسكري) هو اول مجهوده في الترجمة، وقد نفد الكتاب بفترة قصيرة، وطلب منه ان يعيد نشره . .

السلوك المهني :

في سنة ١٩٦٨ أثير جدل في مجلس المرحوم العميد عبدالرحمن التكريتي حول (هل الاطباء انسانيون حقاً . .) وقد القى هذا السؤال الصحفي المعروف شاكر التكريتي، مبتدئاً جلسة مسائية من النقاش وردود الفعل حول هذا النقاش، وكان لا بد لراجي التكريتي من ان يرد على ذلك السؤال بجواب، ثلاثة ارباعه مع الاطباء وربع ينتقد فيه الاطباء . . وكل هذا النقاش الذي دار في تلك الجلسة كان فكرة اساسية أوحت لراجي بتأليف كتاب يشرح فيه فلسفته في الطب وتجربة الطب والاطباء، وانجز الفكرة، وطبع الكتاب في سنة ١٩٧٠، وأعيد طبعه في سنة ١٩٨١ وكذلك طبعة ثالثة سنة ١٩٨٨ تحت عنوان (السلوك المهني للاطباء) . .

حقاً هو كتاب الاطباء، اذا أريد للاطباء ان يكون لهم كتاب يوضحون فيه تجاربهم، وشهادة لهم اذا أريد ان يساء لمهنتهم المقدسة، لأنه عبر (٥٠٠) صفحة (موزعة بـ٣٥ فصلاً) كان راجي ينقلنا الى رحلة انسانية في عالم الطب، يعبر الحدود ويدخل تاريخ البلدان، ويصف لنا كيف كان وادي الرافدين يمارس طباً ويؤسس فيه الاطباء العراقيون، السومريون والبابليون والآشوريون، دوراً للطب والعلاج ويبتكرون الوسائل في التطبيب الجماعي، كان في رحلته الطبية لا ينسى الهند والاغريق والصين وشعوب القارات الابعد، فهذه الشعوب والقارات كانت تتأثر بقارة العراق آنذاك، وتأخذ منها اساليب صنع العقار، وأساليب العلاج والوقاية، كيف كانت القارات كلها تصنع الفضيلة وترشد الى الفضيلة وتنبذ الرذيلة، يرسم راجي السؤال ويجيب، معتمداً النصوص الدينية القديمة والنصوص الاخلاقية، معتمداً القوانين الفيزيائية وقوانين الحياة والقوانين الوضعية، ويحدد في كل ذلك اهداف الطبيب وسبل المحافظة على الحياة، والاجراءات طويلة الامد، وصحة الاطفال وحياتهم، وفي فصل كامل تكلم عن (الوشاية) في مضمون الاسرار الطبية، وعن التغلب على الألم والادوية السامة، والعقاقير في الامراض المميتة والادوية التي تسبب الادمان، وثمة موضوعات فيها علم لكنها طريفة، كالجراحة لارجاع الصحة والجراحة في الخنوثة ونقل الانسجة من الموتى

وتحديد النسل ومفاهيم (الاسقاط) حتى (الحبل المتبذ) منها.
والبرود الجنسي عند المرأة والعنانة وغير ذلك من فصول كأنها فصول
روائية، البطل فيها طبيب لا يميل الا الى عالم الفضيلة ويسعى الى عالم
الفضيلة، ويجاهد في ان تكون اخلاق الطبيب اخلاق الفضيلة، مهذباً
لا يلزم احداً بوصية، بارعاً في ان يجعل القاريء متابعاً بشوق، طالباً
المزيد في هذا الشوق، وبطل هذه الفصول الروائية هو راجي
التكريتي.. الذي ما كتب اوراق الكتاب الا في اجواء الفضيلة، الا
بعد ان مارسها بعينيه وأذنيه، والمهم انه مارس الفضيلة بقلبه، الذي
راى فيه المرضى الفقراء اجواءهم عندما عالجهم بأمانة، عندما دفأ
اجسادهم بالأجر المجان وبالدواء المجان، وبكل قامته التي توحي
بالرحمة، وبكل لسانه الذي يوحي بالعرفان، وأظن ان هذا الكتاب
موسوعة.، وأظن انه يكفي راجياً انه في هذه الموسوعة قال الحق وكل
الحق في الطبيب وفي تأميم الطب..!

الاطفال :

وأمتدت اهتماماته الى الاطفال المقعدين والمعوقين، وأصدر
فيهم كتاباً في سنة ١٩٧٠ بعنوان (شلل الاطفال)، وكان دافعه في طبع
الكتاب تزايد عدد الحالات في شلل الاطفال وتزايد عدد الحالات
أمثالها في عيادته الخاصة، عندما رآهم في عمر الزهور وقد داهمتهم

رواشح المرض واصابتهم بشلل هذا الطرف او ذاك، بل كثيراً ما أصابت هذه الرواشح طرفين او اكثر في بعض الاطفال، ومعنى هذا ان هؤلاء المصابين سيبقون (مقعدين او معوقين) طوال حياتهم، فما دور الفضيلة في راجي في ايقاف انتشار هذا المرض، وهناك دول كثيرة في العالم قضت عليه بالتطعيم وتحصين الاطفال ضد رواشح هذا المرض الوبيل..

قال في ندوة طبية عقدت سنة ١٩٦٧ في الجمعية الطبية العراقية (لنناقش معضلة المرض..) فناقشوها في جوانبها الوقائية، والعلاجية والتأهيلية، ثم قال: (لنطبع هذا النقاش في كراس) فوافقوه، ولم يوافقوه على الالتزام بوعودهم، فعقد هو الأمل، وذهب يكتب اخطر (وصفة) في هذا المرض بمئة صفحة، وضع فيها (٢٢) موضوعاً تشخيصياً وعلاجياً رأى فيها الناس (خلاصاً) في امراض اطفالهم، وكان ان تسارع هؤلاء الناس الى شراء الوصفة الكتاب، ونفدت ثلاثة آلاف نسخة منه بأشهر معدودات، ونفاذ هذا الرقم في سنة ١٩٧٠ كان يثير دهشة اصحاب دور النشر والمكتبات، وما زال بعضهم يطلب منه اعادة طبعه، لأن الكتاب لم يقتصر على موضوع طبي وحده، وانما كان نزهة تاريخية في موضوعات عصرية..!

الظهار :

ودخل معضلة اخرى ونجح، هي معضلة (وجع الظهر) حيث

ما زالت تشغل اذهان كثير من اطباء العالم، وحيث ما زالت المدنية ونعومة المدنية.. و(زوائدها) تزيد من اوجاع الظهر، وراجي يسميها.. (الظهار) على وزن (فعال)... صداع، زكام، رعاف، كباد، قلاب، وهكذا..

والف في ذلك كتاباً، طبعه في سنة ١٩٧٥، واعادت طبعه مرة اخرى دار الاندلس ببيروت سنة ١٩٨١ وطبع طبعة ثالثة سنة ١٩٨٨ (ربما بدون حقوق طبع وتأليف) بعد ان رأى الناس ان راجياً لا يحبذ أخذ امثال هذه الحقوق، او لم يكن متعطشاً عطشاً لها..

وتحدث من خلال مقدمة قصيرة في الكتاب، كيف تعامل الاطباء العرب مع اوجاع الظهر عبر التاريخ الطويل، وقام في هذا الكتاب، بوضع تصنيف اوجاع الظهر الشائعة في العراق والعالم.. ومن خلال وصف تشريحي للعمود الفقري تناول اهم الآفات والامراض التي تصيب الصلب، سواء اكانت تلك التي تصيب العضلات والانسجة أم التي تصيب الفقرات وغيرها، ثم تحدث عن الامراض التي تصيب الاحشاء الداخلية والتي تسبب اوجاعاً في منطقة الظهر وكذلك الامراض النسائية والولادة والظهار النفسي وتأثير ركوب السيارات وارتداء الاحذية والقوام الخاطيء، كل ذلك جاء باسلوب سهل مبسط (على غير عادة بعض الاطباء في اساليبهم الاصطلاحية عسيرة الفهم)، وفي شروحاته جمع راجي النصوص

الطريفة والوصايا الطبية التي ظاهرها حكم طبي وباطنها جذب ثقافي، ربما كان دافعه في ذلك، ان يقدم كتابه الى المثقف والطبيب والمعالج بشكل متوازن. . !

موضوعات وافكار :

ولا أرى ان هذه الرحلة في عالم كتب راجي التكريتي تنتهي بهذه السرعة، فكتبه كثيرة، وتنتشر فيها حكم كثيرة، واختص بها وبرع فيها، منها: (طرائف الاطباء) طبعه سنة ١٩٧٨، وهو يجمع نكات ونوادر غريبة في مدرسة الاطباء، وقد اعادت دار الاندلس ببيروت طبعه من دون أذن منه، كما تقتبس مجلة (كل العرب) بعض نوادر الكتاب في كل عدد من اعدادها، دون ان تشير الى المصدر. . . وله كتاب آخر بعنوان (الاسناد الطبي في الجيوش العربية الاسلامية) طبع سنة ١٩٨٤، وهو يبحث في اساليب الاطباء العرب القدامى في معالجة جرحى الحروب. . وكتاب آخر بعنوان (الضحك) طبعه سنة ١٩٨٥، تدور فكرته في ظاهرة (الضحك) التي عجز اطباء وفلاسفة قدماء وجود سبب في تفسيرها. .

* * *

وكتب اخرى (مخطوطات) لم يجد راجي وقتاً (كافياً) لدفعها الى الطبع، وهي تتجاوز عشرين كتاباً مخطوطاً، وثلاثين بحثاً مخطوطاً مهيكلة في هيئة كتب، وهذه المخطوطات باجمعها لا اغالي اذا وصفتها

بأنها تمثل راجيا التكريتي، في حاضره الثقافي، العقلي والاجتماعي اكثر تمثيلاً من كتبه السابقة، لانها تطوير لمنهجه القديم، وتطوير في اسلوبه، وتمثله: على انه قابل ويتقبل الجدل، وان الوظيفة لم تقعده عن هذا الجدل المستمر مع الثقافة وضروبها وفنونها، ومع الحياة التي علمته منذ الصغر، ان يكون ابناً لها، يتعلم منها، ويعقلها ويتناغم في أسبابها. . !

من بريق الماضي :

بل ادرك انه عاش حياة مملوءة بالتجارب والمحن والمصادفات، وانتصر فيها على المحن والمصادفات، كأي فرد واجه التحدي بالتحدي والرضا بالرضا، وانه من كل ذلك كان مقتنعاً، انه كلما حقق فوزاً وانتصاراً في هذه الحياة، كان هادئاً متواضعاً، في همه وغايته، وبيئته، وتدل وثائقه في السيرة الاولى وفي الاسرة، ان راجياً نشأ في بيئة اسرة متواضعة، كل دلائلها تشير الى التواضع والبساطة، فأجداده من مدينة (حديثة) كانوا ناساً من الناس، بلا قصور بل بيوت كبيوت الناس، وكانوا ملاكاً وفلاحين، وجاء بعضهم الى مدينة تكريت، فامتدوا الى احشائها، متوحدين في وجدانها، وجغرافيتها وأهلها وصاروا بيتاً او اسرة او عشيرة، فيها الغني والفقير، القوي والضعيف، واستظلوا بحاراتها وأطرافها، ومن قلب هذه العشيرة ولد ابنهم راجي عباس في سنة ١٩٣٣، طفلاً (مدلالاً) عند أبيه، وعنفواناً يقظاً عند أمه، ولم

تكن لأبيه مكتبة وانما في عقله ديوان يعرض فيه اخلاق القرية وشجاعتها وفروسيتها، فتعلم فيه ابنه راجي الجلد على الحياة والصبر في المكاره ورفع الرأس في الشدائد، ومات ابوه وكان قبل ذلك قد خسر (اغنامه) في زمن القحط، حيث كان يتاجر بها بين تكريت ونينوى وبين هذه والشام، وما زال راجي ينهل مبادىء القراءة في حقبته الابتدائية، فانتشلته أمه وهذبته تهذيباً، وهو انتشل نفسه من بحر (اليتم) فاشتغل ببيع الفواكه وعمل في البناء وصار (حطاباً) يلم الحطب الاحمر من صحراء تكريت البعيدة ويأتي به الى التنور او الى السوق، الى ان تقوم ودرس واجتهد، في البداية تعلم في مدارس تكريت وتفوق تفوقاً، وتعلم في ثانوية (الديوانية) فتفوق تفوقاً، وأقسم: (ان يدرس أصعب الدروس) فالتحق بالكلية الطبية ببغداد فنجح متفوقاً، وسلك مسلك الضباط فعذبته الظروف السياسية، حتى هرع الى لندن يواصل في العلم الذي درسه في بغداد، يواصل في النهج الذي تحدى به حياة آسية..!

* * *

وفي لندن (١٩٥٩) التحق بمستشفى كلية جامعة لندن، وعبر ممر دقيق بين المستشفى وكلية الدراسات الشرقية كان يلتقي بنخبة من اصدقائه، شباباً يدرسون وشباباً يتطلعون، فائق مخلص، وطارق مظلوم وسعدون القشطيني وعزيز حميد وعبدالعال الصكبان، وصاروا

جماعة يبحثون ويجادلون، وغيرهم من السوريين والمصريين يبحثون ويجادلون، في (الجزائر)، و(فلسطين) يبحثون في هم سياسي واحد: (التحرر)، من انه لا بد للشعوب ان تتحرر، ويأخذه فائق امين مخلص الى عمق لندن، وهناك يكتشف الاعماق والاضداد ومدن البطالة ومدن البذخ.

ويرجع من اعماق مجتمع لندن الى اعماق جامعة الطب في لندن، ويرى اساتذته الانكليز يبجلونه ويرفعونه منازل، لأنه عرفهم بذكائه، وعرفهم بأصالته في العلم والاخلاق والجد والاجتهاد، وهم ايضاً وجدوا فيه: انساناً بغير حسد او نميمة، طالباً شرق اوسطياً، له صلة علمية بأجداده اطباء العرب القدامى الذين علموا الانكليز وغير الانكليز معنى كلمة (حكيم) عندما يريد الطبيب ان يكون حكيماً، وعندما يريد ان يطير في فضاء أرحب بأجنحة انسانية، قال لهم: (وداعاً ايها المعلمون) ولا سيما وقد عانق استاذه (برت) معلقاً في صدره وردة الوفاء، وهم ايضاً قالوا له: (وداعاً.. ياراجي، أيها التلميذ النجيب)، وأقفل النافذة، ونام في ليل، وحلم في ليل، حلم الخطى الواثقة في الشواطىء السعيدة، وصحا واذا هو ببغداد، يبكي بسعادة (أيتها الحلم الجديد القديم).. لقد عبرت القارات وجئت بالحلم القديم الجديد..



في جلسة جدل طبي حول النظريات الجديدة في الطب ويبدو : الثالث إلى اليسار !

معالجات في النفس .. !

وكان ينقلني الى اسراره حتى قلت له :
س - هل عالجت السكارى .. ؟
ج - عالجت احيانا مرضى بالمفاصل وهم سكارى نعم .. !
س - وهل عالجت مجانين .. ؟
ج - الجنون شيء نسبي في هذه الحياة ، وان تسنى لي ان اعالج مجنونا، فلمفاصله او ظهره .
س - راي يقول بانك متزمت .. ؟
ج - بالحق نعم ، وضد الانحراف نعم !
س - وراي آخر يقول : بانك تحب الشهرة .. ؟
ج - وهل تريدني ان احول بين الناس ومايقولون ، ولكن الذي اعرفه عن نفسي اني ابتعد عنها..
س - هل الحظ احد اسباب الشهرة .. ؟
ج - الجد والاجتهاد والاخلاص والصدق مع النفس هي التي تجلب الشهرة ، وللحظ رافد صغير في مجال الشهرة .
س - وقيل لي بان (حوصلتك) صغيرة في النقد والانتقاد .. ؟
ج - عندما تكون آراء الآخرين فيها مغالطة وجفاء للحق ..
س - متى ينتابك القلق .. ؟
ج - عندما تنام الضمائر ويستيقظ الشر ويختفي الصدق وتروج تجارة الكذب ..
س - اعطني مثلا على ديمقراطيتك .. ؟
ج - تستطيع ان تسال زملائي في الهيئات الادارية في الطبابة والجمعيات العراقية والعربية الطبية .

س ـ واعطني مثلا آخر في شجاعتك السياسية .. ؟
ج ـ الامثلة كثيرة في حياتي ، ولكن اعفني من الاجابة .. والاميركان يتركون الرقم (١٣) ..
س ـ من يسير ارادتك .. ؟
ج ـ ارادتي ..
س ـ اي الامراض تنتشر في الادباء .. ؟
ج ـ الغرور ..
س ـ علمني منهجا لسهر الليالي .. ؟
ج ـ ادرس حياة ابن سينا..
س ـ متى يصبح الحرام حلالا عند الطبيب .. ؟
ج ـ عندما يكون فيه دفع ضرر بالغ ، كانقاذ حياة مثلا ..
س ـ ومتى يصبح الحلال حراما عند الطبيب .. ؟
ج ـ عندما تطغى المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ..
س ـ هل مرة بكيت من وجع المريض .. ؟
ج ـ نعم وبصمت .. !
س ـ هل شرط ان يكون الكاتب ذا نسب وحسب .. ؟
ج ـ بكل تاكيد لا ..
س ـ اي المدن تحب .. ؟
ج ـ المدينة المنورة ، تكريت ، بغداد ، الديوانية
س ـ اي المدن تكره .. ؟
ج ـ طهران .. و (......) و (......)
س ـ هل عندك رواسب اجتماعية قديمة سلبية .. ؟
ج ـ ومن يستطيع ان يتحرر بسهولة من القيود القديمة .
س ـ ايهما اقوى فيك : الماضي ام الحاضر ؟
ج ـ انهما كفرسي رهان ..

نظرة الى ابي ..

ابي نوع خاص بين الآباء ، فعلى الرغم من مشاغله ومسؤولياته ، في الوظيفة وفي الجمعيات الطبية ، فانه شديد العلاقة والتعلق بنا، وله حضوره الاساسي في امور العائلة ، واتخاذ القرارات الصغيرة والكبيرة في ما يتصل بشؤون تطورنا وحل مشكلاتنا ان وجدت مثل هذه المشكلات في طريق حياتنا.. انه يتابعنا ويستفسر عن نتائج امتحاناتنا، ولا ابالغ ان قلت انه يحلم ان يمتحن بدلا عن ابنته انا، اهتمامه هذا ليس معي وحدي وانما مع جميع اخوتي واخواتي : اسماء ، مهند ، نجلاء ، احمد ، انه يقدم النصح والارشاد ويشاركنا في اوقات الراحة ، الى النزهات ، السفرات ، او الى مزرعته ..

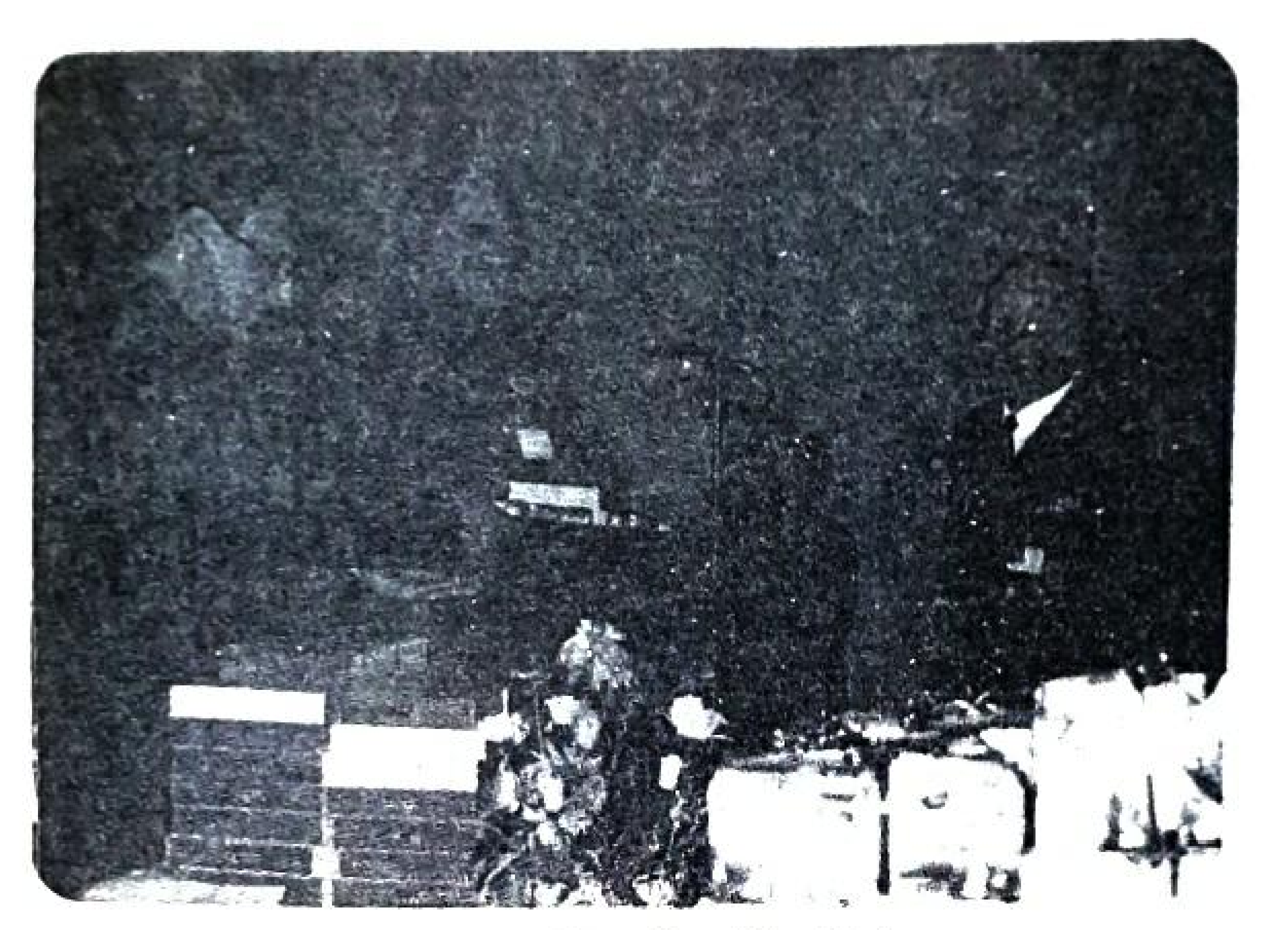
انه مثلي الاعلى في العمل ، يحب عمله الى ابعد الحدود ، وطالما نراه متعبا مجهدا، كان الدأب صار غريزة فيه ، كان الحق والاخلاص صار سمة عمله ، انه لايفكر الا بالطبابة وتطويرها، وهمه تقديم احسن الخدمات الى جيشنا العظيم !

وفي كل مساء يقضي اوقاته في المكتبة ، فوالدي يحتفظ بواحدة من اكبر المكتبات الخاصة في بغداد ، حيث تضم (١٥) الف كتاب وهذا العدد قابل للزيادة ، لانه بين يوم وآخر يضيف الى مكتبته المزيد من الكتب والمجلدات ، واصبحت المكتبة مقره ومجال تفكيره وموئل مطامحه الفكرية وحصن مشاريعه الثقافية ، يفكر فيها ويكتب ويصدر الكتب ، يقرأ في الادب ويكتب فيه ، يقرأ في التاريخ ويكتب فيه ، وكم يسعدنا نحن بناته واولاده ، عندما نراه يؤلف كتابا ويطبعه وينشره على الناس ، وكم يفرحنا عندما نراه يكتب مقالة او يخطط لمحاضرة ، وهذا فخر لنا، لان لابي عقلا وسمعة وشهرة فهي هذه وحدها زينة الحياة الدنيا، ومعذرة ياابي ان اطلت فيك الثناء ، فانت وايم الله رمز قوة لنا ورمز نصح وعمل ومثابرة .. ولهذا فالثناء عليك واجب .. !

هناء راجي التكريتي
(الكلية الطبية)



الدكتور إبراهيم طه والحكيم التكريتي والدكتور خالد القصاب في المجلس الاعلى للجمعيات الطبية



في مؤتمر الطب والصيدلة العسكري

[ملحق]

نماذج من دراساته :

الاخلاق عبر العصور(*)

* دراسة كتبها الدكتور
راجي التكريتي في أواسط الستينات



في وسط الصورة .. وكان ١٩٦٧ يراس وفداً طبياً إلى مصر العربية

اذا ما سبرنا غور التأريخ لنتكلم على تطور اخلاق الناس وسلوكهم، عبر العصور والازمنة القديمة، حتى يومنا هذا، شعرنا بنوع من الرغبة واللذة والسعادة للاطلاع على الادوار التي مرت بها عادات الناس واخلاقهم وطبائعهم، وكيف كان ينظر الى الخير والشر، والسعادة والشقاء، والفضيلة والرذيلة، والعدل والحكمة. . وما دور الانبياء والرسل والاديان السماوية، وتأثير الكهان والفلاسفة في تهذيب صفات الناس وطبائعهم. لقد مرت الانسانية بأدوار ساحقة في القدم ولا يمكن ان نتوصل الى معرفة عاداتهم واخلاقهم وطبائعهم الا من خلال الحدس والتخمين والقياس على حياة القبائل التي تعيش على الفطرة ومشابهة لحياة الانسان البدائي الاول.

ولو نظرنا الى الحيوانات المختلفة لرأيناها تتغلب عليها عوامل غريزية، سواء كانت غريزة الجوع ام العطش أم الجنس، وبالرغم من هذا فلبعضها ما يميزها ويعطيها صفة الالفة والتوادد، وقد تربط بعضها مع بعض رابطة الجماعة، ونجد الآباء مع الابناء والامهات، وتعاونها مع بعضها وعيشها في جماعات متقاربة، ودفاع بعضها عن البعض الذي يوحي بالصفات الاولية لهذه العادات والطبائع للانسان الاول.

وبعض الحيوانات اذا ما دفعته غريزة الجنس وأتى بالعمل الجنسي مع أمه تراه يركن الى الانتحار، وهذا دليل واضح على ما لبعض الحيوانات من طبائع وعادات، وحيوانات اخرى تكوّن أسرة

واحدة تدفعها الغيرة للمحافظة على زوجته من ان تمسها حيوانات اخرى ولو ادى الى هلاكه. والقبائل التي عاشت في العصور القديمة الحجرية والمعدنية والزراعية، كانت لها تقاليد وطبائع وشرائع اختطتها لنفسها وحافظت عليها والتزمت بها، ولها رؤساء وعرافون يحاسبون من ينتهك من افراد القبيلة او المجموعة تلك الشرائع ويحاكمون مخالفيها وان اختلفت تلك العادات والشرائع من منطقة الى اخرى، ومن قبيلة او مجموعة الى غيرها.

ولنا قصة ابني آدم خير شاهد، كما جاء في القرآن الكريم، اذ نجد قابيل أحس بألم ممض ومرارة شديدة، اذ قتل اخاه بلا سبب او جريرة، وأصابه العجز من ان يوارى جثته، وما هذا الشعور بالالم والندم، الا شعوره بانه قد أتى عملاً منكراً، فحاسبه على هذا العمل ضميره قبل ان تحاسبه قوانين او شرائع لا وجود لها آنذاك[1].

واذا ما خطونا الى عصر التأريخ وما خلده الاوائل نجد ان الشعوب الشرقية عرفت في العصور القديمة كثيراً من المعارف والشرائع والقوانين التي لها تأثيرها وفاعليتها في الدين والاخلاق والفلسفة وغير ذلك في مجال التفكير الانساني. وان اليونان لم يكونوا السباقين الى ذلك بل كانوا على اتصال بالحضارات الشرقية القديمة واستفادوا منها واستناروا بهديها واضافوا اليها من نتاجهم الفكري، وقد شهد الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على ذلك واعترفوا به.

ومن الذين زاروا الشرق ونهلوا من علومه وفلسفته وحضارته على سبيل المثال لا الحصر «هوميروس» شاعر اليونان الاشهر، و«ليكورج» المشرع الاسبارطي، و«سولون» المشرع الاثيني، و«فيثاغورس» الفيلسوف والرياضي العبقري والموجد لكلمة فلسفة، و«ديموكريت» و«افلاطون».. وقد لا يخلو من فائدة ان نستعرض تاريخ الاخلاق في مختلف ازمنتها وامكنتها منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا..

وادي الرافدين

تعد الحضارات التي نشأت في وادي الرافدين من أقدم ما عرفه التاريخ، فقد نشأت مجاميع على هيأة مشيخات او امارات صغيرة نفصل بعضها عن بعض مجاري المياه، وعلى كل مشيخة رئيس يسمى «بانيسي» وهو الحاكم وصاحب الاقطاع، وكانت تنظم هذه الامارات والمشيخات شرائع وقوانين تعارفوا عليها وحرصوا على تنفيذها ليعيشوا مع بعضهم، الى ان جاء السومريون وبسطوا سطوتهم على جنوب العراق، ومن ثم تمكن الساميون من بسط نفوذهم على معظم اجزاء العراق، وأشهر حكامهم «حمورابي» صاحب المسلة الخالدة، والتي تعد اقدم شريعة منظمة سجلها الانسان، وهي تحوي كل الشرائع والنظم التي ترسم طريق الحياة للناس وتهديهم سواء السبيل، وتفرض



مع ابنه (مهند) ..

العقاب، وفيها تصنيف لطبقات الناس، ومما جاء فيها:

«ان الطبيب اذا عالج مريضاً وشفاه وكان المريض حراً دفع عشرة شواقل فضة، واذا كان مولى دفع خمسة شواقل، وان كان عبداً دفع شاقلين فقط».

ويؤخذ من شريعة حمورابي ان العبيد عند البابليين قد يتزوجون من بنات الاحرار، زواجاً شرعياً، ولا يعتبر الزواج نافذاً الا بعقد مكتوب، كما هو في أرقى المدن المتمدنة الآن، والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب، وعقاب الزنا القتل ذبحاً او غرقاً[٢].

ومن شروط الزواج ان يقدم الرجل مالاً للفتاة، والزواج وثيق العرى عند البابليين، وحقوقهما متبادلة وواجباتهما مشتركة، والطلاق في يد الرجل، واذا رغب الطلاق وله اولاد دفع اليها مهرها.

وكان التبني شائعاً عند البابليين في عصر حمورابي، وللتبني شروط حسنة، ولم يميز البابليون في حق الأرث بين الذكر والانثى.

وكانت هناك قوانين وعقود وصكوك لتنظيم التجارة، وشروط للرهن والوديعة، بما لا يقل عن القوانين الحاضرة، وان الحكومة هي التي تتولى تسعير السلع او تقدير اجور الصناع، واصحاب المهن، حتى الاطباء، وتحاسبهم اذا اخطأوا في العلاج، وتحدد نصوص كثيرة من شرائع حمورابي اجور الاطباء واعمالهم، فالمادة (٢٢١) تنص على:

«ان الجراح الذي ينجح في شفاء العين بعملية جراحية، فانه

يأخذ اجرة قدرها عشرة شيقلات من الفضة من الحر، وخمس شيقلات من الفضة من فرد الطبقة الوسطى، ويأخذ من سيد العبد شيقلين، اما اذا فشل ذلك الجراح فسبب موت المريض او انه سبب فقدان عينه فتقطع يده، ولكنه يعوض عبداً بعبد اذا فقدت عينه، ويتقاضى الطبيب في تجبيره عظاماً مكسورة، او عضلات مريضة خمس عشرة او ثلاث عشرة او شيقلين من الفضة حسب طبقة المريض، وكان الطبيب لا يقدم على مريض قد تأكد من عدم شفائه وموته»[3].

والمادة (٢١٥) تنص على انه «اذا اجرى طبيب لرجل عملية جراحية بمبضع برنز وشفاه، او انه اجرى له عملية في رأسه وشفى عين الرجل فسوف يتسلم أجرة قدرها عشرة شيقلات من الفضة»[4].

والمادة (٢١٨) «اذا عالج طبيب رجلاً واجرى له عملية جراحية بمبضع برنز وسبب موت الرجل، او انه اجرى عملية في عينه واتلف عينه فانه سوف يقطعون يده»[5].

ويقال مثل هذا عن الدولة الآشورية في شمال العراق التي عرفت بشدة رجالها وخشونتهم في الطبع وقسوتهم في الحرب، وانها كرست جهدها للحرب والانتقام، ومع هذا كانت لها قوانينها ونظمها، وتشريعاتها، وقد اكتشف الكثير من تلك النظم والقوانين، حيث وجدت مسجلة على مكاتب قطع الآجر والتي تدل دلالة واضحة على اهتمامهم بالعلم والثقافة والادب والاخلاق.

وادي النيـــل

جاء في كتـاب «الحضـارات الاولى» لجوستوف لـوبـون :

«..... كان الناس يعتقدون ان اليونان غير مدينين في فنونهم وآدابهم لغيرهم من الامم التي سبقتهم، ولكن هذا الرأي لم يعد ممكناً التسليم به، فانه وان كانت الحضارة القديمة قد بلغت الأوج في بلاد الاغريق، الا انها ولدت ونمت في الشرق، ونحن نعلم اليوم انه في العصر الذي لم يكن اليونان فيه الا جهلة برابرة، كانت هناك حضارات لامعة مزدهرة على ضفاف النيل وفي سهول كلديا»[٦].

وقد اكدَ كثير من المؤرخين بأن المصريين القدماء وابناء الرافدين قد عرفوا كثيراً عن الاخلاق العملية والشرائع والقوانين والطبائع والعادات، وكانت لهم عواطف حيوية نحو العدالة الاجتماعية والعدالة الفردية، ولهم عاداتهم وطبائعهم في تنظيم شؤونهم، والتفكير والتمييز بين ما يعتبر خيراً وما يعتبر شراً وفي الواجبات والصفات الاخلاقية.

وقد اظهرت الكتابات والنقوش والرموز التي وجدت على قبور الموتى ـ الشواهد الظاهرة لما كانوا عليه من حضارة ومعرفة وتمييز بين الخير والشر، كما وجد في الحفريات الأثرية ان احد الفراعنة ينصح وزيره حين عينه في منصبه :

«. . . . بأن يهتم في أمور الناس جميعاً، البعيد منهم والقريب، والمجهول منهم والمعروف، فان أصدق واجبات الامراء العدالة»[7].

كما جاء في نقوش على مدفن أحد الحكام:

«انه لم يسيء معاملة ابنة من الناس، ولم يظلم أرملة، ولم يمتهن فلاحاً، ولم يطرد راعياً، ولم يسخر في اعماله عمالاً بلا أجر، وبذلك زال البؤس عن ولايته»[8].

ومما جاء في مجمل دفاع وجد في كتاب الموتى يتقدم به الميت دفاعاً عن نفسه موجه الى رئيس الآلهة أوزوريس:

«انني لم اقترف إثماً ولم اعتد على أحد، ولم أسرق، ولم أتسبب في قتل احد غيلة وغدراً، ولم ابخل بشيء من القرابين للآلهة، ولم اكذب ولم اجعل احداً يبكي، ولم اكن دنساً، ولم اقتل الحيوانات المقدسة، ولم اتلف ارضاً مزروعة، ولم أش بأحد، ولم أغضب مطلقاً، ولم أزن، ولم أرفض سماع الحقيقة، ولم اسيء الى الملك ولا لأبي، ولم ألوث الماء، ولم اجعل سيداً يسيء معاملة عبده، ولم أحنث في يميني، ولم أغش في الميزان، ولم احرم رضيعاً مرضعته، ولم أصد شيئاً من طيور الآلهة، ولم امنع الماء في ابّانه، ولم اقطع قناة ماء عن مجراها، ولم اطفيء ناراً حين الحاجة اليها، ولم استخف بصوت الله في قلبي، اني طاهر»[9].

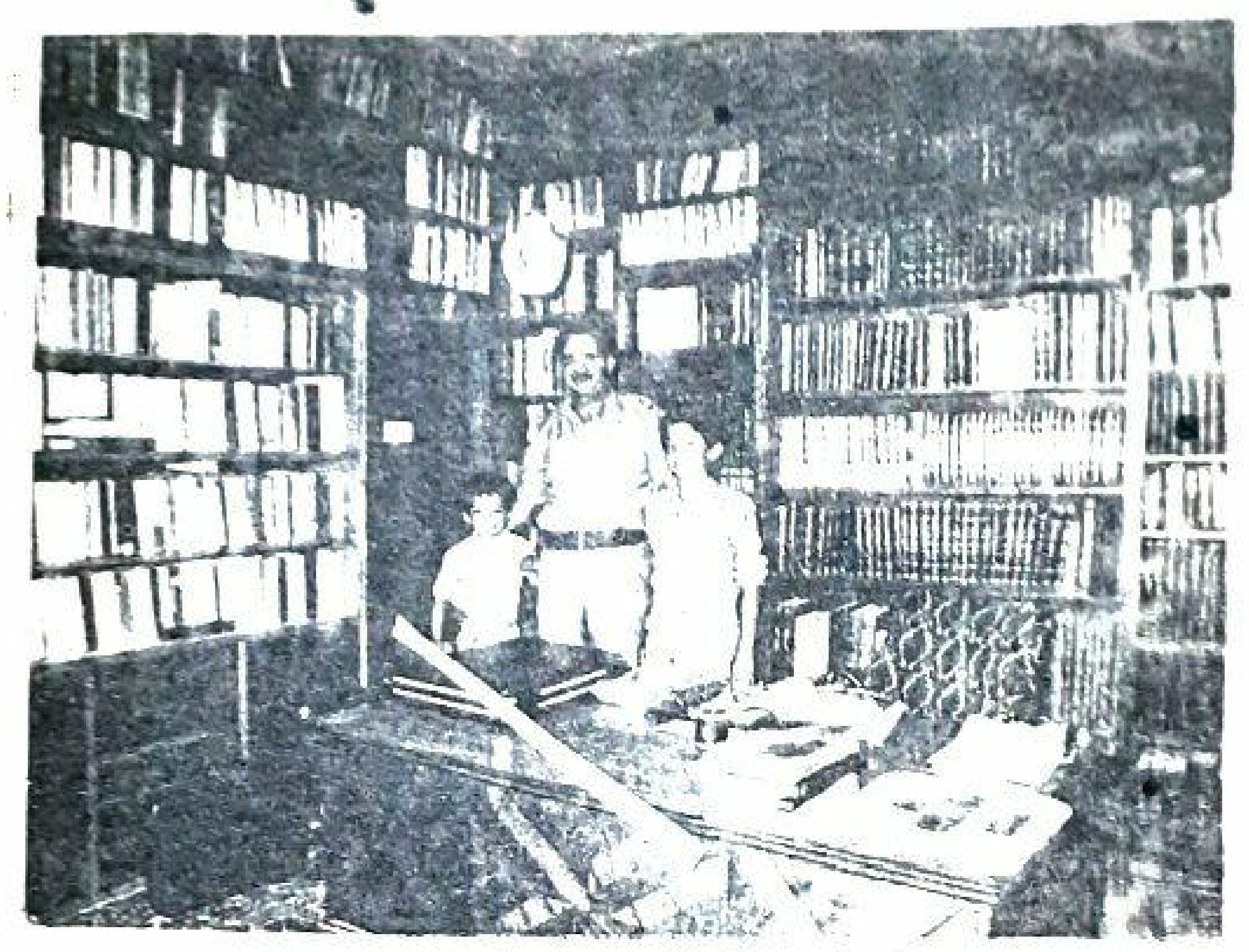
من هذه الخصال الرفيعة والمثل العالية والصفات الحميدة، التي يجاهد العبد للتمسك بها ليقابل الاله وهو طاهر من دنس الدنيا ومن

الانزلاق في ايذاء الغير، وهذه تدل دلالة واضحة واكيدة على انه كانت للمصريين في تلك العصور اخلاق عملية رائعة وحياة سلوكية ممتازة، وكانوا يعتقدون بالخير الذي يستدل عليه من خلال سلوكهم في الحياة، ومحاسبة الضمير والوازع الداخلي، الامر الذي دفعهم للحث على عمل الخير والابتعاد عن الشر للوصول الى الفضيلة في هذه الدنيا ومرضاة الأله الذين يعبدون في الحياة الاخرى.

ولم يهمل المشرع المصري القديم حمايته للجمهور من الاطباء، فلم يكن يباح للطبيب ان يخالف في علاجه ما جاء في السفر المقدس والا تعرض للعقاب، وكان يجب على الطبيب ان يسير وفقاً لما تقتضي به هذه القواعد، وعند ذلك فهو لا يتعرض لأية مسؤولية ولو مات المريض، اما اذا خالفها فانه يعاقب بالاعدام.

الهنـــــــد

للهنود تأريخ عريق في الحضارة والثقافة يمتد الى عصور سحيقة، وقد اقتبست منهم اغلب الحضارات التي كانت في الشرق، وان نظام الطبقات التي عاشته الهند وارتبطت به عبر العصور والازمنة الغابرة حتم ان تحيا حياة اخلاقية ملتزمة بهذا النظام الطبقي، وان اخلاق أي انسان وسلوكه في الحياة تحددها له طبقته، ومنطقته التي يعيش ضمن حدودها، ومن حكمهم التي تدل على التزاماتهم الطبقية:



في بيته بين كتب العلم .. مع ولديه :

«خير لك ان تؤدي عملك المقسوم لك اداءً سيئاً، من ان تؤدي عملاً مقسوماً لغيرك أداءً حسناً»[١٠].

ومع هذا فانهم يلتزمون بصفات عامة اخرى، كاحترامهم للبراهمة، وتقديسهم للبقر وميلهم للزواج المبكر، وتفكيرهم الجدي في ذلك منذ نعومة اظفار اطفالهم، واقرارهم لزنى «النساء المقدسات» اللاتي يستخدمن المعبد اولاً في الرقص والغناء امام الاوثان، ثم في امتاع الكهنة البراهمة وبعدها في امتاع كل من يدفع اجراً، ويدفع بعض هذا الاجر الى رجال الدين.

وبالرغم من هذا وما قبله الهنود من نظم اجتماعية مثل زواج الاطفال وعهر المعابد وقتل الزوجة بعد موت زوجها فانهم يمتازون بالرقة والاحتشام، وما عدا زانيات المعابد فان البغاء لديهم قد يكون اندر بكثير مما في المدن الاوربية قاطبة. ويعترف «دبوا» وهو مؤرخ عرف بعدم عطفه على الهنود في كتاباته يقول:

«لا بد من الاعتراف بان آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية اوضح في قواعدها واكثر اتباعاً لدى طبقات الهنود كلها، حتى ادنى هذه الطبقات منزلة، منها عند أي شعب اوربي له ما للهنود من مكانة اجتماعية»[١١].

وان الدور الرئيس الذي يلعبه الجنس في الحديث وفي النكات عند الغربيين لا تعرفه آداب السلوك الهندي، ويعتبرون تلاصق

الجنسين في الرقص مرذولاً وقبيحاً، وانهم يهتمون اهتماماً كبيراً في الغسل والتنظيف بكل انواعه وان تكون ملابسهم نظيفة.

واذا تطرقنا الى المذاهب الهندية نجدها كثيرة ومتشعبة، ولنأخذ مذهبين مهمين، وان كمل احدهما الأخر، اولهما مذهب «البراهمة» الذي جاء في اعقاب المذهب «الفيدي» وهذا يرجع في تأريخه الى القرن الثاني عشر او الخامس عشر قبل الميلاد، ونجد في المذهب «البراهمي» مبادىء اخلاقية وتعاليم تبلغ حد الاعجاب، ان لم نقل قد تصل الى حد الكمال، وذلك بما يتصل باحترام الناس جميعاً وحب الكائنات الحية والعفو عن المسيء، ومما جاء في احد حكمهم الدينية:

«الذي يعفو عن المسيء له، يكون أثيراً مكرماً لدى السماء، والذي يحمل الحقد يذهب للجحيم»[١٢].

وفي احدى شرائعهم:

«الاطفال والمسنون والفقراء والمرضى، يجب ان نعتبرهم سادة العالم الذي نعيش فيه، والمرأة يجب ان تكون موضع احترام خاص، حينما لا تكرم النساء يكون لا جدوى من افعالنا الخيرة، لا يجوز مطلقاً ان نضرب امرأة ولو بزهرة!»[١٣].

ومن ثم يأتي المذهب البوذي الذي جاء تجديداً وتكميلاً للمذهب البراهمي، ومما جاء في مبادئه:

«عيشوا مخفين اعمالكم الطيبة، معلنين اخطاءكم، احبوا

الناس جميعاً والكائنات كلها، ليست الولادة من طبقة معينة هي التي تخلق البراهمي الحق، فهذا لا يتعلق بالأم......»[14].

ويقول بوذا في وجوب مقابلة السيئة بالحسنة:

«اذا كان الحقد يرد على الحقد بالمثل فكيف ينتهي إذاً».

«من يسامح شاتميه ولاعنيه فهو مشرف في السماء، ومن يحمل لمن يسيء اليه حقداً فهو من أهل الجحيم»[15].

الصين

سبق الصينيون الشعوب القديمة في استلهام فلسفة الاخلاق، والبحث فيها نظرياً وعملياً، ويعتبر «كونفشيوس» مفكرها وحكيمها الاكبر الذي ولد سنة ٥٥١ق.م. كان يدعو الى تقديس الواجب وجعله مقياس سلوك الناس، وان اغلب حكمه وتعاليمه صقل وتطوير للتعاليم الصينية القديمة، ومن هذه الحكم:

«ان من حاسب نفسه ولم يجد عليها خطيئة فماذا يحزنه ويخيفه؟!».

«يولد الانسان مستقيماً فمن فقد الاستقامة وما زال في الحياة فنجاته من الموت انما هو حسن طالعه»[16].

وما هذا الا حساب للنفس وتقدير للواجب وارضاء للضمير الانساني، وتحذير للناس من الانزلاق في مهاوي الخطيئة وفقدان الاستقامة، ومن أقواله:

«كلما سرت بين رجلين وجدت لنفسي استاذين، من له فضائل فهو قدوتي، ومن له رذائل فهو عبرتي»[١٧].

«ان رأس الفضائل هو حب الغير بكل ما للانسان من قوة وعاطفة وان الناس جميعاً اخوة»[١٨].

«من العار الا تهتم الا بالرواتب والدولة تحت سياسة حكمية، ومن العار ايضاً الا تهتم الا بالرواتب والدولة تحت سياسة غاشمة».

«ان قاعدة الحياة هي التكافؤ والمبادلة بالمثل»[١٩].

«يجب ان يحب المرء جميع الناس على السواء بكل ما في حبه من سعة وقدرة».

هذه بعض ما ورد على لسان مفكر الصين وحكيمها من تعاليم اخلاقية سامية ومزايا نبيلة، وهي دعوة الى الناحية العلمية الواقعية والتي عنيت بالاخلاق والسياسة.

ونجد في تاريخ الفلسفة في الشرق قيماً ومفاهيم اخلاقية جادت بها عقول نيرة وضمائر حية وتفهم للطبيعة البشرية، وتفكير امتاز بالعمق والاصالة، وقد تجاوزت هذه الافكار والمفاهيم والآراء حدود امكنتهم وازمانهم وبيئاتهم وشملت الانسانية، وغدت حقائق ثابتة وشرائع اصيلة وقوانين مميزة اهتدت بهديها الانسانية لقرون طويلة، ولا تزال تلك الفلسفة والحكم نوراً ساطعاً يهتدي الناس بهداها وتسير

المدنية على خطاها، ومن ثم بعد ان غابت شمس المعرفة والحضارة والفلسفة على ربوع الشرق لتسير بنورها متخطية حدود الطبيعة لينتقل علم المنطق والفلسفة الى بلاد اليونان حيث صقلوها واضافوا اليها واكملوا نضجها.

الاغريــــق

في الوقت الذي كانت فيه الحضارة والثقافة وقبس من الآراء الفلسفية والنظم والقوانين التي تحدد علاقة الناس مع بعضهم وسياسة أمورهم في الشرق حيث خطت المدنية خطوات واسعة في الرقي والتقدم ونهج سبيل الفضيلة وتجنب الاعمال الشريرة، كانت بلاد الاغريق تتحكم بها شريعة الغاب وفي شغل شاغل بالحروب والنهب والسلب ومقاتلة بعضهم بعض، وكانوا أقل خضوعاً للقوانين والانظمة[٢١].

ويلازمهم الحظ بأن يهديهم الله طبقة من الفلاسفة والمفكرين ولا سيما أولئك الذين زاروا الشرق ونهلوا من علومه وفنونه، ونقلوا الفكر والثقافة الى بلاد الاغريق، وظهور طبقات اخرى من الفلاسفة والحكماء الذين صقلوا الافكار السابقة واضافوا اليها الشيء الكثير من ابداعهم الذاتي، وتدرجت الفلسفة اليونانية بادوار كثيرة، وتناقلتها افكار ووجهات نظر متباينة، وجاءت الحكمة والنصيحة والدعوة الى الاخلاق على ألسنة حكمائهم ابطال قصصهم كما عبر «هوميروس» في

قصيدتي «الالياذة والاوديسة» وهو يصف الشجاعة والعفة والوفاء، ويأتي «فيثاغورس» وجماعته الذين تبنوا الدعوة بأن الخير في انتصار الروح على الجسد وان الفضيلة في الاعراض عن اللذات، وان العفة جهاد بين العقل والشهوات، ومن حكمهم الخالدة:

«يجب مساعدة الناس في حملهم اثقالهم، لا حملها عنهم»(٢٢).

ومن فلاسفة الاغريق الاقدمين كذلك «هيراكليت» و«ديموكريت» وكلاهما قد زارا الشرق وانتهلا من علمه وفلسفته، وبعد هذه الفترة وخلال انتشار المذهب الفيثاغوري، ظهرت جماعة اخرى ينادون بقيم ومبادىء اخرى مغايرة هم: «السوفسطائيون» في القرن الخامس قبل الميلاد والذين تنكروا لكثير من القيم والعادات التي كانت سائدة، ولم يعترفوا الا بشيء واحد هو المنفعة الفردية، وراحوا يعلّمون الشباب وسائل النجاح غير آبهين بماهية هذه الوسائل، واستمروا يعلمونهم كيف تكون الغلبة بالجدل، والخديعة والتمويه واللف والدوران، وكيف يستطيع المرء ان يسند الراي ويسند الرأي المضاد، وغدت كلمة «سوفسطائي» حتى اليوم رمزاً للجدل الذي لا ينتهي والتهريج واللعب بالالفاظ ومعاني الكلمات ومن حكمهم:

«ان المرء مقياس الخير والشر، فما يحس انه الخير كان خيراً، وما يشعر انه الشر كان شراً».

وغدا معتنقو هذا المذهب يطوفون المدن والارياف متخذين من

هذه الفلسفة حرفة لهم، وقد جاء على لسان أحد اعلامهم المدعو: «بروتاغوراس»[٢٣]:

«ان الانسان مقياس الاشياء جميعاً، هو مقياس وجود ما يوجد منها، ومقياس لا وجود ما لا يوجد».

وقد شرح افلاطون هذه الفكرة بعد حقبة من الزمن وأوضحها بقوله:

«ان الاشياء هي بالنسبة لي على ما تبدو الي، وهي بالنسبة لك على ما تبدو لك، وانت انسان وانا انسان».

ومهما قيل عن السوفسطائيين فانهم حاولوا وضع أسس علم المنطق وان كان ذلك على حساب الفلسفة الرصينة.

وبعد هذه الفترة وفي سني «٤٧٠ - ٤٠٠ق.م» ظهر «سقراط»[٢٤] الذي اعتبر بحق اول من ثبت الفلسفة على أسس متينة وشاد على هذا البناء، الفلسفة الاخلاقية، ونبذ مذهب السفسطائيين، بجمع المال والسعي وراء المناصب والكراسي السامية على حساب القيم والاخلاق والمثل، بل اهمل مصالحه الخاصة وثروته، وانصرف كلياً للتبشير بتعاليمه الاخلاقية وتقويم المعوج من العادات والاخلاق والتبشير بالفضيلة، وقد وهب حياته في سبيل مبادئه وتعاليمه حيث ذهب ضحية الدس والكذب من السفسطائيين، الذين تمكنوا من القضاء عليه بأساليبهم اللاخلاقية، ولكنهم اخفقوا في القضاء على

فلسفته وتعاليمه الاخلاقية، ومن حكمه وتعاليمه:

«ان الفضيلة اثمن ما في الحياة، بل أفضل من الحياة نفسها، وان أخوف ما يخشاه العاقل هو العار والشر الاخلاقي، لا الموت، وان الشرير الطاغية لا يستطيع ان يُقي الرجل الفاضل، مهما انزل به من محن وآلام ما دام معتصماً بفضيلته متحلياً بها....»[٢٥].

«ان المرء لا يكون فاضلاً حقاً الا اذا أتى الفضيلة عن علم...».

«ان للخير اصلاً ثابتاً لدينا، او بعبارة اخرى بأن الخير يعرف بالضمير الذي يهيب بنا صوته، ان اعمل هذا واترك ذاك».

«هؤلاء الذين ينتهكون حرمة القوانين الألهية سيقاسون عقاباً يستحيل الفرار منه، اما الذين يدوسون القوانين الانسانية فانه قد يكون في مقدورهم ان يفروا من العقاب....»[٢٦].

وهكذا يعتبر سقراط مؤسس علم الاخلاق، واول من ادرك هذه الفكرة وركز فلسفته حولها وأرشد الى منابع الاخلاق والضمير، حيث ان محور الاخلاق عند سقراط تتلخص بالحكمة: «اعرف نفسك بنفسك».

وهذا يعني ان يبحث المرء بفكره ليتمكن من كشف ما بداخله من قوة ذاتية وهذا ما نعرفه بضمير الانسان.

ويأتي بعده تلميذه «افلاطون» سنة ٤٢٧ ق. م[٢٧] الذي تتلمذ في بادىء أمره على الفيثاغوريين والسفسطائيين قبل ان يلازم استاذه سقراط لفترة تزيد على عشر سنوات صاحبه حتى وفاته، ونقل بعده تعاليمه الى الاجيال، ودعا كأستاذه الى العفة والشجاعة، وان الحكمة هي أم الفضائل، وان فلسفته مرتكزة على الحكمة وان المرء لا يكون فاضلاً بحق الا اذا كان يعمل الخير للخير، والفضيلة للفضيلة، واما ان يتعفف عن متعة لينال اخرى اكبر منها فتلك ليست بعفة»[٢٨].

«ان الفاضل قد يكون غرضاً للنائبات في الثروة او غيرها، وقد يعامل معاملة جائرة حتى من ذوي قرباه، وقد يصير ضحية لحقد اعمى او دسيسة جريئة، وقد يذوق عذاب السجون ويموت اخيراً على سرير الآلام، ومع هذا كله انه يظل سعيداً متى بقى محتفظاً بفضيلته، عائشاً في ظل العدالة بمعناها العام التي تنيله هدوء النفس وسلامة الضمير، بل ان الطاغية ليكون شقياً حرياً بالعطف والرثاء وان كان على العرش وعلى مقربة منه كل ما يسمىٰ متعاً ولذات»[٢٩].

ويرى افلاطون ان الفضيلة العليا هي فضيلة العدالة، وهي توازن القوى النفسية وتعادلها بحيث تكون قوة الغضب، وقوة الشهوة وقوة العقل في موازنة وتعادل، فينشأ عن اعتدال العقل الحكمة، وعن اعتدال قوة الغضب الشجاعة، وعن اتزان قوة الشهوة العفة، ومن توازن هذه القوى الثلاث تحصل العدالة والتي تؤدي الى السعادة التي

هي غاية الحياة.

ومنح افلاطون جزءاً كبيراً من وقته وفلسفته لبحث علاقة السياسة والاخلاق، نظراً لما كان سائداً من انتشار الفلسفة السفسطائية وتلاطم الامواج السياسية والنزعات المتباينة، وضياع الاصوات الخيرة النيرة الداعية الى اتباع سبل الهدى ومصلحة الوطن وسط الضجيج والاصوات النكراء، واختلفت القيم والمقاييس الخلقية والسياسية حتى غدا السياسي الناجح يعرف بانه الذي يُحسن الكذب واللف والدوران والخديعة والمماطلة والتمويه.. وفي هذا كله مجافاة للاخلاق السياسية التي يجب ان ترتبط وثيقاً بالاخلاق الحسنة والفضيلة من غير انحراف وابتعاد عن تحقيق العدالة الانسانية، ومن هذه القاعدة دعا افلاطون بأن ينشأ ناشئة المدينة وفتيانها على الشجاعة واحترام النفس والآلهة، والشعور بالرجولة التامة، وتحريم الكذب تحريماً باتاً على الناس كلهم، ماعدا الحكام الذين يعتبرون اطباء العامة ولا يلجأون اليه الا بقدر، ولا يسوغ لانفسهم الا في خداع الاعداء، او في اقناع الاهلين بما فيه خير الدولة، وما يحقق فائدة للصالح العام، واذا جاز للحاكم ان يلجأ للكذب مضطراً مثل ما ذكرناه فليس له بحال من الاحوال ان يسكر، لأنه آخر شخص في الدنيا يباح له ان يشرب فيفقد صوابه، لانه من السخف حقاً ان يحتاج الراعي الى من يرعاه[30] وقوله كذلك: «لا يجب ان نرتكب الظلم مطلقاً، اذاً لا يصح

ان نظلم، حتى من يصيبنا بظلمه» وكذا قوله: «لا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الانساني، ما لم يملك الفلاسفة، او يتفلسف الملوك والحكام فلسفة صحيحة تامة، أي ما لم تتحد القوتان السياسية والفلسفية في شخص واحد.. لأن الفيلسوف هو الذي يشعر شعوراً عميقاً بالحق والشرف ويعتبر العدالة أسمىٰ الواجبات وأحقها...»[٣١].

وهكذا ربط افلاطون كلياً السياسة بالاخلاق والاخلاق بالسياسة.

ويلي افلاطون في حمل رسالة الفلسفة تلميذه «ارسطو»[٣٢] سنة ٣٨٥ق.م. الذي قدر ما في فلسفة سقراط من أسس رصينة ثابتة فشاد فوقها، واكمل بناءها، واهتم بالناحية العملية الواقعية، فيما يخص فلسفة استاذه افلاطون، وانه المعلم الاول الذي أثار بأن الانسان يختلف عن الحيوان بأنه وحده لنشاطه واعماله غايات عليا يقصدها ويفكر فيها وفي الوسائل اليها، ومن هنا برز علم الاخلاق أحد فروع الفلسفة العملية او الفلسفة الانسانية، هذا العلم الذي ينظم للانسان حياته ويكشف له عن غايته ويجعل لسلوكه قوانين تتفق وطبيعة الانسان الخاصة التي تميزه عن الحيوان، وأرسطو جاء بفلسفة الوسط[٣٣] ونقد نظرية استاذه افلاطون في المثل وابطلها وقال:

«ان مقياس السلوك هو التزام الوسط في كل شيء». فالكرم

الذي هو فضيلة وسط بين الاسراف والتقتير وكلاهما رذيلة، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور وكلاهما رذيلة. . . .»[٣٤] وكذا قوله:

«لأن الافراط بالاكثر خطيئة، والافراط بالاقل مذموم. والوسط وحده هو الحقيق بالثناء. . . .».

وان مبعث لذة الانسان ـ عند ارسطو ـ هي السعادة، ولكن هذه السعادة ليست بتحصيل المجد وشارات النبل والرقي، لانها ليست السعادة النهائية ولكن السعادة الحقيقية هي التوصل الى خيرات النفس وذلك بالتأمل والتفكير بأسمى جزء فينا وهو العقل ـ تعطينا السعادة الكاملة والتي تجاوز عادة طبيعة الانسان الخاصة وتجعلنا قريبين من الألهة. وان الفضيلة العليا هي الفضيلة التي منبعها العقل وحده، اعني العلم والتفكير والتأمل في الله الذي يقترب العبد من ربه وفي ذلك كماله»[٣٥].

وأرسطو هو الذي أوجد فكرته «الانسان مدني بالطبع» أي ان الانسان لم يخلق ليعيش وحده، وان الانسان لا يستغني بنفسه عن الآخرين، وان السياسة أوجدت لتنظيم حياة الافراد مع بعضهم ومع الدولة التي تشرف على تنظيم أمورهم يجب ان تكون عوناً للمرء على ما يبغي من فضيلة وسعادة، والسياسة يجب ان تكون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً وعميقاً بالاخلاق فيما نختطه من المثل العليا للجماعة الانسانية[٣٦].

وتطل علينا عبقرية ارسطو واخلاقيته باعتذاره من مخالفته

لاستاذه افلاطون بهذه الطريقة المهذبة:

«اننا لصالح الحق ننتقد حتى آراءنا الخاصة، خصوصاً ما دمت ارى أني فيلسوف، وعلى هذا فبين الصداقة وبين الحق، اللذين كليهما عزيز على انفسنا، نرى فرضاً علينا ان نؤثر الحق»[٣٧].

ومن ثم بعد سقراط وافلاطون وأرسطو تفرعت مدارس صغيرة، زعمت كل منها انها استمدت تعاليمها ومبادئها من مذاهبهم وأوجدوا لهم تفاسير وتعاليم شتى ومتباينة تفسر الاخلاق والفضيلة والسعادة والحكمة، ومن هذه المدارس، الكلبية والقورينائية والرواقية والابيقورية، وظهر منهم فلاسفة ومفكرون تطرق البعض منهم لوصف السعادة والفضيلة والبحث عن السعادة بهدي العقل والابتعاد عن الملذات الوقتية ووصلوا الى حد التقشف، ومدرسة اخرى اباحت كل اللذائذ للتوصل الى السعادة القصوى.

فان «تيني زينو ٣٣٦ق.م. - ٢٧٠ق.م.»[٣٨] ارتكزت فلسفته على مصارعة النفس وقمع الاهواء وضبط الشهوات ومحاربة اللذات والتمسك بحياة الزهد والحرمان ابتغاءً للسعادة السلبية، وأنشأ المدرسة الرواقية التي تدين بمذهبه والتي ترتكز فلسفتها الاخلاقية على ان يتصرف الناس بمقتضى قوانين الوجود، وهم مطالبون بأن يخضعوا سلوكهم للطبقة بمعناها الضيق وهو العقل، وكلا الامرين واحد في نظر هذه المدرسة حيث ان العالم يسير وفقاً لقانون العقل، وكذا فالانسان لا يملك عصيان قوانين الوجود.

وهكذا تصبح الفضيلة هي العيش وفاقاً للعقل وان ترجع الاخلاقية الى حكم العقل، والحكيم هو الذي يُخضع حياته داعياً لسنن الوجود كله، والانسان لا يتوخى ان يكون فاضلاً ابتغاء اللذة، بل ان يتمسك بالفضيلة من أجل الواجب، وكل خير او شر في حياة الانسان مرهون بارادته، وان تحرير حريته مرهون في تحرير نفسه من قيود جسمه، ولا يتيسر هذا بغير قمع الشهوات واماتة الاهواء، وجاهروا بأن الحكمة رأس الفضائل، وان الحكيم هو جامع لكل الفضائل، والناس عندهم اما اخيار اطلاقاً او اشرار اطلاقاً .

اما «ابيقور سنة ٢٧٠ ق . م . »[٣٩] فكانت نظرته مغايرة تماماً وقد راقه القول باللذة، ووحد بينها وبين السعادة، حتى تحولت فكرته الى الدعوة للتمتع باللذات ابتغاء حصول هدوء النفس وهكذا أنشأ مدرسة الابيقورية التي تبشر بأن اللذة هي الخير الاسمى والألم هو الشر الاقصى وليس للفضيلة قيمة في ذاتها ولكن قيمتها تستمد من اللذات التي تقترن بها، واعتبر هذا المذهب ان كل لذة خير، ما لم تقترن بألم فتصبح من أجل هذا شراً، وحتى ان الألم اذا نجمت عنه لذة وجب طلبه، وعلى هذا رأى ان يحرص الانسان على ان لا تستعبده رغبة شخصية او لذة فردية، بل الواجب ان يسيطر على شهواته ويتحكم في اهوائه وان يترك اللذة اذا ادت الى ألم يكبرها، وكذا يتحمل الألم من أجل لذة يتوقعها من وراء احتماله لهذا الألم، وبالرغم من هذه النظرة

الفلسفية في طلب اللذة لتحقيق السعادة فقد كان ابيقور متقشفاً متزهداً وأقرب للنساك من أهل المتع واللذات .

وبعد هذه التناقضات الفلسفية والمتاهات الفكرية، وبعد ان بلغت اليونان أوج عصرها الفكري الذهبي تنكرت لها الايام مرة اخرى، وتلاشت امام نمو روما الفتية القوية التي اجتاحت اليونان حوالى القرن الثاني قبل الميلاد وغدت ولاية من ولايات الرومان وهكذا انتقلت الفلسفة الابيقورية والرواقية التي كانت شائعة آنذاك الى الرومان، وظهر منهم فلاسفة امثال «سنيكا» و«مارك اوريل» و«ابيكيت» و«شيشرون» الخطيب الشهير بفصاحته وحكمته، وكذلك «ستيك» الذي كان يهيب بالاغنياء قائلاً :

«لماذا تكنزون هذه الاموال كأنها لكم!! انتم لستم الا قومة عليها تقومون بتدبيرها وانفاقها في وجوه الخير» .

وقد اهتم فلاسفة الرومان بتطبيق المبادىء واهتموا بدراسة السلوك وقواعده والضمير وواجبات الفرد لنفسه وربه والناس اجمع .

ومن فلسفتهم بان الصحة والجمال والغنى والشهرة والجاه والحياة نفسها، جميعاً ليست خيرات في نظر الحكيم، واضدادها ليست شروراً وآلاماً، وانه لا يوجد الا خير حقيقي هو ألا يتناقض المرء مع نفسه، والفضيلة الدائمة وسلامة النفس ـ طمأنينتها، ولا يوجد الا شر واحد هو فقدان الشرف والحرية النفسية .

«يجب ان يكون الانسان حراً سيد نفسه، وليس ذلك بـالامر العسير، انه ليس بارضاء الرغبات يكون المرء حراً، بل بـالتخلص منها».

«ان الحياة الحرة ـ والتي تكون حسب العقل وهديه ـ هي الخير الوحيد اللائق بالانسان».

ومن فلاسفة الرومان الذين تأثروا بالفلسفـة الرواقيـة واتبعوا تعاليمها، الامبراطور الروماني «مارك أوريل»[٤٠]، وهذه الجماعة تدعو الى تحمـل ما يـأتي به القـدر وان تتحمـل ظلم الانسـان فهـو ـ أي الظالم ـ ضرورة من ضرورات الكون والنظام العام .

وهناك شيء يعزينا عن هذه الآلام، وهو ان شرور الاشرار لا يمكن ان تنال من فضيلة الاخيار، فقد يقتل الشرير بعض الابرياء، وقد يصب اللعنات على رؤوس الاخيار، ولكن ماذا يمنعك انت الخيّر ان تبقى حكيماً، معتدلاً، عادلاً!! ثم ماذا يضرنا ما يقول الآخرون عنا ؟ ما دام كلامهم زوراً وكذباً وبهتانـاً، ونحن نملك انفساً زكيـة وقلوب طاهرة، قد يؤذينا بكل انواع الايذاء دون ان ينالوا من النفس الطاهرة الفاضلة الحكيمة منالاً!!».

الديانة المسيحية :

وبعد هذه الفترة من العهود تطل علينا الديانة المسيحية، بمثلها وتعاليمها واخلاقها، التي امتازت بها عما سبقها، من محاكاتها للمشاعر

اكثر من مخاطبتها للعقل، والعاطفة اكثر من التفكير، واعتمادها على الوحي لمعرفة الخير والشر، وان الرسول اعتمد في الاصلاح وتقويم سلوك الافراد والجماعات على أثارة العواطف والمشاعر وهز المراكز العاطفية بدلاً من تحريك الخلايا التي تسيطر على المنطق السليم والتفكير الحر .

وان رجال الدين في المسيحية يرون ان مقياس الخير والشر أمر الله وتنزيله لا نظر عقل البشر وحده، وهكذا بعد ان عمل العمل والفكر في الفلسفة القديمة، اصبح الوحي هو المصدر الوحيد لتبيان الخير والشر والحسن والقبيح .

ومن مزايا هذه الفترة انها اتجهت للامة كلها وللافراد كافة، لا لطبقة خاصة معينة، كما كان في عصر الفلسفة، حيث اقتصرت على طبقة معينة، واكثر ما جاء من احاديث السيد المسيح تعتبر حكماً ومواعظ تنفذ الى المراكز الحسية العاطفية بسهولة، فيها حث على عمل الخير والابتعاد عن الخصال الشريرة، فيها دعوة للتواضع ومقابلة السيئة بالحسنة ومعاملة الآخرين بلطف وبالاسلوب الذي يحب الفرد ان يعامل به، ومن اقوال المسيح :

«احبوا اعداءكم، أحسنوا الى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون اليكم، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ايضاً، وكما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم ايضاً بهم، اغفروا يغفر ايضاً

لكم»[41] .

وفي احاديث المسيح وأقواله النهي عن الرياء والقتل، والزنا والسرقة وشهادة الزور، والابتعاد عن ملذات الدنيا، وعن مباهج الارض وكنوزها، وفيها دعوة الى الزهد والتقشف والتمسك بالفضائل :

«ياأولاد الافاعي كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات وانتم اشراراً»[42] .

«احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة»[43] .

«الامين في القليل ايضاً في الكثير، والظالم في القليل ايضاً في الكثير»[44] .

وظهر في فترات متعاقبة بعض علماء الدين الذين تأثروا بالفلسفة الاخلاقية القديمة لسقراط وافلاطون وأرسطو، وجاهدوا ليوفقوا ويمزجوا بين القوى الآلهية وقوى العقل والتفكير والضمير، ومن هؤلاء «توماس الاكويني» الذي يرى ان الفلسفة ذات فائدة بالرغم من انها لا تغني عن الوحي وان هناك حاجة ماسة الى تعاليم سماوية تأتي من عند الله لانارة العقل البشري، وان الاخلاق عنده هي مزيج من الاخلاق الفلسفية ـ اخلاق أرسطو ـ والاخلاق المسيحية التي تنزل من عند الله، وانه يرى بان الفعل الانساني يكون حسناً او قبيحاً بقياسه الى

مبدأ الافعال الانسانية وهو العقل، فان اشتمل موضوعه على ما يوافق العقل وكان الفعل حسناً في نوعه كالتصدق على الفقير، والا كان قبيحاً كالسرقة التي هي سلب ما للغير».

وفي رأي هذا القديس الفيلسوف ان السعادة لا تقوم بالخيرات الخارجية كالغنى والكرامة ونباهة الشأن والمجد والجاه والسلطان، ولكن السعادة هي الخير الاعظم في ان تكون كافية بنفسها لا غاية لشيء بعدها».

ومع هذا لم يكن للمسيحية أثر يذكر في تحسين الحالة من الناحية الطبية، ولم يكن ذلك بسبب عداواتها للاطباء والطب ولكن الاكثر بسبب عدم الاكتراث، لاعتقادها بان حياة الدنيا ليست الا تجربة في سبيل حياة اخرى ابدية، يجب الاستعداد لها بالزهد والتقشف، وقيل ان من الكفر ان يلجأ الانسان طلباً للعلاج الى اطباء الارض بدلاً من زيارة قبور القديسين.

العرب قبل الاسلام :

تحدثنا كتب التأريخ القديم بأن البابليين من أصل سامي فهم عرب اذن، وقد كانوا اسبق الامم في سن القوانين وتثبيت الشرائع، وعلى هذا فان العرب القدامى كانوا أسبق أمم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم وبلغوا شأواً بعيداً في الحضارة والتقدم الاجتماعي(*).

وكذلك العرب الساميون دخلوا مصر القديمة وادخلوا معهم بعض آثار الحضارة والتطور كالآلات الحديد والعربات والابنية والكثير من المعارف الاخرى، وأقاموا حضارة دامت عدة قرون في القسم الشمالي من وادي النيل، ويقال ان النبي يوسف الصديق عاصر أحد ملوك هذه الدولة وحدثنا القرآن عن قصة يوسف وتمسكه بالفضيلة ومكارم الاخلاق بالصدق والاخلاص والعفة والامانة .

وكان للحضارات التي سادت قديماً دساتيرها واخلاقيتها، وان عجزت التنقيبات الاثرية والمعرفة الحاضرة ان تتوصل الى عاداتهم وطبائعهم، اولئك الرجال الذين اقاموا دولاً وممالك لا تزال آثارها الحضارية شامخة عبر العصور مثل عاد وثمود، والانباط في سيناء، وتدمر في بادية العراق الشمالية الغربية، وكانت لها حضارة وقوانين وآداب واخلاق ونظم ودساتير.

ونشأت في اليمن دول من أصل عربي هي الدولة المعينية والسبأية والحميرية[46]، وانهم بلغوا شوطاً بعيداً في الحضارة والرقي حيث اهتموا بالمدن والقصور والهياكل والآثار واغترسوا الحدائق والبساتين، ولا يمكن ان يقيموا تراث كهذا ويشيدوا مثل هذه الحضارات، ما لم تكن لهم قوانينهم وآدابهم واخلاقهم التي تنظم سيرتهم واعمالهم.

ويقال ايضاً عن الحضارات التي انشأتها الدول العربية المتأخرة

كما هو الحال بالنسبة للغساسنة في مشارف الشام والمناذرة في العراق، وما تدور حولهم مئات القصص والروايات والقصائد الشعرية تصف ما امتازوا به من مكارم الاخلاق . . من كرم وشهامة، وغضب وقوة وعفو وتسامح ، وجميعها صفات واضحة لما كان عليه العرب من علو همة وسمو خلق، وما هذه الا شواهد على رسوخ الحضارة العربية وعمق أثرها في التاريخ .

وكل شعب له تاريخ له تراثه وحضارته ومثله يتغنى بها واسلوب في الحياة يسير وفقه وينظم به علاقته مع عائلته وابناء مجتمعه، وان لم تكن تنظم حياة الشعوب قوانين او يسنها العلم والفلسفة. وان أي شعب من الشعوب مهما كان حظه قليلاً من الحضارة والمدنية الا وله حظ من الاخلاق والتفكير الاخلاقي .

والعربي مرهف الحس بطبعه وخلقه، ويمتاز بضمير حي متيقظ دائماً، وان الظروف التي تحيط بالعربي ان يتقلب في جوف الصحراء . . متحملاً حرها وعطشها صيفاً، وبردها القارس شتاءً، ومتعرضاً لاختلاف مناخها وتقلب احوالها، وهو يتنقل وراء الكلأ والعيش متعرضاً لمختلف الاخطار والاهوال، وهكذا أثرت هذه البيئة المتقلبة في طبيعة الانسان العربي واخلاقه، نرى العربي يمتاز بالقسوة والغلظة اذا جفا، وهو معطاء اذا جاد وكرم، له مروءة ورأفة، نهب وسلب، ليناً اذا رضى، شديداً اذا غضب، ومع هذا فانه سرعان ما يتفاعل مع

الظروف التي تلائمه، ويسهل عليه الأخذ بالحضارة والثقافة اذا استوطن وسكن، كما حدث للقبائل العربية التي سكنت العراق، واليمن وفلسطين، وسورية ومصر. . . وان الدارس المتعمق في بحث آثارهم الادبية والقصص التي تروي تأريخهم وحياتهم يطلّع بصورة جلية على تفكيرهم الاخلاقي، وانهم كانوا يتحسسون الوازع الداخلي والضمير الذي لعب دوراً كبيراً في اعمالهم واحوالهم الاجتماعية، وانهم عرفوا النفس الانسانية وما تنطوي عليه من خير وشر، ووصف البعض الصراع الداخلي بين الدوافع والاعمال الشريرة، وكيف ان حكمائهم وشعراءهم امروا بالاعمال الفاضلة ونهوا عن اعمال الشر وان اشعارهم زاخرة بتعداد الصفات الحميدة، والتي تعتبر ركائز ثابتة للانسان الفاضل الحكيم. . تغنوا بالشجاعة، والبطولة، والكرم والشهامة، والايثار والمروءة والعفو، والوفاء والحلم والامانة. .

لقد كانت لهم حكم ثابتة ووصايا رصينة وعرف لا يتعدون اصولها، وقد نقلت هذه الحكم والمآثر عبر الاجيال، وشغلت حيزاً ضخماً في كتب النثر والشعر وكتب التراث العربي، فمن الحكم المأثورة قول عامر بن الضرب العدواني[٤٧]: «الرأي نائم، والهوى يقظان، ولذلك يغلب الهوى الرأي، عجّلت حين عجلتم، ولن أعود بعدها. . . .» «من جمع بين الحق والباطل لما يجتمعا له، وكان الباطل اولى به، ان مع السفاهة الندامة».

وقد اوصى ذو الاصبع العدواني[٤٨] ابنه فقال:

«. . . ألِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يُسودوك، واكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، وأسمح بمالك، واحم حريمك واعزز جارك وأعن من استعان بك. . . . . .».

وقصيدة زهير بن أبي سلمى[٥٠] عن الجود والوفاء بالعهد وعمل الخير ومعرفة موضعه واصلاح النفس ومعرفة خفاياها ومكنوناتها:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يَفره ومن لا يتق الشتم يُشتم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يُستغنَ عنه ويذمم

ومن يوف لا يذمم ومن يُهد قلبه
الى مطمئن البر لا يتجمجم

ومن يجعل المعروف في غير اهله
يكن حمده ذماً عليه ويندم

ومهما تكن عند امريء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تُعلم

هذه الابيات من قصيدة قيلت منذ خمسة عشر قرناً ولكنها لا

نزال تحتفظ بجوهرها الاخلاقي وفلسفتها، وترينا ما كان عليه العرب من حميد المزايا وسمو الشمائل والوفاء والمكارم، ولا نزال نستشهد ببعض ابياتها اذا ما طلبنا حجة دامغة وقولاً فصلاً.

ومن حكماء العرب ودهاتها وفلاسفتها وخطبائها «اكثم بن صيفي» الذي كان رئيس الخطباء الذين أوفدهم النعمان الى كسرى، وقال له بعد ان اعجب به «لو لم يكن للعرب غيرك لكفى» ومن خطبته امام كسرى:

«ان افضل الاشياء اعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وافضل الملوك أعمها نفعاً وخير الازمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق منجاة والكذب مهواة، والشر لجاجة والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الامور الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد لا امير بها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الاولاد البررة، خير الاعوان من لم يراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، حسبك من شر سماعه، الصمت حكم وقليل فاعله، البلاغة الايجاز، من شدّد نفر، ومن تراخى تآلف»[٤٩].

ومن قوله يوصي قومه وابناء جلدته وتعد من درر الكلام وحكم

الاخلاق:

«لن يعدم المشاور مرشدا، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمَّع سمِّع به، ومن سلك الجُدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود ان يتعب قلبه ويشغل فكره، ويورث غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه، والصبر على جُرع الحلم أعذب من جناة ثمر الندامـة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان».

ان هاتين القطعتين من منثور كلام الحكماء لتدل دلالة واضحة على ما كان العرب عليه من مكارم الاخـلاق وتمسكهم بأبلغ المثـل وانبلها وتعلقهم بأصول اخلاقية سامية، ولم نر وصفاً بنفسية الحسود ابلغ من وصفها هذا، وكذا للماضغين غيرهم وناسين انفسهم .

كما ان المساجلة بين كسرى والحارث بن كلدة هي الاخرى دليل آخر على خلق العرب ونبلهم، فقد سأل كسرى الحارث:

- «فما الـذي تحمـد من اخـلاقهـا ويعجبـك من مـذاهبهـا وسجاياها؟

فقال الحارث: ايها الملك، لها - يقصد العرب - أنفس سخيّة، وقلوب جـريّة، ولغـة فصيحة وألسن بليغـة، وأنسـاب صحيحـة، واحساب شريفة. . ، مطعمو الطعام في الجدب، وضـاربو الهـام في الحرب، لا يرام عزهم ولا يضام جارهم، ولا يستباح حريمهم، ولا

يذل كريمهم . . . . »[٥١] .

ومن حديث قس بن ساعدة مع ملك الروم حيث ساله :

- عمّن تعلمت الحكمة؟

قال قس : عن عدة من الفلاسفة .

- فما أفضل الحكمة ؟

قس : معرفة المرء بقدره .

الملك : فما تقول في الحلم؟

قس : حلم الانسان ماء وجهه .

الملك : فما تقول في المال وفضله ؟

قس : افضل المال ما اعطي منه الحق .

الملك : فاخبرني عما بلوت من الزمان وتصرفه ورأيت من اخلاق أهله ؟

قس : بلونا الزمان فوجدناه صاحبا يخون صاحبه، ولا يعتب على عاتبه، وجدنا الناس صورة من صور الحيوان، يتفاضلون بالعقول، ووجدنا الاحساب ليست بالآباء والامهات ولكنها في اخلاق محمودة وفي ذلك أقول :

فلم أر الفضل والمعالي في
قول الفتى اني من العَرَبِ[٥٢]

حتى يُرى ساميا الى خلق
يذود محموده عن النسبِ

وكذلك الامثال العربية والحكم والشواهد ما هي الا مرآة صافية تعكس صور الامم القديمة وتشير بوضوح الى عادات اصحابها وطبائعهم واخلاقهم وقد تكون مقياساً دقيقاً وميزاناً عادلاً تزن رقي الشعوب او انحطاطها، سمو اخلاقها او فسادها، سعادتها او شقاءها، ومن الذين امتازوا بضرب الحكم والامثال «لقمان بن عاد» احد حكماء العرب ودهاتها حتى لقب بلقمان الحكيم ومن حكمه[٥٣] :

- رب أخ لم تلده أمك .
- الصمت حكم وقليل فاعله .
- كل امرىء في بيته أمير .
- كل امرىء بشأنه عليم .

ومن الامثال والحكم القديمة التي تدل على مكارم اخلاق العرب وفضائلهم :

- لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق[٥٤] .
- ثلاثة لا بقاء لها ظل الغمام، وصحبة الاشرار، والثناء الكاذب[٥٥] .
- التفكر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة والعلم حياة[٥٦] .
- الكذب داء والصدق شفاء .
- مقتل الرجل بين فكه[٥٧] .

ومن الحكم والاقوال المأثورة التي تناقلتها العرب من قديمها عبر الاجيال:

- مصارع الرجال تحت بروق الطمع[٥٨].
- خير الغنى القناعة[٥٩].
- رضا الناس غاية لا تدرك[٦٠].
- اذا نزل بك الشر فاقصد «أي احلم»[٦١].
- اذا عزّ أخوك فهن[٦٢].
- الحمد مغنم والذم مغرم[٦٣].
- الجود محبة والبخل مبغضة[٦٤].
- عند الصباح يحمد القوم السرى[٦٥].
- اول الحزم المشورة[٦٦].
- غثك خير لك من سمين غيرك[٦٧].
- أوسعتم شتماً وأودوا بالابل[٦٨].
- الصدق ينبي عنك لا الوعيد[٦٩].
- الظلم مرتعه وخيم[٧٠].

هذا قليل من كثير من بالغ الحكم وروائع الامثال مما لا يمكن حصره، وقد كان العرب القدامى يتخذونها أشبه ما تكون بقرابين يراعونها ويجاهدون لأن يتمسكوا بها ويترسموا خطاها ويلقنوا ابناءهم على الاهتداء بهديها وعدم الخروج عليها. وشعب هذه اقواله، وهذه

حكمه وهذه امثاله لشعب يمتاز باخلاق عالية وصفات رفيعة وفكر ثاقب وفلسفة عميقة لا تقل عن فلسفة اليونان والصين، لكن طبيعة الصحراء ودوام الترحال منعهم من تدوين تلك الحكم والامثال والاشعار الا بعد ان استوطنوا كما فعلوا في اليمن وسوريا والعراق ومصر...

ومن الامجاد العملية التي تغنى بها العرب وتدل على حسن الخلق والوفاء، قصة حنظلة الطائي وشريك بن عمرو مع المنذر بن ماء السماء لتعد معجزة لا تصدق بالوفاء وصدق العهد، كما ان وفاء السموأل الذي استودع دروع امرىء القيس، ليدل دلالة واضحة على حرص العربي على الوفاء بالعهد وحفظ الامانة مهما بلغت الصعاب وضروب المحن ولكن عهده ووفاءه لم يتزعزع وفيها يقول السموأل:

وفيت بأذرع الكندي اني
اذا ما خان أقوام وفيت[٧١]

ومن الحكم المنظومة:

قد قيل ما قيل صدقا وان كذبا
فما اعتذارك من قول اذا قيلا[٧٢]

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل[٧٣]

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أي الرجال المهذب[٧٤]

والقصائد الشعرية التي تغنوا وفاخروا بها بالكرم والجود فهي سجل حافل بصدقهم وتمرسهم حتى ليصل بهم الجود والكرم الى حد عظيم، وما تزال تضرب الامثال بتلك المفاخر الاخلاقية القديمة ومنها حاتم الطائي وقوله المشهور:

أوقد فان الليل ليل قر
والريح يا موقد ريح صرِ
علَّ يرى نارك من يمرّ
ان جلبت ضيفاً فانت حر[٢٥]

وكما يقول عمرو بن الاهثم:

ذريني فان الشح يا أم هيثم
لصالح اخلاق الرجال سَروق
ذريني وحطّي في هواء فانني
على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

وكان العرب يمجدون العفة والحياء ويعدونهما من الاخلاق الفاضلة وبهذا الصدد يقول حاتم الطائي:

وما تشتكيني جارتي غير انها
اذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها
اليها ولم تسبل عليَّ ستورها

وفي الحلم تذكر قصة قيس بن عاصم المنقري، وهو جالس يحدث قومه، اذ جيء بابن أخيه وقد قتل ابناً له، فلم ينفض مجلسه ولم يقطع حديثه وأمر بفك وثاق ابن أخيه ولم يزد ان قال:

« .... انك انقصت عددك، وأوهنت عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت قومك.... » ثم أمر بدفن ابنه ودفع ديته الى والدته مواساة لها.

ومن القصائد الناطقة بالاخلاق الحميدة والاعمال الفاضلة والحكم البليغة قصيدة عبد قيس بن خفاف ينصح بها ابنه:

والضيف اكرمه فان مبيته
حق ولا تَكُ لعُنَة للنَزّل

واعلم ان الضيف مخبر اهله
بمبيت ليلته وان لم يسأل

واترك محل السوء لا تحلل به
واذا نبا بك منزل فتحول

واذا هممت بامر شرٍّ فاتئد
واذا هممت بامر خير فافعل

واذا تشاجر في فؤادك مرّة
امران فاعمد للاعف الاجمل

أوليست هذه الابيات وهي من قصيدة طويلة فلسفة عميقة ناطقة بمكارم الاخلاق ودعوة صادقة للمثل السامية والسيرة الحسنة، وفيها سبر لاعماق النفس وفلسفة لما قد يحدث من صراع نفسي عميق وكيف يأمر ابنه باتباع عامل الخير واجتناب عامل الشر.

ولا ضير في ان يتوج هذا الفصل بشاهد فلسفي آخر هو قول لبيد:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يُصلحه القرين الصالح

العرب بعد الاسلام:

هكذا كانت طبائع العرب قبل الاسلام واخلاقهم ومعرفتهم للخير والتغني بفضائله وتمييزهم للشر والابتعاد عن مسالكه، ولكن يسهل على الفرد او الجماعة ان تخرج على تلك الاحكام والطبائع والعادات وينتهك حرمتها وان يعتدي ويسلب ويقتل ويزني وقد لا يجد من يحاسبه ويراقبه، او قد يجد بعض الاقرار على الكثير من تلك القيم والعادات الشائعة آنذاك، حتى أشرق الاسلام بنوره واضعاً دستوراً ثابتاً لحياتهم، وقوانين محدودة لكل مسلم ومسلمة بعدم انتهاكها ولا يخرج عن تعاليمها وشريعتها.

هذا ماجاء به الاسلام في آيات القرآن الكريم واحاديث الرسول(ص) الشريفة، واصبح العرب يفقهون القرآن والحديث

ويدركون ما جاء فيهما من تعاليم فاضلة وتوجيه صحيح وقيم اخلاقية رصينة، وقد اتسع مجال تفكيرهم وادراكهم عما خفي عنهم في سالف العصور، وتغيرت نظرتهم لكثير من العادات الشائعة والمفاهيم القديمة عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والشجاعة والجبن والكرم والبخل والصدق والكذب، فاستقام ما اعوج من عاداتهم وسلكوا نهج المزايا الاخلاقية التي أقرها القرآن الكريم، والاحاديث الشريفة.

فالقرآن أمر بمكارم الاخلاق ومحامد الخلال والنهي عن المنكر والرذائل والشر والبغي والكذب.. كما حدد واجبات الانسان ومسئولياته نحو شخصه وربه ووالديه وأمته وابناء جلدته واصدقائه وأرضه ووطنه..

والاحاديث الشريفة التي كانت تصدر عن الرسول(ص) نطقاً اوعملاً، وصية وارشاداً، ما هي الا شرح لتعاليم القرآن، ومتممة لها وفيها تطبيق عملي لتعاليم الاسلام.

ان الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ما هي الا توصية وارشاد حتى يكون المرء عاملاً للخير منتفعاً به لنفسه ولغيره، زاهداً بالدنيا ومتقرباً للآخرة، وترغيب وترهيب للتمسك بالحسنات، ودفع السيئة بالحسنة والحث على الصبر والعفو بشرط ان لا يكون عن عجز وضعف، والتوكل على الله من غير تواكل او كسل، والصدقة وبذل المال من غير تبذير او تقتير، والوفاء بالعهود والمواثيق والبر بالوالدين

ومالهما من حقوق، وصلة الرحم ورعاية حق الجار، وحسن الخلق مع الناس جميعاً، والنهي عن شرور اللسان من كل غيبة او نميمة او كذب والابتعاد عن التحاسد والخيانة والتجسس والتباغض والكسل والجبن والبخل وعن اذى الناس في جميع انواعه واشكاله ففي الحديث الشريف:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٧٦].

فتعاليم الاسلام زاخرة بالحكم والدعوة الصريحة الى مكارم الاخلاق والفضائل والمثل العليا، وهي تدعو الى الخير الامثل وعزة الانسان وسعادته القصوى.

فالقرآن الكريم الذي نُزّل من الباري عز وجل دستوراً ثابتاً ومرشداً صادقاً وموجهاً اميناً الى مكارم الاخلاق، يقرر التبعية الفردية لكل ما يصدر عن الانسان ومنوط به كل تكليف من تكاليف الدين وكل فضيلة من فضائل الاخلاق.

«.... كل نفس بما كسبت رهينة»[٧٧].

«.... قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فأنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل»[٧٨].

«ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى»[٧٩].

«.... فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر»[٨٠].

هذه الآيات الكريمة الصريحة خاطب الله الانسان بها لتحديد

المسئوليات الشخصية وتحمل الانسان كل عمل يقوم به، ان كان خيراً اوشراً، وهذا الحث الواضح الصريح برعاية اليتيم وعدم زجر الضعفاء والمساكين والسائلين فانما تدل على الاخلاق الفاضلة والطبائع الحسنة، وفي آية اخرى:

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين﴾[٨١].

ومن الآيات الكريمة الوصية بالوالدين ورعايتهما والاحسان اليهما وارجاع الفضل لهما والبر بهما وحبهما ومعاملتهما بكل لطف وحنان وبخاصة عندما يكبران ويضعفان:

﴿. . . . وقضى ربك الا تعبدوا إلاّ إياه، وبالوالدين احسانا أما يبلغن عنك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربي ارحمهما كما رباني صغيرا﴾[٨٢].

ان خفض جناح الذل للوالدين والاحسان اليهما ليس فيه من الضعف الانساني والذلة والمسكنة وانما هو قوة في ضبط النفس وملك زمامها وارجاع الفضل اليهما والتحلي بالحلم والاحترام والتقدير لمن احسن اليك عندما كنت عاجزاً ضعيفاً نهبة لكل حدث طاريء او آفة اومرض، أن هذه الآية ما هي الا تجسيد واضح لأسمىٰ معاني العطف الانساني والاخلاق الفاضلة، وان القرآن الكريم فيه دعوة صريحة للقوة ولكن بالحق والعدل، والدفاع عن كرامة الامة والدين والوطن

وقدسية العقيدة الصادقة وكرامة الافراد:

﴿.... وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا.......﴾[٨٣].

ان الله أمر بمحاربة الذين يقاتلونا ويعتدون على ديننا او أرضنا او كرامتنا او صحتنا وشرفنا واقتصادنا ومن غير ان نكون المعتدين او الظالمين والا:

﴿.... فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم...﴾[*].

فالقرآن الكريم هو دستور الامة وهاديها ومرشدها، وقد سلك طريق الفضائل السامية والمثل الرفيعة التي تسمو بالانسان الى مصاف الكمال، فما كانت هناك صفة فاضلة تليق بالانسان الكامل إلا وأمر بانتهاجها، فدعا الى الصبر والصدق والكرم والشجاعة من غير تهور والعفة والعدل والتواضع من غير ذلة، والعفو عن مقدرة والمجاملة والمحاسنة. ونهى عن كل ما هو شائن من رذائل الافعال وأنذر وتوعد العبد المسلم من التخلق بها فالانسان المسلم لا يكذب ولا يجبن ولا يبخل ولا يخون ولا يدنس ولا يغش ولا يتجسس. ومن هذه الآيات الكريمة:

﴿..... فاصبر على ما يقولون﴾[٨٤].

﴿.... ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور﴾[٨٥].

﴿..... وقل ربي أدخلني مدخل صدقٍ واخرجني مخرج صدقٍ﴾[86].

﴿....... والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[87].

﴿...... ان الله يأمر بالعدل والاحسان﴾[88].

﴿..... قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾[89].

﴿....... ان الله لا يحب كل مختال فخور﴾[90].

﴿....... ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين﴾[91].

﴿..... ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه فكرهتموه﴾[*].

ان هذه الآيات التي تحث على الاخلاق الحميدة والفضائل والاعمال الكريمة وعلى كل مسلم ان يعمل على هديها ويطبع نفسه بطباعها، وعلى الطبيب المثالي ذي الاخلاق الكريمة ان يدرك اذ يراجعه المريض مهما كانت منزلته وعلت مكانته وقويت شكيمته فهو ضعيف بمرضه هلوع بآلامه، يطلب الرحمة من الله والمساعدة من الطبيب عندما يقصده، وعلى الطبيب ان يكون اهلاً لهذه الاستجابة، بان يكون رحيماً حليماً قوياً بضبط النفس والمعاملة الحسنة والمساعدة والقول بالمعروف وان يكون عادلاً في علاج مرضاه، وان لا يفرق في العلاج بين قوي

وضعيف بين رئيس ومرؤوس، غني وفقير فكلهم متساوون في العدالة الانسانية والمرض والألم والموت والشفاء والبعث للحياة مرة اخرى . .

« . . . واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[٩٢] .

ان التمسك بالحق فضيلة والعدل بين الناس فضيلة، وكذا اتيان الاعمال الصالحة الصحيحة والصدق بالقول، ولو كره الكارهون :

« . . . ولكن اكثرهم للحق كارهون »[٩٣] .

« . . . . . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[٩٤] .

« . . . . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »[٩٥] .

ان الامة بافرادها وليس بحكامها فقط مدعوة الى عمل الخير والدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر والاعمال الشائنة والخيانة والفساد، وان يكون التعاون بين الجماعة والامة والافراد على البر والتقوى والاعمال المثمرة النافعة وان لا يكون التعاون على الاعمال الأثمة والفساد واتيان المنكرات وهدم كيان الامة والسعي الى تمزق الفئات والجماعات وبعثرة الجهود الخيرة وشق الصفوف المؤمنة المخلصة لمصالح ذاتية ومنافع شخصية واغراض لا تخدم اهداف الامة ككل وكرامة الانسان العربي المسلم :

«وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»[96].

«ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[97].

«ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون»[98].

«ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل»[99].

«. . . . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»[100].

«وأوفوا العهد ان العهد كان مسئولا»[101].

«ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم»[102].

«. . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[103].

«. . . . ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله»[104].

وان سيرة الرسول محمد(ص) وحياته العامة والخاصة لهي أدق تطبيق عملي للرسالة الانسانية السماوية السامية، فهو قدوة مثالية لكل عمل اخلاقي رفيع ودعوة واقعية لسلوك الانسان الكامل، وكان النهج الذي اختطه النبي محمد(ص) لنفسه متمثلاً بقوله الشريف:

«انما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[105].

فكان قدوة حسنة للمسلمين الاولين والآخرين بما يقول ويعمل دون تكلف او رياء، فما دعا الى عمل فاضل الا وكان سباقاً لتطبيقه على نفسه وعلى عائلته والمقربين اليه، ولا نهى عن عمل قبيح الا وكان معصوماً كل العصمة من اتيانه.

والاحاديث الشريفة كانت شرحاً وافياً وتفسيراً واضحاً للآيات القرآنية الكريمة التي جاء بها القرآن هادياً ومرشداً للبشر، فكانت الاحاديث توضح عندما يراد توضيح وتفسير، وكانت حياة الرسول هي التطبيق العملي الواقعي لما نزلت به الآيات بالدعوة الى الاخلاق الفاضلة، فقد كان الرسول صادقاً دائماً في اقواله واعماله ويدعو الى الصدق ويقرب الصادقين، ونهى عن الكذب وجعله من المعاصي الكبيرة:

«يطبع المؤمن على الخلال كلها الا الخيانة والكذب»[١٠٦].

«لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء، وان كان صادقاً»[١٠٧].

«كَبُرت خيانة ان تحدّث أخاك حديثاً، هو لك مصدِّق، وانت له كاذب»[١٠٨].

«تحرّوا الصدق وان رأيتم ان التهلكة فيه فان فيه النجاة»[١٠٩].

بهذه الاقوال الصريحة المؤمنة الصادقة كان يخاطب الرسول المسلمين ويدعوهم الى الصدق حتى وان افتكروا ان في ذلك تهلكة،

وينهاهم بكل حزم وقوة عن الكذب.

وكان الرسول اميناً حتى لقب بالأمين وهو شاب يافع، وقبل ان نيط اليه الرسالة السماوية، وفياً لاصدقائه واقربائه وعارفيه وللمسلمين عامة، مخلصاً وداعياً للاخلاص في الاعمال والاقوال وفي السراء والضراء، ومحدثاً ومؤدباً، يحب ادب الحديث، وما أغاظ محدثاً قط، منصتاً لمحدثيه بكل رحابة صدر وسعة أفق لا يضيق ذرعاً ولا يشعر محدثيه بمضايقة او نفور وان اشتطوا في الحديث، او حتى اذا جهروا في الصوت، وكم من محدث أغاظ الجالسين في حضرة الرسول(ص) ولكن الرسول يبقى صامتاً منصتاً يستمع الحديث وناصحاً جلساءه بعدم توجيه اللوم الى المحدثين. كارهاً للاحقاد داعياً للصفح والتسامح وداعياً الى قوة المسلم، وان تكون تلك القوة متمثلة بالقوة العقلية والجسدية وقوة الايمان وقوة العقيدة وان تستخدم هذه القوى في مجال الخير والفضيلة وضبط النفس عن كل نزوة طارئة وشهوة ضارة، وكان الرسول جواداً كريماً لا يبخل بماله وبصحته وبوقته، وما رد طلب من طلبه قط، صبوراً في احلك الايام قسوة وشدة، ولا ينفد صبره مهما عظمت الامور وضاقت بها الصدور، عفيفاً نظيفاً عن كل ما يدنس النفس البشرية الطاهرة باعماله وأقواله، ويدعو الى الحياء والحشمة وعدم التبذل والاستهتار في الاعمال والاقوال حتى المزاح والمراء.

ودعا الرسول(ص) الى التوادد والتصافي وكسب الاصدقاء والاخلاص لهم والاهتمام بهم وبحسن الجوار والمعاملة الحسنة للصديق والجار واعتبرهم من المقربين وأوصى بالاتحاد، لأن الاتحاد قوة والفرقة ضعف وهوان.

ومن صفات المسلم التي دعا اليها الرسول(ص) ان يكون رحيماً بالضعفاء والمساكين والفقراء واليتامى، بل ان يكون عطوفاً حتى على الحيوانات فيقوم بتغذيتها واروائها وعدم اهمالها، ولكن هذا العطف والرحمة عند المسلم يجب ان لا تحرمه من عزته وكرامته، لأن قوة المسلم بهذه العزة، وهذه الكرامة، والعقيدة الصادقة والايمان الراسخ والمنطق السليم والعقل الناضج وتحكيم العقل والفكر والعلم، وفضّل الاسلام ذوي الفكر والعقل والعلماء حتى على المتعبدين من رجال الاسلام. وما بعض الامثلة من الاحاديث الشريفة التي سنستشهد بها الا دليل واضح وضوح الشمس على الدعوة السامية التي جاء بها الرسول الكريم:

«خياركم احسنكم اخلاقاً»[١١٠].

«مثل المنافق كالحنظلة لا ريح لها وطعمها مرٌّ»[١١١].

«تبسمك في وجه اخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وارشادك الرجل في أرض الضلالة صدقة».

«آية المنافق ثلاث، اذا حدَّث كذب، واذا وعد أخلف، واذا

عاهد غدر، وان صلى وصام وزعم انه مسلم».

سئل رسول الله (ص) من احبُّ الى الله تعالى ؟

قال «أحسنهم خلقا»[١١٢].

وسئل مرة ثانية «أي المؤمنين اكمل ايمانا؟».

قال: «أحسنهم خلقا»[١١٣]

وعن أنس: قال رسول الله (ص):

«ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل وانه لضعيف العبادة، وانه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم»[١١٤].

«كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»[١١٥].

«شر ما في الانسان جبن هالع وشح خالع»[١١٦].

«اذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم الحكماء، وجعل المال عند السمحاء وإذا أراد الله بقوم شراً ولى أمرهم السفهاء، وجعل المال عند البخلاء»[١١٧].

«اياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[١١٨].

قال رسول الله (ص): «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات؟» قالوا نعم يارسول الله، فقال: «تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من

قطعك»[١١٩].

وقال:

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفي غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[١٢٠].

«ان لكل دينٍ خلقاً وخلق المسلم الحياء»[١٢١].

هذه نخبة من الاحاديث النبوية الشريفة التي كانت تدعو الى مكارم الاخلاق والمثل الانسانية السامية والصفات الحميدة والفضيلة والعدل والحكمة، ولا أراني بحاجة الى الاطالة والاسهاب في الاستشهاد من الاحاديث الكريمة الداعية للاخلاق الفاضلة لان ذلك يحتاج الى مجلد ضخم، ومن رغب المزيد فعليه بكتب الاحاديث النبوية الشريفة.

وبعد ان توسعت رقعة الاسلام وانتشرت التعاليم والقوانين السماوية في كل حدب وصوب، انفتح الاسلام والمسلمون على حضارات الامصار التي انضوت تحت لواء الاسلام فأثروا فيها وتأثروا بها، من ثقافات يونانية ورومانية وهندية وفارسية وخاصة إبان عصر النشر والترجمة والتأليف حيث برز فلاسفة تأثروا بتلك الفلسفات الاخلاقية التي سبقتهم ولا سيما الفلسفة اليونانية، لما فيها من فلسفة تقارب وبعض ما جاء به الاسلام من تمسك بالاخلاق الكريمة والتزام اهداب الفضيلة، ومن هؤلاء الفلاسفة:

«الكندي»[١٢٢] الذي ولد في الكوفة في أواخر القرن الثاني للهجرة، وأخذ بقسط من الثقافة العربية في مدينة البصرة ثم انتقل الى بغداد ونهل من علومها وشارك في عدد كبير من التآليف والتراجم، وحاول جاهداً ان يوفق بين الدين والفلسفة ووجه الفلسفة الاسلامية الى هذه الناحية ـ ناحية التوفيق ـ وتأثر كثيرا بمذاهب ارسطو وافلاطون، وكان يرى بأن النفس الانسانية جوهر أزلي خالد هبط للجسم بعد ان صار صالحاً لقبوله، وقد كتب في المنطق، والفلك، والطب، والنفس والفلسفة والاخلاق، ومن اقواله المروية:

«من ملك نفسه ملك المملكة العظمى واستغنى عن المؤن، ومن كان كذلك ارتفع عنه الذم وحمده كل واحد وطاب عيشه»[١٢٣] ونقل عنه:

«ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه ان يتخذ صور جميع معارفه من الناس مرآة له، تريه صور كل واحد منهم، عندما تعرض له آلام الشهوات التي تثمر السيئات، حتى لا يغيب عنه شيء من السيئات التي له. . . .»[١٢٤].

«والفارابي»[١٢٥] فيلسوف زمانه قضى شطراً طويلاً من حياته في بغداد تعلم فيها الآداب والعلوم العربية والفلسفة، وبعد اضطهادات سياسية رحل عنها الى حلب ودمشق، وكان فقيراً بدرجة انه كان

يستضيء في اثناء قراءته بقنديل لحارس احد البساتين، ومع هذا لم يمنعه ذلك من الاشتغال بالعلم والفلسفة حتى اطلق عليه فيلسوف المسلمين، والفارابي عني بالاخلاق والسياسة ومزجهما معاً، آخذاً بنهج افلاطون. . . ليتوصل الى السعادة العظمى، ومن فلسفته بأن العقل قادر على معرفة الخير والشر وان ذلك واجب على المرء والا فما كان من العدل ان يكون مسئولاً اخلاقياً، وعنده:

«ان السعادة العظمى التي تطلب لذاتها، وهي ان تحرر النفس من قيود المادة واغلالها فتصير عقلاً كاملاً، أي ان تصير نفس الانسان من الكمال والتخلص من أدران المادة وغواشيها»[١٢٦]. وهو يسير مع غالبية فلاسفة المسلمين اذ يرى هناك صلة كبيرة بين رياضة النفس بفعل الخير ومجانبة الشر، وبين الوصول للسعادة بالعلم والمعرفة.

وكان الفارابي مصداقاً للفيلسوف الذي طبق تعاليمه بنفسه فكان زاهداً متعففاً عن الدنيا مقتنعاً بما يقوم بأوده ومن وصاياه: «انه ينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة، ان يكون شاباً صحيح المزاج، قد تعلم القرآن واللغة وعلوم الشرع، ويكون غير مخل بأدب من آداب السنة والشريعة والا يتخذ علمه آلة لكسب الاموال، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زور»[١٢٧].

و«ابن سينا»[١٢٨] (سنة ٣٧٠هـ/ ٤٢٠هـ) وهو الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا، من اهل بلخ ومنها انتقل الى بخارى والكثير من المدن

الامصار حيث تتلمذ على الكثير من القراء والادباء والفلاسفة، فكان اديباً وشاعراً وطبيباً وعالماً ورياضياً فضلاً عن كونه فيلسوفاً عميق الاغوار، وهو من فلاسفة الاسلام الذين عنوا بدراسة اخلاق الفرد والجماعات، وكانت له بحوث ودراسات في علم الاخلاق منها:

«رسالة في الاخلاق» و«رسالة في العهد» بجانب كتبه الطبية والفلسفية والادبية، ويرى ابن سينا ان من شاء ان يسوس الآخرين، فعليه اولاً ان يسوس نفسه، لأن نفسه هي أقرب شيء اليه واكرمها عليه.

ووضع ابن سينا طرقاً وسبلاً واضحة لمعرفة الانسان نفسه واخلاقه والوسائل الكفيلة في أصلاح اخلاق نفسه وتقويم ما اعوج منها، كما وضع تصنيفاً للفضائل والرذائل وما ينضوي تحت كل منهما من صفات وعادات ومن حكمه:

«من رام سياسة نفسه، ان يعلم ان له عقلاً هو السائس، ونفساً أمارة بالسوء، كثيرة المعايب، جمة المساوىء في طبعها وأصل خلقها وهي المسومة، وان يعلم ان كل من رام اصلاح فاسد، لزمه ان يعرف جميع فساد ذلك الفاسد. . . ثم يأخذ في اصلاحه»[١٢٩] وكذا قوله:

«ان السعادة الانسانية لا تتم الا باصلاح الجزء العملي من النفس، وذلك بأن تحصل ملكة التوسط بين الخلقين الضدين»[١٣٠].

«ان سعادة النفس الانسانية، انما تتعلق أشد التعلق بكمال

ذاتها، من حيث صيرورتها عالماً عقلياً فيما يتعلق بها ذاتها»[١٣١].

«.... ولذلك اذا اعتدنا من أول امرنا افعال اصحاب الاخلاق الجميلة حصل لنا باعتيادنا الخلق الجميل، واذا اعتدنا من أول أمرنا أفعال اصحاب الاخلاق القبيحة حصل لنا الخلق القبيح»[١٣٢].

ومن فلاسفة الاسلام الذين اهتموا بدراسة الفلسفة الاخلاقية والبحث الاخلاقي «احمد بن محمد بن يعقوب» الملقب «ابن مسكويه» ومن خير ما ألف كتابه «تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق» وعنده:

«ان الخير هو ما يبلغ به الكائن المريد غاية وجوده او كمال وجوده»[١٣٣].

«والانسان لا يبلغ كماله الا مع ابناء جنسه وبمعونتهم، ويجب ان يكون علم الاخلاق مقرراً لما ينبغي ان يكون عليه سلوك الانسان في الجماعة»[١٣٤].

ومن فلاسفة الاسلام الاخلاقيين «ابن باجة الاندلسي» وهو من كبار العلماء والفلاسفة في المغرب العربي الى جانب كونه عالماً في الطب والفلك والرياضيات، وله مؤلفات قيمة فقد اكثرها، وله رسائل وآراء في الاخلاق، اهمها «تدبير التوحيد» وانه يرى السعادة العظمى هي الاتصال بالعقل الفعال وتحول الانسان الى عقل كامل يرى ويشاهد ويعقل بعيداً عن عالم الحس، ويرى ابن باجة بان الاصل في الطبيعة

الانسانية هو الخير»[١٣٥].

ومن الاطباء الفلاسفة المسلمين الذين اهتموا بدراسة الاخلاق، «ابن الطفيل»[١٣٦] الذي تبحر في الفلسفة الى جانب كونه طبيباً حاذقاً وشاعراً مبدعاً وعالماً من علماء الفلك، ومن مؤلفاته المتداولة: «حي بن يقظان» وانه نهج بفلسفته نهج استاذه «ابن باجة» وسار على مسلكه في ان السعادة العظمى التي يقصد اليها المتوحد بسلوكه هي غاية الغايات ونهاية الخيرات، وهي كمال المعرفة والاتصال بالعقل الفعال، والفناء في عالم العقل والوصول الى مرتبة الكشف بلا حجاب ولا اعتماد على عالم الحس.

والامام الغزالي أحد فلاسفة الاسلام الذين بحثوا في الفلسفة الاخلاقية ومقوماتها، وهو ابو حامد محمد بن محمد الغزالي المولود في طرسوس سنة ٤٥٠هـ وفيها تلقى ما تفقه به في صباه، ولكنه تنقل في حواضر مختلفة ودرس على عدة من الاعلام منهم الرذكاني وابي نصر الاسماعيلي وضياء الدين الجويني، واستفاد كثيراً مما قرأه من الفارابي وابن سينا وابن مسكويه، وقد تأثر بهم الغزالي الى حد بعيد في نظرته للاخلاق فهو يرى حسن الخلق انه وسط بين الافراط والتفريط وان خير الامور أوسطها، وان كلا طرفي الامور ذميم[١٣٧].

وعلم الاخلاق عنده هو تكييف النفس وردها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ومن سبقهم من

الانبياء والصديقين والشهداء وهو يعرف الخلق :

«الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة، المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً»(١٣٨).

ومن حكم الغزالي:

«فالداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفي بمجرد العقل على انوار القرآن والسنة مغرور»(١٣٩).

الاخلاق في العصر الحديث :

لكل شروق غروب ولكل صعود هبوط، ولكل نهوض نكوص، هذا دستور دائم لعالمنا الذي نعيش فيه، فدالت دولة الاسلام وأصابها النكوص بعد نهوض دام قروناً، وتحول ذلك الشموخ الى انحدار مع مرور الايام، ودارت عجلة الزمن وفعلت الايام فعلها بحضارة العرب والاسلام وتمكنت أرضة الشعوبية، وحقد الصليبية في نخر كيان الدولة العربية الاسلامية، فلم توهنها سياسياً وتضعفها عسكرياً فحسب بل اوهنت جوهرياً حياتها ونفذت الى اعماق أركانها وحطمت ركيزة مقوماتها ـ انها حطمت عنصر الاخلاق والآداب

الاسلامية والمثل العربيـة الرفيعـة ، وعمت الجهالـة والتأخـر الثقافي والحضاري والفلسفي والاخلاقي في العالم الاسلامي والامة العربية .

واوربا لم تكن احسن حظاً من عالمنا العربي والاسلامي فكانت في خلافات مستعصية ومنازعات دائمة واقليميات متطاحنـة وحرب ونهب وسلب، وظهرت البدع الدينية التي سيطرت على عقول الناس وكانت هي التي ترسم الطرق امام العلوم والفلسفة حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانت اميركا لا تزال في عالم المجهول تحكمها شريعة الغاب وقبائل الهنود المتوحشة .

وفي اعقاب القرن الثاني عشر والثالث عشر بدأ اشراق العلم على اوربا وبرزت شمس الحرية وهبت نسمات الحيـاة وتحررت من جمود التقليد وسيطرة الكنيسة وارهاب الاقطاع والفرسان .

وقد لعبت عوامل كثيرة في نهضة اوربا، ابـرزها التـداخل[٨٠] والاحتكاك المستمر مع العرب والمسلمين داخل اوربا عن طريق آسيا الصغرى، وعن طريق صقلية وقبرص ومالطة وانتشار الحضارة العربية عبر الاندلس والمغرب العربي، وأبرز نصر حصـل عليه الصليبيـون بغزواتهم الى الارض العربية هو أخذهم الثقافة والعلم والاخلاق، فان ضعف العرب عسكرياً، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من العلم والثقافة والحضارة التي انتقلت رويداً وعلى مرور الايام من العرب الى الغرب، وخاصة ما نقلوه من كتب وتراجم ومجلدات لا تزال تحتفظ بها

المكتبات الغربية في عواصم دول الغرب قاطبة.

ومن عوامل النهضة احياء الآداب اليونانية القديمة، والاصلاح الديني وانفصال الفلسفة وعلم المنطق وعلم الاخلاق عن الدين.. ويعود الفلاسفة مرة اخرى الى العقل يقدحون زناده ويستلهمون الحقائق، ويستوحون مبادىء السيْر والسلوك، وتتغلب مرة اخرى الفلسفة الاخلاقية، ويظهر من يعتبر العقل مبدأ الخليقة واليه يجب ان نرجع في معرفة وتحديد الخير والشر والفضيلة والرذيلة، والسير على هدى العلماء القدامى ـ سقراط ـ افلاطون ـ ارسطو.... ووهنت نظريات ما وراء الطبيعة وبرزت محلها الافكار التي تعتمد بقوامها وأسسها بأن تقام الاخلاق على تفكير فلسفي واقعي يبحث في خفايا الانسان وعلاقته بالكون الذي يحيطه، وظهر منهم:

«فرنسيس بيكون ١٥٦١/١٦٢٦م»[٤٤] الذي كان مثله الاعلى ان يسود العلم والمعرفة في المجتمع، وقد كان لفلسفته وتعاليمه في القرن السادس عشر أثرها الفعال في دفع العلماء والباحثين الى مزيد من العمل والتجارب والاختراع، وبالرغم من كونه خبيراً علمياً فكذا كان نشيطاً سياسياً وخبيراً في الامور القانونية وكاتباً بارعاً، ومن اقواله:

«لا ينبغي ان تطلب المعرفة من أجل لذة العقل، او القناعة، او التفوق على الغير او الكسب، او الشهرة، او السلطان، او غيرها من

هذه الامور الدنيوية، بل من أجل اسداء النفع الى الحياة وحسن استعمالها. . . .»[142].

«ان الهدف الحقيقي والمشروع للعلوم ليس شيئاً آخر سوى تزويد الحياة الانسانية بمكتشفات وقدرات جديدة. . . .»[143].

«. . . . ينبغي لكل نظام فكري ان يحكم له او عليه بثمراته. . .»[144].

و«رينيه ديكارت ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م»[145] المولود في مدينة لاهاي من مقاطعة تورين بفرنسا وهو فيلسوف العالم الغربي في القرن السابع عشر، فقد سما بالفلسفة الاخلاقية سمواً عظيماً واكسبها روحاً جديدة، وانه يرى بأن الاخلاق الفاضلة هي ما تنشأ عن سيطرة العقل على العاطفة، وليس السعادة الكاملة والفضائل الحقة الا الارادة الحازمة لعمل الخير، الارادة الحرة هي أنبل وأفضل ما يمكن ان ننعم به، واستعمالها بصورة جيدة هو الطريق الى الفضائل والسعادة التامة، وان هذه الارادة القوية يجب ان تستعين بالعقل للتفرقة بين اللذات والخيرات، وان لا تخدع بأوهام الماضي ولا تقاليد الحاضر في تقدير الحسن والقبيح، الخير والشر، ولكن يجب ان نبني تقديرنا على أساس علمي صحيح، ومع هذا فديكارت يوصي بوجوب اطاعة القوانين وعادات البلاد والمحافظة على الدين وان يحكم المرء بنفسه وفقاً لاكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الافراط.

«. . . . ان اول هذه التعاليم هو ان اطيع القوانين والاعراف في بلادي محافظاً دائماً على الدين الذي جعلني الله بفضله مثقفاً منذ نعومة اظفاري. . . . .»[١٤٦].

«. . . . ان اكون أثبت وأحزم ما استطيع في افعالي وان لا اكون ثابتاً في اتباع الآراء التي هي اكثر الآراء دعوة الى الارتياب. . . .»[١٤٧].

«. . . . ان اجهد دائماً في التغلب على نفسي بدلاً من التغلب على مجرى الحوادث»[١٤٨].

وعلى هذا النهج سار تلميذه «مالبرانش» الذي يقول: «بأنه لا يوجد علم له كثير اتصال بنا اكثر من الاخلاق، ذلك بأنه هو الذي يعلمنا واجباتنا نحو الله والملك والاهل وجميع ما يحيط بنا بصفة عامة، كما يعلمنا الطريق الذي يجب سلوكه لنكون سعداء»[١٤٩] ويؤكد مرة اخرى: «من المؤكد ان العقل العام هو دائماً واحد لدى الناس جميعاً، وان النظام العام للكون ثابت لا يتغير، ومع هذا فالاخلاق تختلف حسب الزمان والمكان[١٥٠].

وكذلك «سبينوزا»[١٥١] الذي بنى فلسفته الاخلاقية على التوفيق بين العقل والعواطف وان نحارب العواطف التي ليست مبنية على أساس من العقل، وانه لمن يريد ان يكون فاضلاً حكيماً بأن يحرر نفسه ما استطاع من تحكم الغرائز وان يطلب ما فيه منفعته ومنفعة الانسانية جمعاء.

وبعد هذه الفلسفة العقلية ظهر مذهب «توماس هوبز ١٦٧٩»[١٠٢] الذي ينظر نظرة اخرى الى الفلسفة الاخلاقية، نظرة فيها نفعة ذاتية واعتماد على علم النفس، هو يرى بأن الاخلاق يجب ان تقوم على أساس من علم النفس ما دامت النفس هي التي يطلب لها الاخلاق، ويرى بأن غريزة حب اللّذات من الغرائز الفطرية العامة التي تصلح لأن تكون ركيزة لعلم الاخلاق، وانه يرى بأن الانسان اناني بطبيعته، وانه ذئب لأخيه الانسان، وهذه الطبيعة لن تغيرها حياة التمدن والتربية التي غلفتها بلباس وقناع لاخفائها ولكن لا يمكن ان تزيلها. وفسر هوبز العالم واحداثه بالمادة وحدها واستبعد الروح وأنكر وجود النفس مستقلة عن الجسم ورد العواطف والوجدان الى اللذة والالم، وصرح بأن الشهوة او الرغبة ترمي دائماً الى تحقيق لذة او تفادي الم، ومن ان جميع الدوافع الانسانية تهدف الى حب الذات.

«... فكل تشارك اجتماعي يقصد الى اقتناص منفعة او يرمي الى اكتساب مجد»[١٠٣].

«لا تعامل احداً بما لاتحب ان يعاملك به أحد»[١٠٤] ومن اتباع هذه النظرة الفلسفية «هلفسيوس» الذي يعتقد: «بأن الناس ليسوا أشراراً ولكنهم خاضعون لمنافعهم، فيجب ان نلبسهم حسب هذه الطبيعة التي فطروا عليها»[١٠٥]، وكذا قوله: «ان كل دراسات الاخلاقيين يجب ان تتوجه الى ربط المنفعة العامة بالخاصة حتى يتحدا،

وهذا الاتحاد هو الغاية الرئيسية التي يجب ان تقصدها الاخلاق»[١٠٦].

ومن هذه المدرسة الفلسفية كذلك «آدم سميث»[١٠٧] والذي يعتقد بأن فينا عاطفة ترشدنا للخير او للشر، وان هذه الحاسة من الخير اذا ركنا اليها فستقودنا الى تمييز الحسن من القبيح وتدور فلسفة هذه المدرسة حول الضمير الانساني وتأثيره الداخلي في الانسان.

وبرز في القرن الثامن عشر من فلاسفة الاخلاق، «هيوم» و«كانت» ان «دافيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦م»[١٠٨] الذي كان اديباً واقتصادياً ومؤرخاً وفيلسوفاً واخلاقياً، واغلب فلسفة هيوم وبحثه الواسع يدور حول مشكلة المعرفة، وقد اعتمد على العاطفة في يقينه الديني وتوضيح الخير والشر.

ويرى ان الاخلاق لا يمكن ان تقوم على دعامة من العقل وحده، وان الاحكام الاخلاقية نفسها خاضعة للعرف والبيئة الطبيعية والانسانية، ويذهب بان العقل لا أثر له في سلوك الانسان، وانما الأثر كله لمشاعر اللذة والألم اللذين بهما يميز الخير من الشر، وان يكون الحكم في بيان ذلك هو غريزة اخلاقية تحكم على الاعمال تبعاً للشعور باللذة والألم.

و«عمانوئيل كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤م»[١٠٩] الذي ولد في بكينسبورج في المانيا، وهو العالم والفيلسوف الذي حاول تأسيس

الاخلاق على علم النفس وهو صاحب الرأي المبتكر: «اتباع فكرة الخير لمبدأ الواجب»[١٦٠].

وجعل الخضوع للواجب المطلق مقياساً للاخلاق، ورفع من شأن الضمير الانساني فجعله مشرع الاخلاق وموجه السلوك، وانه يرى بأن يعمل المرء على ان تكون الانسانية غاية في نفسها لا وسيلة لغايات اخرى، وان يعمل المرء حسب المبدأ الذي يستطيع ان يجعله قانوناً عاماً لا استثناء فيه، وانه كان ينادي باستقلال الارادة وما ذاك إلا لأن الواجب لا يؤدي أداءً حقاً الا ممن توفرت فيهم ارادة قوية وحرية كاملة!

«اعمل دائماً بناءً على مبدأ يمكنك ان تعتبره قانوناً عاماً»[١٦١].

«يجب ان نعمل بحيث نعدُّ الانسانية في شخصنا او شخص غيرنا غاية لا وسيلة»[١٦٢].

«اعمل بحيث تكون ارادتك مصدر تشريعك جميعه»[١٦٣].

وظهرت الفلسفة الاخلاقية التي تعتمد على علم الحياة حيث يرى مريدو هذه الفلسفة وجوب اقامة الاخلاق على أسس ودعائم من علم الحياة وقد ساد هذا المذهب خلال القرن التاسع عشر، وأبرز فلاسفة هذه المدرسة، «سبنسر»[١٦٤] الذي يقول بان تعديل الكائن نفسه تعديلاً مستمراً يناسب بيئته وان اللذة والسرور هي غاية الانسان التي يطلقها ولكنه كثيراً ما يضل في سبيلها، وان الخير كله في ان ينساق

الفرد مع قانون تطور الجماعة نحو الكمال وان يكون سلوكه في وفاق مع ما حوله، وان الانسان في بادىء أمره كان يوازن بين الخير والشر بالنفع والضرر وان المرء سائر بدافع غريزي للتوافق مع المجتمع .

ويجود القرن التاسع عشر بالفيلسوف «نيتشه»[165] عام ١٨٤٤م، فيلسوف القوة والغلبة، فقد ترعرع نيتشه وهو صارم في حديثه، جاد في مزاحه، لا يهوى المزاح الكاذب مهما كان مذهبه، له ارادة فولاذية وسيطرة قوية، لا يهوى الضعف والاستكانة، ولا يميل الى الاستسلام، وقد آمن هذا الفيلسوف بقانون التطور «لدارون» وتنازع البقاء وبقاء الاصلح ، ولا يرى نيتشه ما يراه رجال الدين من ان مرجع الحكم بالخير والشر هو الله بأوامره ونواهيه، ولا هو الضمير او العقل لدى الناس جميعاً، بل في رأيه ان مرد ذلك الى الطبيعة الانسانية الخاصة وما فيها من غرائز :

«ان الناس هم الذين أقاموا الخير والشر وابتدعوهما لأنفسهم»[166] .

وهو ينفر من العامة والمسيحية ويكره المبادىء التي تبشر بها الديمقراطية والانسانية والاشتراكية :

« . . . . . واذا اتضح لي ان الالم هو انجع من السرور في تهذيب النوع الانساني ـ اقول نعم للالم ـ وأقول لا لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الانسانية»[167] .

وانه يؤمن بتقسيم الاخلاق الى اخلاق السادة واخلاق العبيد (العامة) او اخلاق الاقوياء واخلاق الضعفاء، ويذهب في فلسفته:

«بأن المسيح لو بلغ من الكبر ما بلغه هو - أي نيتشه - لكان جحد تعاليمه الاخلاقية، والكهنة اعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة، وهم مكبلون بالاصفاد التي قيدهم بها المسيح، وما اصفادهم الا الوصايا الكاذبة، وما كنائسهم الا كهوف تنبعث روائح التعفن منها، ولهذا ليس الحكماء الكذبة الا الكهان وجميع من سئموا تكاليف الحياة......»(168).

ولذا كان يصيح في اتباعه:

«أي اخوتي! حطموا هذه الالواح القديمة ولا ترددوا...»(169).

«اذا ما رأيتم متداعياً الى السقوط فادفعوه بأيديكم واجهزوا عليه، كل انسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه على الاقل ان يسرع بالسقوط»(170).

وانه يرى ان الحرب خير الخيرات، اما الديمقراطية ففيها كل تهليم لعوامل النبوغ، والثورات مزارع تنبت اعاظم الرجال، ومنها يخرج الرجل العظيم كما يخرج النجم الساطع من الهالة.

وتتجلى على فلسفة نيتشه الذاتية المطلقة حيث ينبغي للانسان ان

يعرف نفسه وجسده وحواسه وان يتجه بحياته كما تريد ذاته وشخصيته وان يغتنم من الفرص احسن ما يغتنم وهو يؤمن بعدم المساواة بين الناس، وينبغي لكل انسان ان يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته، واليهودية عند نيتشه موطن البغض ومنزل الروح الكهنوتي والضعف والهوان للانسان، وهو ينظر بأن اوربا غارقة في انحطاط عميق يغطي على ما تبقى في عروقها من حياة حتى ليخشى ان يتقهقر النوع الانساني الى الوراء..

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة وهو لا يعترف بمساواة الرجل والمرأة، لأن تكوين وشخصية الرجل تختلف عنها عند المرأة، والرجل اذا أسلم نفسه للحب ووهب حياته وافكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً تسلخ عنه الرجولة، وهو يقول على لسان زرادشت:

«كل ما في حياة المرأة هو لغز وكل ما في المرأة له حل واحد هو الولادة»[١٧١].

وهو ينقم على المرأة التي تريد ان تتحرر من قيودها وتهجر احترامها للرجل وتزعم انها قرينة مساوية، وتدخل معه حياة النضال.

ويرى نيتشه ان اوربا الحاضرة انسل اليها الداء وبرزت فيها مظاهر العلة والانحطاط، وهويدفع الانسان الى ان يثور على واقعه من

هذا الانحطاط وهذا التردي ليبرز الانسان المثالي - سوبرمان.

وان الانسان حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان، وليس الانسان بغاية انما الانسان مجاز ممدود وليفن الانسان في سبيل حياة السوبرمان[172].

«اني اعلمكم السوبرمان، الانسان يجب ان يفوق الانسان! ماذا تعلتم لتفوقوا الانسان؟!»[173].

«انكم ستتحرون عن اعدائكم، وانكم ستقاتلون، وستحاربون من اجل فكرتكم. . انا لا انصح لكم بالعمل، ولا انصح لكم بالسلم، ولكن اوصيكم بالظفر، ليكن عملكم وسلمكم ظفرا!»[174].

ومن هذه المدرسة الفيلسوف «مينكتيكوف»[175] وهو طبيب وعالم روسي ولكنه قضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا وتوفي سنة ١٩١٦، وقد أنصرف في اول حياته الى دراسة الطب وعلم الحياة وبعدها اهتم بعلم الاخلاق وحاول ان يوفق بين الطب والاخلاق وتدور فلسفته بأن علم الحياة وبصورة خاصة علم الطب يستطيع ان يرسم لنا السعادة ويدلنا على الطريق المؤدي اليها، انه يرى الانسان معذب لعدم انسجام طبيعته مع بيئته ولأنه فريسة من الارزاء، وهي المرض والشيخوخة والموت، ومن هذه الزاوية فان فلسفته ترتكز بالدرجة الاولى على علم وظائف الاعضاء والطب، وهو يرى بأن في مقدور

الانسان استئصال المرض، وجعل الشيخوخة مقبولة لا تؤثر في السعادة، وبما ان الموت لا بد منه فلا يجب اذن ان يكون سبباً للغم والألم.

وبعد هذه المرحلة التأريخية تبرز الفلسفة المرتبطة بعلم الاجتماع، وما نزال نرى الروابط الوثيقة بين علم الاجتماع وعلم الاخلاق، حتى لتبدو لنا كأنها جزء واحد متفاعل ومتماسك.

وقد اتجه هؤلاء الفلاسفة وجهة واقعية ورفضوا كل ما ليس مسلماً به من المبادىء المختلفة أياً كان مصدرها، وان تكون للاخلاق مثل عليا منتزعة من الجماعة التي نعيش فيها، وليس مستمدة من السماء وحدها او من تفكير فلاسفة ما بعد الطبيعة.

ومن اعلام هؤلاء الفلاسفة «كومت» و«دوركهايم» و«ليفي بردهل»[١٧٦].

ومن مذهب «دوركهايم» في الاخلاق هو النظر الى الاعمال الاخلاقية كما ننظر الى الظواهر الاجتماعية، وتنطبق عليها التجربة والملاحظة، وان ندرس الماضي لشرح الحاضر وفهمه وتعليله، وليكن من هذا قانون عام في سلوك السبيل السوي، دون ان نلجأ الى علم آخر لتقرير ما نشاء من اخلاق.

وفي عصرنا الحاضر وفي اميركا بالذات بلد المتناقضات يعم «مذهب الذرائع» او مذهب «البراجما تيزم»[١٧٧]، وهو يشبه مذهب

المنفعة عند الابيقوريين او عند مدرسة هوبز، حيث يعتبرون الفرد مقياس السلوك وان كل ما يوصل الى الصالح الشخصي فهو الخير، ويعتبر هذا المذهب نكوصاً الى المذهب السوفسطائي القديم وعندئذ يمكن ان يقال :

«لا جديد تحت الشمس» .

هذا استعراض موجز واشارات عابرة عن تأريخ الاخلاق والادوار التي مرت بها، وتفكير الفلاسفة واجتهاداتهم بهذا الخصوص وكيف رست عوامل الخير والشر، وفي طبيعة الانسان ورعايتها وتوجيهها نحو السعادة والفضيلة .

(١) القرآن الكريم - المائدة - ٥ : ٢٧، ٢٨ .

- تاريخ النظريات الاخلاقية وتطبيقاتها العملية، ابو بكر ذكرى - الطبعة الرابعة - ١٩٦٥م. ص٧٠ .

(٢) العرب قبل الاسلام - جرجي زيدان - المكتبة الاهلية - بيروت ص ٤٩ .

(٣، ٤، ٥) مجلة المهن الطبية - الدكتور رفعت علي - الجزء١، ٢ المجلد ٣ . مارت - حزيران ١٩٥٥ ص٧١ .

- العرب قبل الاسلام - جرجي زيدان ص ٤٩ .

(٦، ٧، ٨) تاريخ الاخلاق: الدكتور محمد يوسف موسى، الطبعة الثالثة ١٩٥٣ ص ١٧ .

- تاريخ مصر - هنري برستيد - ترجمة الدكتور حسن كمال، الطبعة الاولى ص١٦٠ .

(٩) تاريخ الاخلاق: دكتور محمد يوسف موسى ص ١٩ .

(١٠) قصة الحضارة - ول ديورانت - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

- الهند وجيرانها - الجزء الثالث من المجلد الاول.

(١١) قصة الحضارة - ول ديورانت- ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ج٣ م١ .

(١٢، ١٣) تاريخ الاخلاق - دكتور محمد يوسف موسى ص ٢٣ .

(١٤) تاريخ النظريات الاخلاقية - ابو بكر ذكرى ص ١٠ .

(١٥) تاريخ الاخلاق - دكتور محمد يوسف موسى ص ٢٥ .

(١٦، ١٧، ١٨، ١٩) قصة الحضارة - ول ديورانت - ترجمة محمد بدران .

- الصين - الجزء الرابع المجلد الاول.

- تاريخ الاخلاق ص٣١ .

- تاريخ النظريات الاخلاقية ص ١١ .

(٢٠) تاريخ النظريات الاخلاقية ص١١ .

(٢١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ترجمة محمد بدران - حياة اليونان - ٦، ٧ الجزء الاول والثاني، المجلد الثاني .

(٢٢) تاريخ الاخلاق - دكتور محمد يوسف موسى، ص٤٧ .

(٢٣) الفلسفة الخلقية - نشأتها وتطورها - الدكتور توفيق الطويل منشأة المعارف - الاسكندرية سنة ١٩٦٠ ص ٢١، ٢٤ .

(٢٤) الفلسفة الخلقية - ص ٢٧، ٢٩ .

- تاريخ النظريات الاخلاقية ص ١٣ .

(٢٥) تاريخ الاخلاق ص ٦٩، ٧٠.

(٢٦) قصة الحضارة - حياة اليونان .

(٢٧) تاريخ الاخلاق - ص٧٩ .

(٢٨) الفلسفة الخلقية - ص ٤٤ .

(٢٩) تاريخ الاخلاق - ص ٨١ .

- تاريخ النظريات الاخلاقية ص ١٦ .

- الفلسفة الخلقية - ص ٤٧ .

(٣٠) تاريخ الاخلاق - ص ٨٤ .

(٣١) جمهورية افلاطون - تعريب حنا خباز سنة ١٩٢٩ ص ١٤٦ .

(٣٢) الفلسفة الخلقية - ص ٥٢ .

(٣٣) الفلسفة الخلقية - ص ٥٨ .

(٣٤) تاريخ النظريات الاخلاقية - ص ١٧ .

(٣٥، ٣٦) الفلسفة الخلقية - ص ٩١ .

(٣٧) تاريخ الاخلاق ـ ـ ص ٩٧ .

(٣٨) الفلسفة الخلقية ـ ص ٧٣ .

(٣٩) الفلسفة الخلقية ـ ص ٧٤، ٩١ .

(٤٠) تاريخ الاخلاق ـ ص ١٣٧ .

(٤١) انجيل لوقا ـ الاصحاح السادس ٦، ٢٧، ٢٩، ٣١ .

تاريخ الاخلاق ص ١٥١ .

حكمة الاديان الحية ص ٧٩ .

(٤٢) حكمة الاديان الحية ـ جوزيف كابر ـ ترجمة المحامي حسين الكيلاني ١٩٦٤ ص ٧٧ ـ متي : ٧ : ١٥ .

(٤٣) حكمة الاديان الحية ـ ص ٧٧ متي ١٢ : ٣٤ .

(٤٤) حكمة الاديان الحية ـ ص ٨٠ لوقا ١٦ : ١٠ .

(٤٥) العرب قبل الاسلام ـ جرجي زيدان ص ٤٧، ٥٣، ٥٤ .

(٤٦) العرب قبل الاسلام ـ جرجي زيدان ص ١٢٦ .

(٤٧) عيون الاخبار ـ الدينوري ج١ ص ٣٧ .

(٤٨) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ـ احمد الاسكندري ومصطفى عناني الطبعة : ١٧ ص٢٩ .

(٤٩) شرح المعلقات السبع لأبي عبدالله الحسين الزوزني سنة ١٩٣٨م ـ ١٣٥٨هـ. المكتبة التجارية ص ١٠٢ .

(٥٠) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الاندلسي ـ دار الكتاب العربي ١٩٥٦ ج٢ ص١١ .

(٥١) قصص العرب ـ محمد احمد جاد المولى وزملاءه، ج١ ١٩٦٢ ص ١٢٦ .

(٥٢) قصص العرب ـ محمد احمد جاد المولى وزملاءه، ج١ ص١٣٣ .

(٥٣) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ص ١٨ .

(٥٤) العقد الفريد - ج٢ ص ٢٥٤ .

(٥٥) العقد الفريد ج٢ ص ٢٥٥ .

(٥٦) العقد الفريد ج٢ ص ٢٥٧ .

(٥٧) العقد الفريد ج٢ ، ص ٤٧٢ .

(٥٨، ٥٩، ٦٠) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ص ١٨ .

(٦١) العقد الفريد ج٣ ص ١٠٤ .

(٦٢) العقد الفريد ٣ : ١١١ .

(٦٣، ٦٤) العقد الفريد ٣ : ١٠٦ .

(٦٥) العقد الفريد ٣ : ١٠٧

(٦٦) العقد الفريد ٣ : ١١٣ .

(٦٧) العقد الفريد ٣ : ١١٦ .

(٦٨) العقد الفريد ٣ : ١١٩ .

(٦٩) العقد الفريد ٣ : ١٢٨ .

(٧٠) الوسيط في الادب العربي وتاريخه .

(٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤) الوسيط في الادب العربي وتأريخه ص ١٨ .

(٧٥) العقد الفريد ج١ : ٢٨٧ .

(٧٦) تاريخ الاخلاق محمد يوسف موسى ١٦٧ .

(٧٧) المدثر - ٧٤ : ٣٨ .

(٧٨) يونس - ١٠ : ١٠٨ .

(٧٩) الانعام - ٤ : ١٦٤ .

(٨٠) الضحى - ٩٣ : ٩ .

(٨١) الفجر - ٨٩ : ١٧ .

(٨٢) الاسراء - ١٧ : ٣٤ .

(٨٣) البقرة ـ ١٩٠ .

(*) البقرة ـ ٢ : ١٩٤ .

(٨٤) طه ـ ٣٠ : ٣٩ .

(٨٥) الشورى ـ ٤٢ : ٤٣ .

(٨٦) الاسراء ـ ١٧ : ٧٠ .

(٨٧) النحل ـ ١٦ : ٩٠ .

(٨٨) البقرة ـ ٢ : ٨٣ .

(٨٩) لقمان ـ ٣١ : ١٨ .

(٩٠) البقرة ـ ٢ : ١٩٠ .

(*) الحجرات ـ ٤٩ : ١٢ .

(٩١) النساء ـ ٤ : ٥٨ .

(٩٣) النساء ـ ٤ : ٥٨ .

(٩٤) آل عمران ـ ٣ : ١٠٤ .

(٩٥) المائدة ـ ٥ : ١ .

(٩٦) العنكبوت ـ ٢٩ : ٤٥ .

(٩٧) الرعد ـ ١٣ : ١١ .

(٩٨) الروم: ٣٠ : ٣٢ .

(٩٩) النساء ـ ٤ : ٥٧ .

(١٠٠) الاحزاب ـ ٣٣ : ٢٣ .

(١٠١) الاسراء ـ ١٧ : ٢٤ .

(١٠٢) فصلت ـ ٤١ : ٣٤ .

(١٠٣) البقرة ـ ٢ : ٢٧٤ .

(١٠٤) فاطر ـ ٣٥ : ٤٣ .

(١٠٥) تأملات في فلسفة الاخلاق ـ منصور علي رجب ١٩٦١ ص ٧٨ .
(١٠٦) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ الطبعة السادسة ١٩٦٢ ص ٤٠ .
(١٠٧) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ الطبعة السادسة ١٩٦٢ ص ٤٣ .
(١٠٨) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ الطبعة السادسة ١٩٦٢ ص ٤٥ .
(١٠٩) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ الطبعة السادسة ١٩٦٢ ص ٤٨ .
(١١٠) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٧ .
(١١١) الطب النبوي ـ الحافظ ابي عبدالله محمد بن احمد الذهبي ـ الطبعة الاولى ٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ سنة ١٩٦١ ص ٤٨ .
(١١٢) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٤ .
(١١٣) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٤ .
(١١٤) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٥ .
(١١٥) العقد الفريد ـ ٢ : ٢٤٧ .
(١١٦) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ٢٧ .
(١١٧) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ٢٧ .
(١١٨) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ٣٧ .
(١١٩) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١١٢ .
(١٢٠) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٣٧ .
(١٢١) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ص ١٩٦ .
(١٢٢) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي ـ الدكتور محمد البهي، طبعة ثالثة ١٩٦٢ ص ٢٩٣ .
(١٢٣، ١٢٤) تاريخ الاخلاق ص ١٧٢ .
(١٢٥) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي ص ٣١ .
تاريخ النظريات الاخلاقية ص ٢٥ .

(١٢٦) تاريخ الاخلاق ـ ص ١٧٦ .

(١٢٧) تاريخ الاخلاق ـ ص ١٧٨ .

(١٢٨) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي ـ ص ٣٧٩ .

ـ ابن سينا ـ نوابغ الفكر العربي ـ الدكتور احمد فؤاد الاهواني ١٩٥٨ .

(١٢٩) المدخل الى فلسفة ابن سينا ـ تيسير شيخ الارض ـ دار الانوار بيروت ص ٥٠٥ .

(١٣٠) المدخل الى فلسفة ابن سينا ـ تيسير شيخ الارض ـ ص ٥١٤ .

(١٣١) المدخل الى فلسفة ابن سينا ـ تيسير شيخ الارض ص ٣٥٥ .

(١٣٢) المدخل الى فلسفة ابن سينا ـ تيسير شيخ الارض ص ٣٥٠ .

(١٣٣) تاريخ النظريات الاخلاقية ـ ص ٣٠ .

(١٣٤) تاريخ النظريات الاخلاقية ـ ص ٣١ .

(١٣٥) تاريخ النظريات الاخلاقية ـ ص ٣٢، ٣٣ .

(١٣٦) تاريخ النظريات الاخلاقية ـ ص ٣٤، ٣٥ .

(١٣٧) تاريخ الاخلاق ـ دكتور محمد يوسف موسى ص١٩٥ .

(١٣٨) الاخلاق عند الغزالي ـ دكتور زكي مبارك ـ مطابع دار الكتاب العربي ص١١٤ .

(١٣٩) تاريخ الاخلاق ـ ص١٩٤ .

(١٤٠) شمس العرب تسطع على الغرب ـ المستشرقة الالمانية زيغريد هونكة ـ ترجمة : فاروق بيضون، وكمال دسوقي، المكتب التجاري بيروت ١٩٦٤ .

(١٤١) رؤوى العقل ـ الدكتور رينيه ديبو ـ ترجمة الدكتور فؤاد صروف مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ١٩٦٢ ، ص٣٦ .

(١٤٢) رؤى العقل ص ٤٠ .

(١٤٣) رؤى العقل ص ٤٠ .

(١٤٤) رؤى العقل ص ٤٠ .

(١٤٥) ديكارت ـ اندريه كريسون ـ ترجمة تيسير شيخ الارض، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦ ص٣ .

(١٤٦) ديكارت ص ١٠١ .

(١٤٧) ديكارت ص ١٠٤ .

(١٤٨) ديكارت ص ١٠٦ .

(١٤٩) تاريخ الاخلاق ـ دكتور محمد يوسف موسى ص ٢٣٨ .

(١٥٠) تاريخ الاخلاق ـ دكتور محمد يوسف موسى ص ٢٣٩ .

(١٥١) تاريخ النظريات الاخلاقية ـ ابو بكر ذكرى ص ٤١ .

(١٥٢) الفلسفة الخلقية ـ توفيق الطويل ص ١٣٥ .

(١٥٣) الفلسفة الخلقية ص ١٣٧ .

(١٥٤) الفلسفة الخلقية ص ١٣٩ .

(١٥٥) تاريخ الاخلاق ص ٢٥٣ .

(١٥٦) تاريخ الاخلاق ص ٢٥٤ .

(١٥٧) تاريخ الاخلاق ص ٢٥٥ .

(١٥٨) تاريخ النظريات الاخلاقية ص ٤٢ .

ـ دروس في تاريخ الفلسفة ـ الدكتور ابراهيم بيومي مدكور والاستاذ يوسف كرم ـ ١٩٥١ ص ٢٢٥ .

(١٥٩) دروس في تاريخ الفلسفة ص ٢٣٤ .

(١٦٠) تاريخ النظريات الاخلاقية ص ٤٢ .

(١٦١) دروس في تاريخ الفلسفة ص ٢٥٦ .

(١٦٢) تاريخ الاخلاق ص ٢٦٨ .

(١٦٣) دروس في تاريخ الفلسفة ص ٢٥٦ .

(١٦٤) دروس في تاريخ الفلسفة ص ٢٥٦ .

(١٦٥) تاريخ الاخلاق ص ٢٧٨ ، تاريخ النظريات الاخلاقية ص ٤٣ .

(١٦٦) نيتشه ـ هنري ليشتانبرج ـ ترجمة خليل الهنداوي ١٩٥٤ ص ١٢ .

تاريخ الاخلاق ٢٨٢ ، تاريخ النظريات الاخلاقية ٤٣ .

(١٦٧) تاريخ الاخلاق ٢٨٣ .

(١٦٨) نيتشه ص ٦٨ .

(١٦٩ ، ١٧٠) تاريخ الاخلاق ص ٢٨٥ .

(١٧١) تاريخ الاخلاق ص ٢٨٦ .

(١٧٢) نيتشه ص ٨٤ .

(١٧٣) نيتشه ص ١٠٠ .

(١٧٤) نيتشه ص ١٠٠ .

(١٧٥) نيتشه ص ١٠٤ .

(١٧٦) تاريخ الاخلاق ص ٢٨٧ .

(١٧٧) تاريخ الاخلاق ص ٢٩١ .

(١٧٥) تاريخ النظريات الاخلاقية ص ٤٥ .

الاخ الاستاذ حميد المطبعي المحترم

تحية اخوية صادقة

منذ أمد ليس بالقصير وأنا اتابع ما تكتبه هنا وهناك في الصحافة العراقية بشكلها العام وجريدة الثورة بوضعها الخاص الذي تتحفها بسلسلة (الجذور) في تاريخ العراق الحديث.

وكنت أقرأ وأتابع ما يكتب عن شخصيات كان لها عطاؤها الثر ونضالها الجم وابداعها في شتى مجالات الفكر الذي أغنىٰ تاريخ عراقنا الحديث..

وكنت أذهب بعيداً في اعماق الاحداث وتأخذني الذكريات لهؤلاء الرجال من شخصيات العراق في بداية مسيرته الحديثة لينفض عنه غبار سبات طويل، ويعيد مواصلة بناء حضارة انقطع حبل التواصل معها منذ قرون عديدة..

وكتب على هؤلاء الصفوة من الرجال ان يحفروا في اعماق الماضي ليبنوا جسور التواصل بين نهضة حاضرة وحضارة خالدة وآمال مستقبل مفعم بالأمل والطموح.

وألاحظ من خلال متابعاتي لهذه السلسلة عبر صفحات الثورة الغراء بأنك تتيح للكاتب او المؤرخ ان يكتب ما يشاء ويقول ما يرغب ان يتفوه به وحسبما تجود به ذكرياته ولا ينكر ان في هذا تكمن حرية الكلمة وديمقراطية التعبير وهذا شيء حسن وجميل، ولكن الذي

اعتقده ان حياة الناس كل الناس ونحن منهم حافلة بأنواع متباينة من المتغيِّرات الايجابيات والسلبيات ـ الحسنات والسيئات ـ الافراح والاتراح .

والظاهر ـ ان جميع الشخصيات التي كتبت عنهم ركزوا على الصفحات الناصعة البياض ـ ولم يتطرقوا الى الصفحات الاقل اشراقاً ولا أقول الايام الحالكة او السوداء .

والذي ارغب ان أقوله انه على المؤرخ والمفكر والكاتب والمبدع ـ بعد ان وصل منبر السلامة عليه ان يذكر الحقائق كما هي حلوها ومرها، حسناتها وسيئاتها . . . حتى تكون أكثر صدقاً مع التأريخ . . واكثر صراحة مع الذات، واكثر التصاقاً بالحقيقة .

ومع هذا فأني أغبطك ومن اعماق احساسي الصادق ولا أقول احسدك لأني لم اعود نفسي رذيلة الحسد ـ بل أمقتها وأمقت عامة الحساد.

اقول اني اغبطك على صبرك وبحثك العميق . . لتغوص في اعماق الحقائق وتبحث وتكشف خفايا النفوس . .

أنا لا ارغب ان أكيل لك المديح والثناء وانت تبحث جانباً مهماً من تاريخ تراثنا المعاصر وتبحث عن شخصيات كان لهم دور مميز في يومٍ ما ـ وحاولوا ان يقدموا عطاءً مخلصاً لبلدنا الحبيب العراق وامتنا العربية . .

وتخرِج هذه الشخصيات من زوايا النسيان لتسلط عليهم ضوء الحقيقة وتكشف جوانب مهمة من حياتهم الحافلة بالعطاء، غير مبال لانجاههم السياسي او مواقفهم السابقة، وكل ما تنظر اليه انهم حاولوا ان يقدموا شيئاً بناءً في مجال الفكر والمعرفة للعراق الحديث.

الذي اعجبني فيك يا استاذ حميد ـ وأنا كما تعرفني لست مداحاً ولا مجاملاً على حساب الحقيقة وانما اعتقد بنفسي ـ على أقل تقدير بأني صريح العبارة، صادق اللهجة ـ شجاع الكلمة ـ لا تأخذني في الحق لومة لائم، أقول اعجبني منك صبر الباحث وتحمل أعباء البحث عن الحقائق ونكران الذات واحتقارك لسفاسف الدنيا وتعمقك وتبحرك في اعماق النفس الانسانية وشجاعتك فيما تقول ـ وفيما تكتب ـ وطرحك لافكارك وكأنها تيار جارف منحدر من سفح جبل، وشيء آخر لا بد من ذكره وأعتقده أسمىٰ من كل ما أشرت اليه ـ هو وفاؤك لاصدقائك ومعارفك ولا سيما اولئك الناس الذين توطدت صداقتك معهم من خلال سلسلة البحث والاهم والاسمى ما لاحظته من وفاء وصدق في التعبير مع الاشخاص الذين توفاهم الله ونساهم اصحابهم واصدقاؤهم وربما معارفهم ولكن لم ينسهم الاستاذ حميد المطبعي.

نعم كنت أقرأ واستمتع وأزيد على معلوماتي معلومات مفيدة جديدة واخرى قد اضاعها الزمن او كثرة مشاغل الحياة فاذا انت تزيل عنها ضباب الايام وصدأ الدهر فتجلوها وتعيدها صقيلة لامعة تسر الناظرين.

وكم كانت دهشتي واستغرابي وانا اتلقى وعلى غير سابق موعد او تعارف مكالمة هاتفية وتطلب مني تحديد موعد ـ وتسألني لأكتب (من أنا؟) ومن ثم اتبعتها ـ بتلك التحفة من الاسئلة والتي كانت عليّ أشد من امتحان كلية الطب .

مجموعة كبيرة من الاسئلة الدقيقة لأكتب عنها وكما أشاء وهنا ذهبت بي الذكرى وانت قد استنفرت اغلب خلايا الدماغ ان لم أقل برمتها لأذهب واتذكر مسيرة حياة نصف قرن من الزمن . .

وذهبت تلك الاسئلة مع طيات اضابيري وأوراقي الموزعة هنا وهناك، لاسباب كثيرة لم أرغب الاجابة عليها بـل ربما لا ارغب ان تبحث سيرة حياتي الآن وعلى صفحات الصحف ـ ليس خجلاً او في حياتي ما يعيب او أخجل منه بل العكس اني افخر بكل دقيقة وكل ساعة وكل يوم عشته لانها تشكل مفخرة لي على أقل تقدير بأيـامها المشرقة ولياليها الحالكة .

ولكن اعتقادي مع نفسي بأني لا أزال في خضم مسؤولياتي وربما عطائي المتعدد الجوانب في الوظيفة ـ الادارة ـ والعيادة ـ والجمعيات، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى، كنت فعلاً اخلد الى نفسي ـ وتذهب الافكار بعيداً ترسمها احلام اليقظة ـ نعم أحلم ان اكتب مسيرة حياتي كاملة بلا رتوش ولا حذف ولا تشطيب حتى ولا اسطر او صفحات بيضاء ـ وحسب ما هو متعارف عليه ـ حذفه الرقيب ـ نعم انا أؤمن

أكتب - من غير تزويق او تشطيب او حذفه الرقيب .

ربما احتجت الى ايام واسابيع او أشهر لأكتب ذلك وبحاجة الى عديد من ملازم الورق الابيض لأسطر عليها سجل مسيرة حافلة بالصراع رسمتها العصامية . انها مسيرة صعبة وحياة مفعمة بالصراع مع الحياة القاسية وهي تحاول سحق التفاؤل والطموح بكل ثقلها وجبروتها ووحشيتها . . وأنا احاول ان اتحدى كل هذه الصعاب والعثرات والاشواك التي أدمت الاقدام . انها ما يطلق عليها - العصامية يا استاذ حميد - ولكن صفة العصامية شيء ومعاناة تطبيقها شيء آخر .

ومع هذا لو خيّرت من بداية حياتي ان أسلك الطريق الذي اختاره لما سلكت سوى طريقي الذي قطعته ولا زلت سائراً فيه .

نعم قد قطعته بصبر ومعاناة وجهد ومثابرة ولكن ثق قطعت المسيرة بثقة وشموخ وأنفة وكبرياء ومحافظة على كرامتي التي أعتز بها كل الاعتزاز .

لذا لا أزال والحمد لله صعب المراس مرتفع الجبين تملأ نفسي العزة والكبرياء والشموخ .

من ناحية اخرى ترددت بالكتابة لأني اعتقد مع نفسي بأني لم أبلغ من العمر - الذي اسمح لنفسي ان اتطاول مع الذين كتبت عنهم

من جيل سبقني في العطاء والبناء ووضع الاسس لحضارة العراق الحديث .

فأنا لا أزال شاهراً سيف نضالي وراكباً صهوة عطائي واعمل الساعات الطوال في الادارة والتنظيم والزيارات الميدانية وأواصل العطاء لحد الانهاك . . وفي جميع المجالات ، فلا أضع قلماً الا لأتناول الآخر ـ ولا اطوي صفحة الا لأتناول صفحة اخرى تمثل جانباً مختلفاً بالعطاء .

ومن جانب آخر ـ من قال بأني تام الرضا على نفسي وكم كنت قاسياً معها وربما سجلت حساب النفس على ورق لأثبته وأرفعه للمسؤولين وسالكاً منتهى الصراحة .

واحياناً أجد نفسي مقصراً الى حد كبير بأني لم أستطع ان أفي جميع إلتزاماتي الوظيفية ولم أحقق كل ما كنت أصبو اليه من طموح مشروع وآمال مدروسة واهداف مرسومة بشكل علمي دقيق . . ولكن . . ولكن كان يُنظر اليها انها ضرب من الخيال ـ او طموح مثالي .

ثق يا استاذ حميد ان ما حققته وفي جميع المجالات التي عملت بها ربما لا يتجاوز معشار الذي كان يجب ان يتحقق ، أليس هذا ما يدمي القلب ويحز في النفس . . وفوق هذا وذاك تسألني ان اكتب عن نفسي ومسيرة حياتي وتاريخ ايامي التي مضت ، ولكنها عائشة في كل خلية من

بكائي وكل قطرة من دمي .

لا تذهب بك الافكار بأنه تنقصني الملكة ولا الصبر ولا الحزم ولا الاناة ولا المتابعة ولا الشجاعة ولا المنطق والحوار الصعب، فالحمد لله املكها كلها واستعمل جميع الاساليب التي تقرها النظم والادارة والسلسلة الروتينية وتلك التي اتحدى بها كل الاساليب المعرقلة البالية. . ومع هذا فقد كلفني هذا جهداً اضافياً ومحاولات صعبة ولا اقول يائسة - لأني لا اعرف اليأس - مادمت مؤمناً بصحة الهدف الذي اسعى اليه ونزاهة موقفي واخلاصي لقضية العمل الذي احاول انجازه، ربما انجزت الكثير - هكذا يقول اصدقائي وزملائي والمسؤولون.

ولكن أنا - لست راضياً عن الذي حققته وأنجزته لأنه يمثل القليل مقارنة بتطلعي وطموحي لأن نلحق بالركب العالمي بل نزيد وننهض من سبات طويل ونشد جسور قد علاها الصدأ والتراب وعبور احقاب طوال، لا أدري لماذا يصر الكثير ان نبدأ من حيث بدأ الآخرون؟ ولا نبدأ من حيث انتهى اليه الآخرون!

هكذا كانت نظرتي للحياة وخلافي الجوهري مع الكثير والانسان عدو ما يجهل يا أخ حميد، والحقيقة عندما تُعرف تغدو بديهة وعندما تعرف الحقيقة كاملاً يكون الوقت قد مضى ولا يمكن ان نمسك مافات من الزمن وقديماً قال الفيلسوف هيراقليطس «انت لا تنزل الى النهر

مرتين» .

وشيء آخر أخرّني من الكتابة وخوض سيرة الحياة ، فأنا لا أزال أشعر ـ والحمد لله ـ بأن دماء الشباب متدفقة في الشرايين والاوردة وحتى الشعيرات الدموية وهذه الدماء الساخنة تسري في جميع أوصالي عضلات وعظام وتلافيف الدماغ .

واخشى ان دخلت باب التأريخ من هذا الجانب الذي قد فتحته امامي ان يتسرب اليأس والكسل والشيخوخة الى تلافيف دماغي ونفسي ومن ثم تضعف عزيمتي وتقل قدرتي ويقل عطائي لهذا البلد الذي هو بحاجة الى كل عطاء وعمل جاد مخلص .

ولكن وأعود الى ما قلته عبر الاسطر السابقة ان الذي وضعني في زاوية الاحراج وأتنازل عن اصراري ومن ثم اكتب اليك بطواعية ورغبة صادقة ، هو مالاحظته فيك من صدق اللهجة واخلاصك للمهنة وبحثك العميق وراء الحقيقة وتشبثك العنيد بكشف اسرار انفسهم ابطال بحوثك ، وبخاصة ما أعجبني منك هو وفاؤك للاشخاص الذين تعاملت معهم بحياتهم وبنفس الروحية والصدق بعد رحيلهم .

اتمنى لك الصحة والسعادة والقدرة الجسدية والعقلية الكاملتين والذهنية الصافية لمواصلة البحث والدرس والعطاء .

وفقك الله ورعاك وحقق مسعاك

ودم لأخيك . .

راجي عباس التكريتي

رسالة نقد وتعليق :

الى الاستاذ «حميد المطبعي»
حول ما كتبه عن الحكيم راجي عباس التكريتي

بقلم ـ شاكر علي التكريتي -

نشر الاخ الاستاذ «حميد المطبعي» سبع حلقات عن الحكيم راجي عباس التكريتي في صفحة (الجذور في تاريخ العراق الحديث) من جريدة «الثورة» الغراء . .

وقد اخترت «الحلقة الثالثة» دون غيرها من تلك الحلقات السبع للنقد والتعليق لانها ـ أي الحلقة الثالثة ـ مقصورة على «المجالس» الاسبوعية التي كانت تعقد في ليالي ـ الجمعات ـ في دار الحكيم راجي ويحضرها الصفوة المختارة من رفاقه وأترابه وفي مقدمتهم ، الدكتور فائق مخلص ، والدكتور خالد ماهر علي ، والدكتور ناجي عباس التكريتي استاذ الفلسفة ، والسادة العميد المرحوم عبدالرحمن عبدالجبار التكريتي ـ صاحب الامثال ـ والمرحوم محي العلي الياسين ،

والاستاذ حميد خيرالله ، والمرحوم سليمان الناصري ، كما كان يحضر تلك المجالس بعض الاطباء والمهندسين والساسة . . .

وكما يبدو ان تلك الاسماء المرموقة ، ان احداً من رجال الصحافة لم يكن من بين تلك الاسماء ، لان حضور الصحافة - في نظري - قد يحدّ او يقيدّ بعض المشاركين في تلك المجالس او الندوات الفكرية ، ولو بقيودٍ من حرير !! كما ان «الحلقة الثالثة» التي اخترتها بالذات للنقد والتعليق قد ركزّ الاخ «المطبعي» فيها على افكار الحكيم الراجي ، وعلى قرائه وقراءاته ومحاضراته ومنهجه في الحياة . . وقد ارتأيت استكمالاً لتلك الحلقات السبع التي تتعلق باعز رفيق وانسان عندي اتجاوب معه فكرياً وعقائدياً ، وأدبياً وروحياً ، ان اسجل الملاحظات الآتية :-

(١) يقول «المطبعي» من خلال الحديث عن مجالس (راجي) الاسبوعية في الستينات ، ان الحضور كانوا يطرحون على انفسهم هذا السؤال (. . . لماذا نحن مثقفون ؟) وانهم من خلال هذا التساؤل كانوا ينطلقون الى المناقشة والحوار والجدل . . وسواء اكان السؤال (لماذا نحن مثقفون ؟) او (ما هي واجباتنا كمثقفين؟) او (هل نحن مثقفون إذا لم نتجاوز دائرة «الجدل البيزنطي» الى الحياة العملية ، ونساهم في اصلاح الاوضاع العامة؟) . فان تلك «المجالس» والندوات التي كانت تعقد في دار «الحكيم» شأنها كشأن المجالس البغدادية الاخرى ،

لم تسفر عن «حصيلة» او «محصّلة» يفيد منها الآخرون !! ولم يسجّل منها شيء . . !!

علماً بان الحكيم - راجي - يعرف اكثر من غيره عما فعلته جماعة (اخوان الصفا) في لقاءاتها وحواراتها قبل اكثر من الف سنة ، وهم جماعة من فلاسفة المسلمين من اهل القرن الثالث الهجري في بغداد ، عملوا في مناقشاتهم على التوفيق بين العقائد والمذاهب والقاء المزيد من الاضواء الكشافة على العديد من الحقائق الانسانية والفلسفية المعروفة في ذلك العهد ، حتى انهم سجلوا وتركوا عَبْـر الاجيال الـطويلة ، خمسين مقالة خالدة اطلقوا عليها (تحفة اخوان الصفا) عدا ذلك ، فان هنالك كتاباً آخر ألّفه الحكيم المجريطي القرطبي على غرار ونمط (تحفة اخوان الصفا) وسمّاه (رسائل اخوان الصفا) !! وأخال ان الفرصة ما تزال سانحة امام الحكيم الراجي لتدوين ما كان يدور بين «الصفوة المختارة» من آراء وافكار نقدية وجدليّة وسأُلحف عليه بالرجاء والتأكيد لتحقيق الامنية ، أؤكد على هذا رغم اعترافي بالفـارق الكبير بـين العَصْرَينَ والجماعتينَ والقَصدَين !!

(٢) الملاحظ ان الاخ «المطبعي» من خلال ما كتبه ويكتبه عن «الجذور في تاريخ العراق الحديث» قد اصبح خياطاً خبيراً في تفصيل الازياء الفضفاضة لإكساء بعض الحقائق والوقائع بها ، وكذلـك في

تفصيل الازياء الضيقة القصيرة (شـورتات) لإكسـاء بعض الحقائق والوقائع الاخرى ! فهو مُسرف من ناحية ومُقتّر من ناحية ثانية ! وآية ذلك ان «المطبعي» قد ذكر في اكثر من موقع واحد وحلقة واحدة ان «راجي» في بواكير حياته وصباه كان «عامل بناء» ، وقد مرّ مرّ الكرام على هذه المهنة ، مهنة «عمال البناء»! ولم يخطر ببالـه ـ وهو المفكـر الشرود وعلى سبيل المثال ـ ان الماسونيـة نشأت اول مـا نشأت بـين الطبقات والفئات العمالية، وبخاصة عمال البناء الاحرار ، ومن ثم ارتفعت صُعدا «الى الطبقات الاجتماعية العليا حتى ليقال ان بعض الملوك والرؤساء في العالم كانوا اعتنقوا ـ الماسونية ـ والذي اعـرفه ان للماسونية كذلك اتباعاً كثيرين بين الاطباء من أمثال الدكتور (جورج حنا) ـ صاحب الحارثيّات ـ . . ذلك لان دستور ـ الماسونية ـ حسب إدعائها يؤكد اول ما يؤكد على الفضيلة الانسانية والبّر والاحسان ، والبحث عن الحقيقة فضلاً عن «المناقبية الروحية والعلمية والفنية» ! فهلا خطر بذهن «المطبعي» وهو يتحدث عن افكار راجي ان يطرح سؤالاً عن رأيه في الماسونية وأهلها !! ولو كان سأل لكان الجواب ـ أي جواب راجي ـ ان دستور الماسونية وشعاراتها مجرّد كلمـات وفقرات مرصوفة مصفوفة ، تقدّمها بقفّازات مزركشة الى المخدوعين والبسطاء بما فيهم المثقفون ! ولو اطلعنا على تعاليم الماسونية السرّية ، لولّينا منها فراراً ولَمُلئنا رُعباً ، وقد اطلع عليها الدكتور (جورج حنا) فانقلب عليها

ونضح اساليبهـا عن تجربـة مرة ومعـاناة وعـرّاها في مـرآة الحقيقـة والتاريخ ! فالحكيم ـ راجي ـ من اعدىٰ اعداء الماسونيةوأعتىٰ مُفكرّ ضدّها ! ويتمتع بالحصانة الفكرية ضد الافكار العرجاء التي لا تقف على قدمـين !! ولكن لا بـأس من ان تفـوت هـذه الفـرصـة عـلى الاستـاذ ـ المطبعي ـ فـما يفـوت ويجـوز عـلى الاستـاذ قـد يستكمله التلميذ !!

(٣) يصـوّر الأخ ـ المـطبعي ـ افكـــار «راجي» بهـذه الكلمـــات فيقول (. . . وهكذا عرفه القراء من افكاره . ولكن افكاره لم تشكل فلسفة من الفلسفات التي نعرفها اليوم في عالم العلم والمعرفة لانه لا يريد ان يـذهب بعيـداً في اعمـاق الافكـار الفلسفيـة والمُجـادلات الكلامية . . . . الخ) وهذا تحليل أتقبّله لأفكار «راجي» من الناحية الفلسفية ولكن الى حدّ ما ! فالذي اعرفه ويعرفه المتتبعون المواكبون لافكار «راجي» هو انه يحمل فكراً عقائدياً أصيـلاً وواضحاً ، وانـه يعتمد هذا الفكر الاصيل والـواضح في ضـوء فلسفة وايـديولـوجية معروفة وواعية وانه أبداً يحمل على اولئك المثقفين الذين لا يحملون فكراً عقائدياً ـ إيّاً كان نوع ذلك الفكر ، وانه خاض غمار مجادلات ومناقشات كلامية وفلسفية مع خصومه حيثما وجدوا عـلى السـاحـة العراقية والعربية دفاعاً عن فكره العقائدي النابع من فلسفة هو مقتنع بها كل الاعتناق ، وانه يعتقد بان الحوار الهادىء او الجدل الكريم هو

الذي يُوصل الى الحقائق السليمة ، وهو الذي يُرسي سفينة العلم والحكم والفكر على مرافىء التقدم والتطور والانطلاق الى امام .

(٤) عن افكار (راجي) يقول المطبعي . . (ان راجي يحرق الشمعة ولا يلعن الظلام . . !!) كلا والف كلا . . فالذي اعرفه والذي سجله «المطبعي» نفسه في الحلقات الاخرى ، هو ان (راجي) بدأ حياته الدراسية في لعن الظلام فقد استطاع بالجهد الجهيد والمثابرة الجادة على الدروس ان يلعن ظلام الجهل والامية ، واستطاع بحصوله على اعلى الشهادات ومن خلال دروسه ومؤلفاته ومحاضراته وكتاباته وجولاته ولقاءاته وحواراته مع اطباء وعلماء العالم ان يشارك في لعن الظلام ، واستطاع حتى في «حفلات التعذيب» ان يلعن الظلام والظلاميين ! ولا غرابة في كل هذا ، وهو المُعجب الاول بقاهر الظلام «طه حسين» !!

إذن ، فان «راجي» لعن الظلام والظلاميين ، وفي كل هذا حرقٌ للشموع ووضعٌ للمصابيح الكبيرة على دروب الحياة . . وإني لأرفض الحكمة القائلة . . . إشعل شمعة ولا تلعن الظلام !!!

(٥) عن افكار (راجي) يقول المطبعي (. . . انا أشبّه راجي بقطعة الثلج ما ان تخرج من المجمّدة حتى تتلقفها الأيدي ، وتُعطي البرود لمن يمسكها ، ولكن تضمر مع استمرار الوقت . . .) الواقع إني لأعجب واعتب على الاخ ـ المطبعي ـ وهو من هو ـ محلّلاً نفسياً وعلمياً

اجتماعياً ، وحتى - باراسايكولوجياً - ان يشبّه «راجياً» في مجال العلم والمعرفة بقطعة الثلج وعلى النحو المذكور ، وهو الاديب والكاتب والمحلل الذي لا يخونه الوصف البليغ !! فان كان راضياً عن وصفه هذا للحكيم الراجي بعد ان يعيد النظر في العبارة والتشبيه ، فإني لا أرضى ولا اجامل في هذا الوصف الذي يردّ على ذاته بذاته !! ولعن الله «المجاملة» فإنها - كالسياسة - ما ان تدخل في كل رأي ومجال، حتى تسيءَ وتفسَدَ كلَّ رأي ومجال !! إن - المطبعي - ليدري ان الذي يحرق الشموع - كما يقول - ويلعن الظلام - كما أقول - ويشارك في التواصل العلمي والاشعاع الفكري على مدار الايام والاعوام لا يشبه بقطعة الثلج التي ما ان تخرج من - الثلاجة - حتى تتلقفها الأيدي ، وتضمر ، بل يظل خالد الفكر والذكر ، ما بقي الفكر والذكر وما بقي الانسان ، والحياة . .

ومن يدري ، فقد يكون لحبيبي واديبي - المطبعي - تفسير او «تأويل» آخر قد لا ادركه ولا اعلمه «وفوق كل ذي علمٍ عليم» ! فارجو ان اعرف هذا يا حميد !! ويا مجيد !! ويا بديع ويا سميع !! لأنك على كل شيء غير قدير !! ولانك تؤمن «بالبعد الرابع» الذي يجمع بين الزمان والمكان - وهو الزمكان - بالاضافة الى «الابعاد الثلاثة» الثوابت المعروفة !! وقد يساعد هذا «البُعد الرابع» على حلّ بعض الطلاسم والالغاز !!

(٦) من كتب - راجي - المطبوعة بطابع الاهمية كتابه «فلسفة الضحك» ولكن - المطبعي - اكتفى بالاشارة الى عنوانه فقط ، وكان عليه ان يقف وقفة - ولو سريعة - عند هذا الكتاب ! لان الحكيم «راجي» - كما يبدو لي - يتقمصُ آراء (سليمان الحكيم) في الضحك والبكاء ، واللذة والألم ،ويتبنىٰ رأي «نيتشه» فيلسوف الحياة الخصبة ، فانه يقول بالحرف الواحد (. . . إنني لأعرف تماماً لماذا كان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ، ذلك لان الانسان هو اعمق الموجودات وأشدّها ألماً وعذاباً . . من هنا كان لا بدّ له من ان يخترع الضحك فيضحك ! ومن هنا كذلك فان اكثر الحيوانات شقاءً وتعاسةً هي بطبيعة الحال اكثرها بشاشةً وإنشراحاً . . .) واني عندما ألوم - المطبعي - على بخله ، وهو الكريم المسرف - في التعليق على كتاب «فلسفة الضحك» فكذلك أُنحىٰ باللائمة على الحكيم الراجي نفسه ، حيث انه في كتابه هذا لم يخرج من الدائرة السايكولوجية والعلمية في «فلسفة الضحك» الى الدائرة السياسية والوطنية والقومية فيعرّج على اولئكم المخاليق المهازيل الذين يضحكون ويرقصون في محنة الامة ، ويتسببّون في احداث المهازل والمآسي لها ، بل ويقفون الى صفّ اعدائها ! حقاً انه لأمر مضحك يثير الرثاء والاشفاق ويحتاج الى تدليل وتعليل من قبل الحكيم الراجي في كتابه المذكور «فلسفة

ضحك» !! او في مقالة صحفية خاصة . . .

(٧) وفي ضوء ما كتبه «المطبعي» عن «الراجي» في حلقاته السبع والتي تشد القاريء اليها شداً قوياً، فان الحكيم الراجي - في نظري - لو يؤدِ رسالته العلمية والوطنية والقومية كما يجب على مستوى الطموح ، ولم يحقق ذاته تحقيقاً كاملاً غير منقوص ، لان تحقيق الذات هو «إستقطاب» بين الواقع والمثل الاعلى ولا يتجسد إلاّ بالصراع المرّ والتغلب على الازمات والصعوبات، والتاريخ البشري حافل بالشواهد والامثال .

واني شخصياً وبالرغم من بروز «الراجي» في مجالاته العلمية والطبية والعقيدية ، كنت اتوسمُ فيه شيئاً اكبر ، وان يكون له دور «الابطال» على مسرح الحياة !

وكيفما كان رأيي او املي في - راجي - وما ازال في دور المتأمل فيه ، فان «البير كامو» يجدُ «لراجي عذراً» عريضاً حين يقول (. . . ان مجرد الصراع من اجل بلوغ الذُرىٰ هو الكفيل وحده بان يملأ قلب الانسان !!) وأردّ بدوري على - كامو - بان «راجي» ما يزال قلبه غير مملوء تماماً بالرغم من صراعه من اجل بلوغ الذرىٰ وبالرغم من اعتقاد - المطبعي - بان «راجي» الطموح قد ملأ قلبه ووقته ملأً تاماً !! ومع هذا فطوبىٰ «لراجي» هذا التفتح على الفكر والحياة لانه خرج عن

جادة اولئك الذين اغلقوا الدائرة عليهم، وضربوا من حولهم اطواق الانانية والانفرادية والاثرة !! دون التضحية والايثار . .

ولو كان «المطبعي» اقتصد في الكلام عن امور جانبية وسطحية ليست من الجذور التاريخية في شيء ، وأسهب في التعليق على امور جوهرية في الصميم ، إذن لكان استكمل «الحلقات السبع على وجه اسلم وأدسم ، وأخصَ لا أَعَمْ !!» ولكنه لم يفعل ! فمن يستطيع الوقوف امام ـ المطبعي ـ اذا هو لم يفعل !؟

واخيراً . . فاني لا ادري ، ـ والله ـ أأعجب بالحكيم الطبيب «راجي» ام بالكاتب الاديب «المطبعي» ام بالاثنين معاً على حد سواء . . . الواقع ، لقد ضعُفت مقدرتي النقدية والتعليقية امام الصديقين الكبيرين ، وليس في وسعي ان ادخل معهما في معركة او حوار بعد الآن ، وما قولي او تعليقي هذا إلاّ من باب (قل كلمتك وامشِ . . .)، ولا املك إلاّ رفع «الراية البيضاء» امامهما وتقديم التحايا «العسكرية» لهما من جندي صغير او من «فضولي» كبير !! وهما على كل حال المتفضلان اللذان لا يبخلان بفضلهما على قومهما ، واللذان لا يجعلان المعروف في غير أهله . . . فان لم يقبلا بهذا المديح ولن يتقبلا التحية ـ عسكريةً ام مدنيةً ـ ان هما نسيا او تناسيا حكمة الشاعر العربي (زهير بن أبي سلمىٰ) إذن فليسمعا ويردّدا معي هذين البيتين اللذين كان يقرأهما عليّ الشاعر البصير المغمور (الملاّ ياسين) جدّ

الرفيق (عبدالفتاح الياسين):-

خليليَّ إن جئتما منزلي
ولم تجداهُ فسيحاً فسيحا
وإنْ رُمْتما منطقاً من فمي
ولم ترياهُ فصيحاً فصيحا

الفصـــل الاول

الفصـــل الثاني

الفصـــل الثالث

الفصـــل الرابع

الفصـــل الخامس

الفصـــل السادس

الفصـــل السابع



طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
١٩٨٩

الغلاف رياض عبد الكريم
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعر ديناران